ديـــوان

عَمْرِو بْنِ أَحْمَرَ الباهِلِيّ

دراسة / حياته وشعره

سلسلة لغتنا الخالدة

ديـــوان
عَمْرِو بْنِ أَحْمَرَ الباهِلِيّ
دراسة / حياته وشعره

تحقيق
محمّد محيي الدّين مينو

قنديل | Qindeel

ديوان عَمْرِو بْنِ أَحْمَرَ الباهِلِيّ

Dewan Amr bin Ahmad Al Baheli

Mohammad Mohiuddin Mino

(Poetry Studies)

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم التسجيل أم خلاف ذلك، إلّا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

موافقة «المجلس الوطني للإعلام» بدولة الإمارات العربية المتحدة رقم: (142163) تاريخ (11/ 08/ 2016)

الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير 2017م ـ 1438هـ

ISBN: 978 - 9948 - 02 - 185 - 8

© **جميع حقوق النشر محفوظة للناشر 2017**

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing - Publishing & Distribution

ص. ب: 71474 شارع الشيخ زايد

دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأوّل

الـدراســة

الإهداء

إلى (والديّ) إحساناً،

إلى (زوجتي) سكناً،

إلى (أولادي): المعتزّ باللّه، وبَيْهس، وسارة..

زينة الحياة الدنيا.

محمّد

المقدّمة

بعد أن انتهيت من صنع شعر ابن أحمر تراءت أمام عينيّ صورته، فرحت أنعم النظر في ملامح وجهه وأساريره، وأخذت أتقرّى قامته المديدة بين معاصريه من الشعراء المخضرمين، وأتتبّع معالم شخصيّته ومراحل حياته حتّى كان طوال سنين أقرب إلف إليّ وخير أليف.

كانت الطريق وعرةً، لأنّني كنت أمتح من بئر سحيقة بعيدة الغور بلا قرار، والمصادر قليلة الرواء، تضَنّ عليّ بالأخبار، فلا أجد في وعثاء تلك الطريق إلاّ أشعاره دليلاً وهادياً، وهي قصائد مقطّعة الأوصال متناثرة الأبيات.

إنّ لابن أحمر في ديوان العرب مكانةً مهمّةً، حاولت أن أنفض عنها غَبَرة الزمان، وإنّ له أيضاً مواقفَ ومنجزاتٍ سعيت إلى دراستها دراسةً متأنّيةً، لعلّها تكون فاتحةً لدراسات أُخَر، ولعلّها تلفت الباحثين والمؤرّخين إليه، فيحظى باهتمام أكبر ومنزلة أليق.

وهذه الدراسة جعلتها في ستّة فصول، ففي الفصل الأوّل منها تناولت باهلة قبيلة الشاعر، فتحدّثت عن نسبها ومنازلها وأيّامها وعقيدتها ومنزلتها وأعلامها من الفرسان والعلماء والشعراء.. ولا شكّ في أنّ هذا البحث قد يسّر علينا أن نفهم بعض الاتّجاهات التي أثّرت في حياته وشعره معاً.

وفي الفصل الثاني فصّلت القول في حياة ابن أحمر، فأوردت نسبه وأسرته، وتتبّعت مراحل نشأته وصلاته برجال عصره وأحداثه، ووقفت على عَوَره ووفاته، ثمّ انتهيت بعد ذلك كلّه إلى معالم شخصيّته ومظاهر ثقافته ومنزلته الأدبيّة.

وفي الفصل الثالث تناولت مصادر شعره، فتحدّثت عن ديوانه ورواية أشعاره ومصادرها المختلفة، وأشرت إلى ضياع شعره الذي لم يبق منه سوى نُثار من القصائد والأبيات.

وفي الفصل الرابع وثّقت شعر ابن أحمر، فناقشت الأشعار المضطربة بينه وبين غيره من الشعراء، لأكون على بيّنةٍ ممّا لهذا الشاعر وما ليس له قُبيل أن أبحث في موضوعاته وخصائصه.

وفي الفصل الخامس بحثت في أغراض شعره، فبيّنت ما لديه من موضوعات، وجهدت في دراستها غرضاً غرضاً.

وفي الفصل السادس درست الخصائص الفنّيّة في شعره، فتحدّثت عن الخصائص المعنويّة ثمّ الخصائص الفنّيّة، ومن ثمّ أنهيت دراسة حياته وشعره بخاتمة، أوجزت فيها ما ورد في فصول الدراسة من أبحاث وما خلصت إليه من نتائج.

وبعد، فإنّي أشكر لأستاذي الفاضل الدكتور عبدالحفيظ السَّطْلي فضلَ رعايته هذا البحث موفّراً لي من أسباب الرعاية ما يفوق الجهد الذي أنفقت وعانيت، وأشكر للأستاذين الدكتور محمّد رضوان الداية والدكتور عمر موسى باشا فضل مناقشة هذا البحث رسالةً وجهداً متواضعاً.

واللّه وليّ التوفيق.

دبيّ في 13 جمادى الأولى 1419هـ/ 4 أيلول 1998م.

محمّد محيي الدين مينو

الفصل الأوّل
قبيلة باهلة

إنّ لدراسة قبيلة من قبائل العرب أهميّةً بالغةً في كلّ بحث، يتناول شاعراً من شعرائها، إذ إنّ هذه الدراسة تيسّر على الباحث أن يفهم كثيراً من الاتّجاهات التي أثّرت في حياته وشعره معاً. فقد « كان الشعر في الجاهليّة عند العرب ديوان علمهم ومُنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون»[1]، وكان الشاعر لسان قبيلته، يحمي أعراضها، ويذُبّ عن أحسابها، ويخلّد مآثرها، فإذا نبغ شاعر في قبيلة، ركبت القبائل الأخرى إليها، فهنّأتها به، و«كانت العرب لا تهنّئ إلاّ بفرس منتج أو مولود ولد أو شاعر نبغ». [2]

ومن هنا نجد في هذا البحث خير مدخل إلى دراسة حياة ابن أحمر وشعره، فلعلّه يعرّفنا البيئة التي أثّرت في نمط حياته واتّجاه تفكيره، ويجعلنا نتفهّم كثيراً من جوانب هذه الشخصيّة بعد أن غمرها التاريخ، وأهملها الدهر.

---

(1) طبقات فحول الشعراء 24، وانظر: الممتع 24.

(2) الممتع 25، وانظر: العمدة 1/ 65.

1 ـ نسبها:

إنّ كلمة العلماء تتّفق على أنّ ابن أحمر من باهلة نسباً وأَرومةً، ويورد ابن حزم نسب هذه القبيلة في (جمهرة أنساب العرب)، فيقول: «وَلَد مالك بن أَعْصُر: سعد مَناة، وأمّه باهلة بنت صَعْب بن سعد العشيرة من مَذْحِج[1]، ومعن بن مالك خَلَف بعد أبيه على باهلة، فولدت له أولاداً، وحضنت سائر ولده من غيرها، فنُسب جميعهم إلى باهلة. فولد معن بن مالك: أَوْد بن معن وجِئاوة[2]: أمّهما باهلة، وفَرّاص واسمه شيبان[3]، وزيد ووائل والحارث وحرب: أمّهم بنت شَمْخ بن فَزارة[4]، وقتيبة وقَعْنَب: أمّهما بنت عمرو بن تميم[5]، حضنتهم كلّهم باهلة، فكلّهم يُنسب إليها»[6].

ويورد نسبها ابن قتيبة في (المعارف) وابن دريد في (الاشتقاق)، ويضيفان إلى ولد معن: «أبا عُليم»[7]، ويضيف البغداديّ إليهم من بنت شَمْخ أيضاً: «وُهَيبة وعَمراً»[8]، ويقال لهذا القبيل كلّه: باهلة بن أَعْصُر[9]، فقد غلبت

(1) في المعارف 80، والمؤتلف والمختلف 12، وخزانة الأدب 1/ 10، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 217: «من هَمْدان»، وفي الاشتقاق 271: «من مَذْحِج أو من هَمْدان»، وسعد العشيرة من مَذْحِج لا من هَمْدان، وانظر: جمهرة أنساب العرب 476.

(2) في جمهرة اللغة 3/ 230: «جآوة»، وفي اللباب 1/ 94: «جاءاوه»، وفي خزانة الأدب 4/ 565: «جعاوة»، وفي شرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 217: «جاوة بغير همز، وجعاوة».

(3) في التاج (فرص): «سنان»، وهو تصحيف.

(4) في خزانة الأدب 4/ 565، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 217: «أرنب بنت شَمْخ بن فَزارة».

(5) في اللباب 1/ 94، وخزانة الأدب 4/ 565: «سَوْدة بنت عمرو بن تميم».

(6) جمهرة أنساب العرب 245، وانظر: المعارف 81، والاشتقاق 271، وسمط اللآلئ 351 و843، والروض الأنف 1/ 61، واللباب 1/ 94، ونهاية الأرب 2/ 342، وخزانة الأدب 4/ 565، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 217، والتاج (عصر) و(فرص).

(7) المعارف 81، والاشتقاق 271.

(8) خزانة الأدب 4/ 565، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 217. وفي اللباب 1/ 94: «وُهَيبة».

(9) الكتاب 3/ 249، والممتع 251، ومعجم ما استعجم 90، ومعجم البلدان 1/ 72، واللباب 1/ 93 و94، واللسان (عصر)، وخزانة الأدب 4/ 565، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 217، والتاج

عليهم، وانتسبوا إليها. وأمّا أَعْصُر، فهو ابن سعد بن قيس عَيْلان بن مضر[1]، اسمه مُنَبِّه[2]، وإنّما سمّي أَعْصُر[3] بقوله[4]:

قالَتْ عُمَيْرَةُ: ما لِرَأْسِكَ بَعْدَما نَفِدَ الزَّمانُ أَتى بلَوْنٍ مُنْكَرِ
أَعُمَيْرُ، إِنَّ أَباكِ شَيَّبَ رَأْسَهُ كَرُّ اللَّيالي واخْتِلافُ الأَعْصُرِ

ولا خلاف في ذلك، ولكنّ ثمّة خلافاً متداولاً في قيس، فهو عَيْلان نفسه مرّةً، وهو ابن عَيْلان مرّةً أخرى، فبعضهم يقول: سمّي قيس عَيْلان بفرس له أو

(عصر)، وقال سيبويه: «باهلة بن أَعْصُر، فباهلة امرأة، ولكنّه جعله اسماً للحيّ، فجاز له أن يقول: ابن» الكتاب 3/ 249.

(1) طبقات فحول الشعراء 33، والشعر والشعراء 104، وجمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 842، وشرح المفضّليّات 102، ومعجم الشعراء 432، والممتع 251، وجمهرة أنساب العرب 244 و468 و481، وسمط اللآلئ 350، والتذكرة الحمدونيّة 7/ 370، واللباب 1/ 93، ونشوة الطرب 526 و580، والمزهر 2/ 475، وخزانة الأدب 3/ 266 و4/ 565. وفي طبقات فحول الشعراء، والشعر والشعراء، والمزهر، وخزانة الأدب: «قيس بن عَيْلان».

(2) طبقات فحول الشعراء 33، والشعر والشعراء 104، والمعارف 80، وجمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 842، وشرح المفضّليّات 102، والاختيارين 1، والأغاني 5702، والممتع 251، وجمهرة أنساب العرب 244، وسمط اللآلئ 350، وأساس البلاغة (عصر)، والروض الأنف 1/ 61، ونهاية الأرب 2/ 341 و342، والمزهر 2/ 475، وخزانة الأدب 3/ 266، والتاج (عصر) و(فرص).

(3) في ديوان بشر بن أبي خازم 160، وطبقات فحول الشعراء 33، والزينة 1/ 87، ومعجم الشعراء 432، وشرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ 2/ 262، وفرحة الأديب 141، والمخصّص 6/ 33، ومعجم ما استعجم 90، والروض الأنف 1/ 61، ومعجم البلدان 1/ 72، واللسان (عصر) و(يبر)، والتاج (عصر) سمّي (يَعْصُر) على إبدال الياء من الهمزة، وأَعْصُر: جمع عصر، وهو الدهر.

(4) طبقات فحول الشعراء 33، وهما في الشعر والشعراء 104، وشرح المفضّليّات 102، والأغاني 5702، ومعجم الشعراء 432، والممتع 251، وسمط اللآلئ 350، والتذكرة الحمدونيّة 7/ 370، وخزانة الأدب 3/ 266، والثاني في الاختيارين 1، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف (ط. أحمد) 228، والمخصّص 6/ 33، وأساس البلاغة (عصر)، والروض الأنف 1/ 61، ومعجم البلدان 1/ 72، واللسان (عصر) و(يبر)، والتاج (عصر).

كلب، وقيل: برجل حضنه، وقيل: بجبل ولد عنده[1]، ويؤيّد رأيهم قول العجّاج[2]:

وقَـيْـسَ عَـيْـلانَ ومَـنْ تَـقَـيَّـسـا

وبعضهم الآخر يرى أنّ قيساً هو ابن عَيْلان، واسم عَيْلان: إلياس بن مضر بن نزار[3]، ويشهد لذلك قول زُفَر بن الحارث الكِلابيّ[4]:

أَلا إِنَّـمـا قَـيْـسُ بْـنُ عَـيْـلانَ بَـقَّـةٌ إِذا وَجَدَتْ ريحَ العَصيرِ تَغَنَّتِ[5]

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف، فالمهمّ أنّ باهلة ترتفع بنسبها إلى نزار بن مَعَدّ بن عدنان، فهي من الجِذْم العدنانيّ الذي لم يجاوزه أبناؤه في أنسابهم وأشعارهم[6].

2 ـ منازلها وأيّامها:

يرى أبو عبيد البكريّ أنّ باهلة من القبائل العدنانيّة التي نزلت اليمامة، ويقول: «نزل نُمير بن عامر وباهلة بن يَعْصُر وتميم كلّها باليمامة، وبها دارهم إلاّ أنّ حاضرتها لربيعة بن نزار وإخوتهم»[7]، وكلمة القدماء لا تتّفق في تعيين

(1) التاج (عيل)، وانظر: التبيان 4/ 250، واللباب 2/ 163.
(2) الزينة 1/ 143، والتاج (عيل)، وانظر: ديوان العجّاج 1/ 210.
(3) التاج (عيل)، وانظر: المعارف 79، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف (ط. أحمد) 467، ومختلف القبائل ومؤتلفها 72، والتبيان 4/ 250، ونهاية الأرب 2/ 279.
(4) التبيان 4/ 250، والتاج (عيل).
(5) ريح العَصير: الريح الشديدة التي تثير الغبار.
(6) قال ابن سلاّم: «لم يجاوز أبناء نزار في أنسابهم وأشعارهم عدنان، اقتصروا على مَعَدّ، ولم يذكر عدنان جاهليّ قطّ غير لبيد بن ربيعة الكلابيّ»، فـ« نحن لا نقيم في النسب ما فوق عدنان، ولا نجد لأوليّة العرب المعروفين شعراً» طبقات فحول الشعراء 10.
(7) معجم ما استعجم 90.

اليمامة، فمنهم من يرى أنّها «معدودة من نجد، وقاعدتها حَجْر»[1]، ومنهم من يرى أنّ «بلادَ اليمامة والبحرين وما والاها العَروضُ»[2].

والمتأمّل في شعر أعلامها من الشعراء يرى بوضوح أنّ بطونها توزّعت في اليمامة ونجد معاً، فالجُبَيب والقَعْقاع وسَلْمى والوَجْر والعَنْقاء والنِّير والذَّبْل والفِراض وغيره في شعر ابن أحمر ـ وهو من أبرز شعرائها ـ ليست سوى مواضع معروفة في اليمامة ونجد، وممّا يؤكّد ذلك أيضاً أنّ عشيرة ابن أحمر نفسه سكنت نجداً، فنشأ شاعرنا في كُوَرها، ويُروى عن أبي عمرو بن العلاء أنّه قال: «كان ابن أحمر في أفصح بقعة من الأرض أهلاً: يَذْبُلَ والقَعاقِعَ»[3]، ويُذكر أنّ باهلة كانت تُوالي في الجاهليّة بني عامر بن صَعْصَعَة بالحاجة إليهم والانتصار بهم، وكانت بنو عامر تحمل عنهم النوائب والديات[4]، وتنزل غربيَّ نجد ممّا يلي الحجاز[5]، فجاورتهم باهلة، وانتصرت بهم، وإلى ذلك يشير ابن أحمر، فيقول[6]:

ومِنَّا الَّذي يَحْمي بمُهْجَةِ نَفْسِهِ بَني عامِرٍ يَوْمَ المُلوكِ القَماقِمِ

والمصادر لا تسعفنا بكبير طائل من الأخبار، لنتتبّع منازل باهلة، فلا ندري من أمر هذه الهجرة سوى ما يزعمه المستشرق جوزيف هِلْ إذ قال: «إنّهم ظلّوا هناك إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديّين، ثمّ نجدهم بعد ذلك يحتلّون بئر الحُفَير على مسيرة أربعة أميال من البصرة، وهذه البئر على جانب من الأهميّة

(1) معجم البلدان 5/ 442.
(2) شرح المفضّليّات 417، ومعجم البلدان 4/ 112.
(3) الشعر والشعراء 359، وعنه في شرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134. ويَذْبُل: جبل لباهلة. والقَعَاقِع: أرض من بلادها، وانظر: معجم ما استعجم 1085 و1391، ومعجم البلدان 5/ 433.
(4) الممتع 252.
(5) معجم ما استعجم 90.
(6) القصيدة 50/ 3.

لوقوعها على طريق الحجّاج»[1]، ولكنّنا لا نستطيع الاطمئنان إلى هذا الزعم، ونحن لا نعلم مصدره إلاّ أنّه يبدو صياغةً جديدةً لما يذكره ياقوت، فيقول: «الحُفَير: ماء لباهلة، بينه وبين البصرة أربعة أميال، يُبرز الحاجّ من البصرة»[2].

ولا شكّ في أنّ مثل هذه الإشارات في (معجم البلدان) وغيره من المصادر تدلّ على أنّ قبيلة باهلة قد انتشرت بعد الإسلام في بلاد العرب، ولم تكتف ببئر الحُفَير وحدها. فالقبيلة كانت تمثّل في الجاهليّة وحدةً سياسيّةً واجتماعيّةً مستقلّةً، ولمّا جاء الإسلام اضطرّت كلّ قبيلة أن تتخلّى عن استقلالها، لتعيش في ظلّ الدولة الواحدة، فتفرّقت بطوناً وأفخاذاً، وتوزّعت عشائر وفصائل.

ولو تتبّعنا مثل هذه المواقع في شعر ابن أحمر لوجدنا أنّ عشيرته انتقلت بعد فتح الشام من نجد إلى الجزيرة، فهو لا يفتأ يذكر أنهارها ونواحيها غير راضٍ عن نمط الحياة الجديدة، ويقول[3]:

لَقَدْ ظَعَنَتْ قَيْسٌ، فأَلْقَتْ بُيوتَها ... بسِنْجارَ فالأَجْزاعِ أَجْزاعِ دَوْسرا

وقَدْ كانَ في الأَطْهارِ أَوْ رَمْلِ فارِزٍ ... أَوْ الدَّوْمِ لَمّا أَنْ دَنا، فتَهَصَّرا

غِنىً عَنْ مِياهٍ بالمُدَيْبِرِ مُرَّةٍ ... وعَنْ خَرِبٍ، بُنْيانُهُ قَدْ تَكَسَّرا

فإِنْ يَكُ في كَيْلِ اليَمامَةِ عُسْرَةٌ ... فما كَيْلُ مَيّا فارِقِيْنَ بِأَعْسَرا

أَبَعْدَ حُلولٍ بالرِّكاءِ وجامِلٍ ... غَدا سارِحاً مِنْ حَوْلَنا، وتَنَشَّرا

تَبَدَّلْتَ إِصْطَبْلاً وتَلاًّ وجَرَّةً ... وديكاً، إِذا ما آنَسَ الفَجْرَ فَرْفَرا

(1) دائرة المعارف الإسلاميّة 6/ 155.

(2) معجم البلدان 2/ 277، وقال البكريّ: «الحُفَيْر بلفظ التصغير: ماء لبني العَنْبَر على خمس مراحل من البصرة» معجم ما استعجم 459.

(3) القصيدة 28/ 8 ـ 14.

وبُسْتانَ ذي ثَوْرَيْنِ لا لِيْنَ عِنْدَهُ إذا ما طَغى ناطورُهُ، وتَغَشْمَرا

ويصف بؤس عشيرته بأكناف الجزيرة، فيجمع في بيت واحد ما أصابهم من أنواع المكروه، ثمّ يأسى على حالهم أسىً مرّاً، ويُعرّض بمن أشار عليهم بالرحيل، ويقول[1]:

تُمَشِّي بأَكْنافِ البَليخِ نِساؤُنا أَرامِلَ يَسْتَطْعِمْنَ بالكَفِّ والفَمِ
نَقائِذَ بِرْسامٍ وحُمَّى وحَصْبَةٍ وجوعٍ وطاعونٍ ونَقْرٍ ومَغْرَمِ
لِيَهْنِكُمُ أَنَّا نَزَلْنا ببَلْدَةٍ كِلا مَلَوَيْها مُيْبِسٌ غَيْرُ مُنْعِمِ
نَأَتْ عَنْ سَبيلِ الخَيْرِ إلاّ أَقَلَّهُ وعَضَّتْ مِنَ الشَّرِّ القَراحِ بمُعْظَمِ
فيا راكِباً، إمَّا عَرَضْتَ، فبَلِّغَنْ قَبائِلَنا بالأَخْرَمَيْنِ وجَوْرَمِ
وبَلِّغْ أَبا الوَجْناءِ مَوْعِدَ قَوْمِهِ بحَوْرِيتَ يَظْعَنْ راغِباً غَيْرَ مُقْحَمِ
عَلِهْنَ، فما نَرْجو حَنيناً لِحُرَّةٍ هِجانٍ، ولا نَبْني خِباءً لِأَيِّمِ
يُصَلِّي عَلى مَنْ ماتَ مِنّا عَريفُنا ويَقْرَأُ حَتّى يَعْصِبَ الرِّيْقُ بالفَمِ

فمنازل باهلة لم تكن في اليمامة فحسب، وإنّما امتدّت إلى بلاد نجد كلّها، ثمّ انتقلت بعض بطونها إلى الجزيرة بُعيد فتح بلاد الشام، وفي نجد واليمامة كانت باهلة تزاحم القبائل الأخرى على موارد الحياة وأسباب الرزق، فكان لها في الجاهليّة أيّام عدّة، لم يبق من أخبارها سوى ما تناثر في أخبار شعرائها، وهي أشتات قليلة، تتّسم بالغموض والاضطراب، فلا يمكن الاطمئنان إليها، لنوضّح صورة الصراع القبليّ عصرئذٍ بين باهلة والقبائل الأخرى، وهو صراع لا تكاد دوافعه العامّة تخرج عن الثأر والغزو، ولكنّه يظلّ نزاعاً عصبيّاً في جوهره الذي اتّضح يوم احتدم أُوار العصبيّة القبليّة بين مضر

(1) القصيدة 49/ 27 ـ 34.

والقبائل اليمانيّة خاصّة أو بين عدنان والقبائل القحطانيّة عامّة. ولم يعد هذا الصراع يدور في سبيل صِرْمَة من الإبل أو قطيع من الشاء أو حول مورد ماء ومنبت كلأ، وإنّما أصبحت دوافعه أخطر شأناً وأعمق جذوراً، وتمثّلت في النزاع على السلطان السياسيّ والمغانم الماديّة ومواطن الخصب الواسعة ونحو ذلك.

ومن أيّامها:

* **يوم أَرْمام**: وهو بين باهلة وبني الحارث بن كعب من مَذْحِج[1]، قتل فيه المُنتشِر بن وَهْب الباهليّ مُرّةَ بن عاهان الحارثيّ[2]، فقالت ابنته[3]:

إِنَّـا وبـاهِـلَـةَ بْـنَ يَـعْـصُـرَ بَـيْـنَـنـا داءُ الـضَّـرائِـرِ بِـغْـضَـةً وتَـقـافـي[4]
مَـنْ يَـثْـقَـفـوا مِـنّـا، فـلَـيْـسَ بـوائِـلٍ أَبَـداً، وقَـتْـلُ بَـنـي قُـتَـيْـبَـةَ شـافـي[5]
ذَهَـبَـتْ قُـتَـيْـبَـةُ فـي الِّـلـقـاءِ بـفـارِسٍ لا طـائِـشٍ رَعْـشٍ ولا وَقّـافِ

وكان المنتشر رئيساً فارساً، فقد صارت إليه رئاسة الأنباء يوم أَرْمام[6]، ولأعشى باهلة ـ كما سنرى ـ قصيدة مشهورة في رثائه يوم ثأر منه بنو الحارث، فقتلوه.

(1) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ 2/ 263، وفرحة الأديب 141، وخزانة الأدب 4/ 565، وقال ياقوت: «أَرْمام: اسم جبل في ديار باهلة» معجم البلدان 1/ 154.

(2) فرحة الأديب 141، وخزانة الأدب 1/ 91 و4/ 565.

(3) فرحة الأديب 141، والأبيات في خزانة الأدب 4/ 565 لابنة مرّة، وفي ديوان بشر بن أبي خازم الأسديّ 160، والأوّل والثاني في شرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ 2/ 262، وفرحة الأديب 141 لابنة مرّة، والثاني في خزانة الأدب 4/ 565 لابنة مرّة، وفي الكتاب 3/ 516، وما يجوز للشاعر 326، وضرائر الشعر 30، والمقرّب 2/ 74، والمقاصد النحويّة 4/ 330 بلا نسبة.

(4) التقافي: البهتان يرمي به الرجل صاحبه، وهو من القَفْو، أي: الرمي بالقبيح.

(5) يثقفوا: يظفروا. والوائل: الملتجئ الناجي بنفسه، ووأل إليه: لجأ، ونجا.

(6) خزانة الأدب 1/ 91.

* **يوم سِلّى**: وهو يوم اختُلف فيه، فقال ابن السيرافيّ: «كانت بنو ضَبَّة غزت باهلة، وعليهم حُكيم بن قَبيصة بن ضِرار الضَّبِّيّ، فهزمتهم باهلة، وجرحوا حُكيماً، وقتلوا عبيدة الضَّبِّيّ»[1]، ونقل عن الغُنْدِجانيّ عن أبي الندى قوله: «أغار شَقيق بن جَزْء الباهليّ على بني ضَبَّة بسِلّى وساجِر، وهما روضتان لعُكْل، وضَبَّة وعُكْل وعَديّ وتَيْم حلفاء متجاورون، فهزمهم، وأفلت عوف بن ضِرار في ذلك اليوم وحُكيم بن قَبيصة بن ضِرار بعد أن جُرح، وقتلوا عبيدة بن قضيب الضَّبِّيّ»[2].

وفي سلّى قال شقيق فارس ذلك اليوم[3]:

لَقَدْ قَرَّتْ لَهُمْ عَيْني بسِلّى ورَوْضَةِ ساجِرٍ ذاتِ العَرار[4]
جَزَيْتُ المِلْحَبَيْنِ بما أَزَلَّتْ مِنَ البُوْسى رِماحُ بَني ضِرارِ[5]
كَأَنَّ عَذيرَهُمْ بجَنوبِ سِلّى نَعامٌ قاقَ في بَلَدٍ قِفارِ[6]

وقال ابن أحمر، فذكر فوارس سِلَّى وساجِر[7]:

مُنىً لَكَ أَنْ تَلْقى ابْنَ هِنْدٍ مَنِيَّةٌ وفارِسَ مَيّاسٍ، إذا ما تَلَبَّبا
وجَحْلاً أَبا عَمْرٍو وقُرَّةَ ذا النَّدى وزُهْراً وغَلَّاقاً، ويالَكَ مِقْنَبا

(1) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ1/ 309، وعنه في فرحة الأديب 76.
(2) فرحة الأديب 77، ومعجم البلدان 3/ 232. وسِلّى وساجِر: موضعان في اليمامة، وانظر: معجم البلدان 3/ 169 و231.
(3) فرحة الأديب 78، والأبيات لشقيق في معجم البلدان 3/ 232، والثالث منها للنابغة الجعديّ في الكتاب 1/ 213، ولشقيق في شرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ 1/ 308، وللجعديّ ولابن جزء في اللسان، والتاج (قوق)، ودون نسبة في الكامل 3/ 322، والإنصاف في مسائل الخلاف 63، واللسان، والتاج (سلل)، وعن هذه المصادر نُقل البيت إلى ديوان النابغة الجعديّ 24.
(4) العرار: ضرب من النبت طيّب الرائحة.
(5) الملحب: السبّاب البذيء اللسان، وأصل اللَّحْب: قطعك اللحم طولاً.
(6) عذيرهم: حالهم أو صوتهم.
(7) القصيدة 7/ 1 ـ 4.

عَـرانـيـنُ مِـنْ عَـبْـدِ بْـنِ غَـنْـمٍ أَبـوهُـمُ هِجانٌ، فسامى في الهِجانِ، وأَنْجَبا
فَـوارِسُ سِـلَّـى يَـوْمَ سِـلَّـى وسـاجِـرٍ إِذا هَـرَّتِ الـخَـيْـلُ الـحَـديـدَ الـمُـذَرَّبـا

* **يوم طَلْح**: وهو بين باهلة وتغلب، وفيه أَسر جَحْل بن نَضْلَة النَّوَارَ بنت عمرو بن كلثوم التغلبيّ، وركب بها المفاوز خوفاً من أن يُلحق[1]، وأُسر ابنها شُبيب بن جُعيل[2].

* **يوم العَريض**: وهو بين باهلة وبني سعد بن زيد مَناة بن تميم، فقد أغارت بنو سعد على باهلة، ورئيسهم الزِّبْرِقان بن بدر والأهتم المِنْقريّ، فأُسرا، وافتدى الأهتم نفسه، ومَنُّوا على الزِّبْرِقان، فقال عمرو بن مِيسَم[3]:

غَـزَتْـنـا بَـنـو سَـعْـدٍ، فـدُسْـنـا مُـقـاعِـسـاً وأَشْـحَـيْـتُ بـالـرُّمْـحِ الأَصَـمِّ مُـلادِسـا[4]
قَـرَيْـنـاهُـمُ زُرْقَ الأَسِـنَّـةِ والـظُّـبـا ولَـمْ نَـقْـرِهِـمْ كُـوْمـاً جِـلاداً قَـنـاعِـسـا[5]
عَـوى أَهْـتَـمٌ، ثُـمَّ انْـثَـنـى، فـأَصـابَـهُ دَرِيـرٌ يُـثـيـرُ الـبَـطْـنَ رَطْـبـاً ويـابِـسـا[6]

* **يوم الكَوْم**: وهو لباهلة على بني الحارث ومُراد وخَثْعَم[7]، ومن

(1) خزانة الأدب 2/ 158، وقال ياقوت: «طَلْح: موضع بين اليمامة ومكّة» معجم البلدان 4/ 38.
(2) المؤتلف والمختلف 115.
(3) جمهرة الأمثال 2/ 192، وقال ياقوت: «العَريض: جبل، وقيل: اسم واد، وقيل: موضع بنجد» معجم البلدان 4/ 114.
(4) مقاعس: بطن من سعد، وهم بنو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مَناة بن تميم، وانظر: جمهرة أنساب العرب 216. وأَشحيت: أمعنت في الطَّعْن، وتوسّعت، والأصل في الشَّحْو: سعة الخطو. والرمح الأصمّ: الشديد. وملادس: بطن آخر من سعد، وهم بنو ملادس بن عبد شمس بن سعد، وانظر: جمهرة أنساب العرب 215.
(5) الظبا: جمع ظُبَة، وهي حدّ السيف والسِّنان والنصل وما أشبه ذلك. والكوم: جمع كَوْماء، وهي الناقة العظيمة السَّنام. والجلاد: جمع جَلْدَة، وهي الناقة الغزيرة اللبن. والقناعس: جمع قِنْعاس، وهي الناقة الطويلة العظيمة السَّنِمة.
(6) الدرير: السهم السريع.
(7) أنساب الخيل 101، والاختيارين 197، وانظر: اللسان، والتاج (هدج).

فرسان الكوم شقيق بن جَزْء الباهليّ فارس مَيّاس[1]، ففيه يقول مالك بن زُغْبَة الباهليّ[2]:

وكانوا مُهْلِكي الأَبْناءَ لَوْلا تَدارَكَهُمْ بصارِخَةٍ شَقيقُ[3]
مُظاهِرُ نَثْلَةٍ مَعْهُ أَفَلٌّ حُسامُ الحَدِّ مَأْثورٌ رَقيقُ[4]
وما يَنْفَكُّ مَيَّاسٌ مُعاداً عَلَيْهِمْ بَعْدَ نافِذَةٍ خَسيقُ[5]

ومنهم ربيعة بن مُدْلِج الباهليّ فارس هَدّاج[6]، ففيه أنشد الأصمعيّ لحارثيّة، ترثي مَنْ قتل ربيعةُ من قومها في ذلك اليوم[7]:

شَقيقٌ وحَرْميٌّ أَراقا دِماءَنا وفارِسُ هَدّاجٍ أَشابَ النَّواصِيا[8]

* **يوم كيّة العَجْب**: وهو لبني مُحارب بن خَصَفَة بن قيس عَيْلان على

(1) أنساب الخيل 82، وأسماء خيل العرب 66، وأسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها 228، والمخصّص 6/ 195، واللسان، والتاج (ميس).

(2) الاختيارين 199، والأخفش ينقل عن الأصمعيّ قوله: «هي لجَزْء بن رَباح الباهليّ» الاختيارين 196، فينسبها إلى أبي شقيق.

(3) الصارخة: الجماعة المغيثة.

(4) مظاهر نَثْلَة: لابس نثلةً فوق أخرى، فإذا لبس الرجل ثوبين، فقد ظاهر، والنثلة: الدِّرْع. ومعه أَفَلّ: معه سيف، قوتل به قبل ذلك اليوم، فأصابه فلّ. والمأثور: الذي فيه أثر.

(5) النافذة: التي نفذت. والخسيق: رمية سهم لم تنفذ نفاذاً شديداً، وخَسَق: رمى، وشقّ.

(6) أسماء خيل العرب 66، وأسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها 264، واللسان، والتاج (هدج)، وانظر: أنساب الخيل 101، فقد سقطت عبارة «هَدّاج: فرس ربيعة بن مُدْلِج الباهليّ» من أصل ابن الكلبيّ، ولم يلتفت المحقّق إلى تحريرها، فجعل في خبر أَرْمام هَدّاجاً آخر للرَّيْب بن الشَّرِيق السعديّ، ثمّ قارن بأمثال العرب للمفضّل 56، وأسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها 264، ونهاية الأرب 10/ 42، والتاج (هدج).

(7) اللسان، والتاج (هدج)، والبيت في أنساب الخيل 101 لحارثيّة، وفي أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها 265 لحارثيّ، وفي أسماء خيل العرب 66 بلا نسبة.

(8) قال ابن منظور: «أرادت بشقيق وحَرْميّ: شقيق بن جَزْء بن رياح الباهليّ، وحَرْميّ بن ضَمْرَة النهشليّ» اللسان (هدج)، ومثله في التاج (هدج).

باهلة، فقد أوقع عامر بن وَهْب بن مُجاشع بباهلة، وكان سيّد قومه، فأسر منهم جمعاً عظيماً، ثمّ نادى في رجوعه إلى بلاده: «من له في باهلة ثأر، فليأخذْه»، ثمّ كوى الباقين على أستاههم، وأطلقهم، فسمّي ذلك اليوم كيّة العجب، وباهلة تغضب من ذلك اليوم إذا ذُكر لها[1].

فأيّام باهلة كانت جاهليّة النزعة، لا تكاد تخرج في دوافعها العامّة عن الثأر والغزو، فقد رأينا أنّ كيّة العجب مثلاً ثأر بين قبيلتين قيسيّتين، ولكنّ في جوهر هذه الأيّام نزاعاً عصبيّاً عامّاً، تُظهر باهلة في أحداثه الكبرى الولاء لقيس ثمّ لمضر فعدنان.

3 ـ شِرْكها وإسلامها:

يبرز الشرك لدى باهلة وغيرها من دَهْماء العرب مظهراً مهمّاً من مظاهر النزعة الجاهليّة، فالأصنام طاغية على عرب الجزيرة، وكلّ ملّة تتّخذ لنفسها من دون اللّه وليّاً من الملائكة أو الجنّ، أو تجد لها صنماً من تمر أو حجر.

وقد كانت باهلة تخصّ العُزّى بالعبادة[2]، وهي شجرة[3] بنخلةَ[4]، عندها

(1) جمهرة أنساب العرب 260.

(2) الأصنام 27، والمحبّر 315، وجمهرة أنساب العرب 491، ومعجم البلدان 4/ 118.

(3) الأصنام 24، والمحبّر 315، وجمهرة أنساب العرب 491، وقال ياقوت: «العُزّى: سَمُرَة» معجم البلدان 4/ 118. والسَّمَر: ضرب من الشجر صغار الورق قصار الشوك، وله بَرَمَة صفراء، يأكلها الناس، وليس في العِضاه شيء أجود منه خشباً، وكلّ شجرة ذات شوك، هي عِضَة. انظر: اللسان، والتاج (سمر).

(4) الأصنام 18 و24 و25، والسيرة النبويّة 1/ 106، والمحبّر 315، وجمهرة أنساب العرب 491، ومعجم البلدان 4/ 116 و117، وقال ابن الكلبيّ: «كانت بواد من نخلةَ الشاميّة، يقال له: حُرَاض بإزاء الغُمَيْر عن يمين المُصعد إلى العراق من مكّة، وذلك فوق ذات عِرْق إلى البستان بتسعة أميال» الأصنام 18، وعنه في معجم البلدان 4/ 116.

وثن[1]، اتّخذها ظالم بن أسعد، فبنى عليها بيتاً[2]، وكان سَدَنتها من بني صِرْمَة بن مرّة من ذُبيان[3]، وقيل: من بني شيبان بن سُليم[4]، وكان آخر من سدنها منهم دُبيّة بن حَرَمِيّ السُّلَميّ[5] الذي قتله عام الفتح خالد بن الوليد، رضي اللّه عنه، وعَضَد الشجرة، وهدم البيت، وكسر الوثن[6]، ثمّ أتى النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، فأخبره، فقال: «تلك العُزّى، ولا عزّى للعرب بعدها، أمّا إنّها لن تُعبد بعد اليوم»[7].

ولم تكن باهلة وحدها تعظّم العُزّى، فقد كان أكثر العرب معظّماً لها، ويذكر ابن الكلبيّ ذلك، فيقول: «لم تكن قريش بمكّة ومن أقام بها من العرب يعظّمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العُزّى ثمّ اللات ثمّ مَناة، فأمّا العُزّى، فكانت قريش تخصّها دون غيرها بالزيارة والهديّة، وذلك فيما أظنّ كان لقربها منها، وكانت ثقيف تخصّ اللات كخاصّة قريش العُزّى، وكانت الأوس والخزرج تخصّان مَناة كخاصّة هؤلاء الآخرين، وكلّهم كان معظّماً لها»، و«كانت قريش تعظّمها، وكانت غَنِيّ وباهلة يعبدونها معهم»[8]، ويذكر صاحب (السيرة النبويّة) أنّها «كانت لقريش وبني كنانة»[9]، ويورد ابن حبيب هذا كلّه،

(1) المحبّر 315، وجمهرة أنساب العرب 491، ومعجم البلدان 4/ 116.
(2) الأصنام 18، ومعجم البلدان 4/ 116.
(3) المحبّر 315، وجمهرة أنساب العرب 491.
(4) الأصنام 22، والسيرة النبويّة 1/ 106، ومعجم البلدان 4/ 117.
(5) الأصنام 22 و25، والسيرة النبويّة 1/ 106، ومعجم البلدان 4/ 117، وأورده ناشر المعجم: «حَرْمَى»، وهو تصحيف.
(6) الأصنام 24 و25 و27، والمحبّر 124 و315، وجمهرة أنساب العرب 491، ومعجم البلدان 4/ 116 و118.
(7) الأصنام 26، ومعجم البلدان 4/ 118.
(8) الأصنام 27، وعنه في معجم البلدان 4/ 118.
(9) السيرة النبويّة 1/ 106.

ويضيف إليه، فيقول: «تعبدها غطفان»[1]، وسائر معظّمي العُزّى وسدنتها من مضر إلاّ الأوس والخزرج، فهما من الأزد، فكأنّها لأغلب مضر.

ويجد ابن الكلبيّ أنّ العُزّى أحدث من اللات ومَناة، وذلك أنّ العرب سمّت بهما (عبداللات) و(عبدمناة) قبل (عبدالعُزّى)، وعبدالعُزّى بن كعب التميميّ من أقدم ما سمّت به العرب[2]، وكان لهذه الأنصاب الثلاثة مكانة عندهم، فكانوا يزورونها بأوقات، ويُهدون إليها، ويتقرّبون عندها بالعَتَائر، ويدعونها: بنات اللّه، عزّ اللّه وجلّ عن ذلك، وهنّ يشفعن إليه، وقريش ذاتها كانت تطوف بالكعبة، وتقول باسمها: «اللّات والعُزّى ومَناة الثالثة الأخرى، فإنّهنّ الغَرانيق العُلى، وإنّ شفاعتهنّ لترتجى»[3]. ولمّا بعث الله رسوله ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ بالهدى، أنزل فيها عليه قوله الكريم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[4]، فعابها وغيرَها من الأصنام، ونهاهم عن عبادتها، ثمّ أرسل النبيّ ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ من هدمها، ليجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة اللّه العليا.

ولم تكن باهلة كلّها تخصّ العُزّى بالعبادة، وإنّما كان ثمّة بطن منها يَسْدُن ذا الخَلَصَة، ويجلّه، وهم بنو أُمامة[5]، وذو الخَلصة مَرْوَة متوّجة بيضاء بتَبَالة

(1) المحبّر 315، وانظر: جمهرة أنساب العرب 491، ونشوة الطرب 78.

(2) الأصنام 17، وعنه في معجم البلدان 4/ 116، وانظر ترجمة عبد العُزّى بن كعب التميميّ في جمهرة أنساب العرب 220.

(3) الأصنام 19، وعنه في معجم البلدان 4/ 116. والغرانيق: جمع غِرْنَوْق وغِرْنَيْق، وهي هنا الأصنام، وأصلها الذكور من طير الماء، سمّي به لبياضه.

(4) سورة النجم 53/ 19. القسمة الضيزى: الجائرة، ضازه: ظلمه، وجار عليه.

(5) الأصنام 35، ومعجم البلدان 2/ 383، وخزانة الأدب 1/ 92.

بين مكّة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكّة، تعظّمَهَا خَثْعَم وبَجِيلة وأَزْد السَّراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن، ولمّا فتح رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ مكّة قدم عليه جرير بن عبدالله البَجَليّ[1] مسلماً، فوجّهه إلى ذي الخَلَصَة، فخرج، حتّى أتى بني أَحْمَس من بَجِيلة، فسار بهم إليه، فقاتلته خَثْعَم وباهلة، فقتل من سدنته من باهلة يومئذٍ مئة رجل، وأكثر القتل في خَثْعَم، وهدم بنيان ذي الخَلَصة، وأضرم فيه النار، فاحترق[2].

ولمّا أخذت العرب تفد مسلمةً على النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، استجابت باهلة للدعوة المحمّديّة، فأوفدت رسلها إليه، ويذكر النويريّ وفد باهلة، فيقول: «قَدِم على رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ مُطَرِّف بن الكاهن الباهليّ بعد الفتح وافداً لقومه، فأسلم، وأخذ لقومه أماناً، وكتب له رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ كتاباً، فيه فرائض الصدقات، ثمّ قدم نَهْشَل بن مالك الوائليّ من باهلة على رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ وافداً لقومه، فأسلم، وكتب له رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ ولمن أسلم من قومه كتاباً، فيه شرائع الإسلام»[3].

(1) انظر ترجمته وأخباره في المحبّر 75 و232 و261 و302، وجمهرة أنساب العرب 387، والإصابة 1/ 232.

(2) الأصنام 34 وما بعدها، وعنه في معجم البلدان 2/ 383، وخزانة الأدب 1/ 92، وقال ابن حبيب: «كان ذو الخَلَصَة له بيت تعبده بَجيلة وخَثْعَم والحارث بن كعب وجَرْم وزُبيد والغَوْث بن مُرّ بن أُدّ وبنو هلال بن عامر، وكانوا سَدَنته، وكان بين مكّة واليمن، كان بالعَبْلاء على أربع مراحل من مكّة» المحبّر 317، وعنه في معجم البلدان 1/ 383، وقال البكريّ: «بيت بالعَبْلاء كانت خَثْعَم تحُجُّه، وهو اليوم موضع مسجد العَبْلاء» معجم ما استعجم 508، وقال ياقوت: «هو بيت أصنام كان لدّوْس وخَثْعَم وبَجِيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتَبَالة» معجم البلدان 1/ 383، وانظر: الأغاني 3212، وجمهرة أنساب العرب 493، والمرصّع 161، ونشوة الطرب 250، وخزانة الأدب 1/ 91 و92.

(3) نهاية الأرب 18/ 50.

4 ـ منزلتها وأعلامها:

شرفت باهلة بالإسلام، وكان لرجالها صيت عظيم في الدين والرئاسة والعلم والأدب، وكان فيهم مروءة وكرم وفضل، ولكنّ الهجاء حطّ من مكانتها في الجاهليّة والإسلام، فقد كانت من القبائل التي شَقيت به، ولقيت من صوائب الشعراء بلاءً مظلماً، فنكّب بها كلّ ساعٍ، وعثر بها كلّ ماشٍ. والعرب تمدح، فترفع، وتهجو، فتضع، فإذا مدحت الشيء بلطافتها وذلاقة ألسنتها اختير، وبُسط عذره، فشهر بأطرار الأرض، وإذا هجته غطّت محاسنه وفضائله.

وأمّا من وضعه من القبائل، وقصّر به حتّى صار مثلاً، وإن كان فيهم خير كثير وشرف وفرسان، فباهلة وغَنِيّ وعُكْل وسَلول ومُحارب وجَسْر وتَيْم والحَبِطات بن عمرو بن تميم[1]، وباهلة وغَنِيّ ـ وهما ابنا أَعْصُر بن سعد ـ من الذين مُزّقوا كلّ ممزّق على تقدّمهم في الشجاعة والفضل أحياء من قيس[2]، والجاحظ أشار إلى هذا، فقال: «جلّ معظم البلاء لم يقع إلاّ بغَنِيّ وباهلة، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب»[3].

وهجاء باهلة لم يكن مُقصَّداً مُسهَباً، وإنّما كان في جملته مثلاً فاضحاً وأخباراً وأبياتاً سائرةً، فحَسْبُ كلّ باهليّ من هذا كلّه سُبّة مُرّة، ليغضّ الطرف كلّ حياته. وأمّا المثل، فقد قيل: «لؤم باهلة»[4] لكلّ دنيء ووضيع، فكان طعنةً وخيمةً، تضع الأحساب، وتهدم البنيان، فتجزع منها النفوس، والثعالبيّ يذكر أنّ الأصمعيّ كان يجزع من قول أبي محمّد اليزيديّ فيه[5]:

---

(1) الممتع 249، وانظر: البيان والتبيين 4/ 36.
(2) العمدة 2/ 182.
(3) الحيوان 1/ 360.
(4) المضاف والمنسوب 119.
(5) المصدر السابق نفسه 119. والأوّل في طبقات ابن المعتزّ 274، والورقة 29، ومعجم الشعراء 488، وطبقات النحويّين واللغويّين 63، ووفيات الأعيان 6/ 188، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 219، والثاني في الكامل 3/ 10 بلا نسبة.

ومَـنْ أَنْـتَ ؟ هَـلْ أَنْـتَ إلاّ امْـرُؤٌ إذا صَـحَّ أَصْـلُـكَ مِـنْ بـاهِـلَـهْ ؟
ولِـلْـبـاهِـلِـيِّ عَـلـى خُـبْـزِهِ كِـتـابٌ يُـحَـرِّمُـهُ آكِـلَـهْ

وقد هجيت باهلة باللؤم أشدّ الهجاء وأمضّه، فقال المُمزِّق[1]:

إذا وَلَـدَت حَـلـيـلَـةُ بـاهِـلِـيٍّ غُـلامـاً زيـدَ فـي عَـدَدِ الِّـلـئـامِ
وعِـرْضُ الـبـاهِـلِـيِّ ـ وإنْ تَـوَقّـى ـ عَـلَـيْـهِ مِـثْـلُ مِـنْـديـلِ الـطَّـعـامِ
إذا ازْدَحَـمَ الـكِـرامُ عَـلـى الـمَـعـالـي تَـنَـحَّـى الـبـاهِـلِـيُّ عَـنِ الـزَّحـامِ

واستجاد الثعالبيّ قول أبي هِفّان الذي ترتعد لسماعه فرائص كلّ باهليّ[2]:

أَبـاهِـلَ، يَـنْـبَـحُـنـي كَـلْـبُـكُـمْ وأُسْـدُكُـمُ كـكِـلابِ الـعَـرَبْ
ولَـوْ قـيـلَ لـلـكَـلْـبِ: يـا بـاهِـلِـيُّ عَـوى الكَلْبُ مِنْ لُؤْمِ هَذا النَّسَبْ

واستحسن الثعالبيّ أيضاً قول بعضهم في باهليّ[3]:

فَـخَـرْتَ، فـأَصْـلُـكَ أَصْـلٌ شَـريـفٌ ضَـرَرْتُ بِـهِ نَـفْـسَـكَ الـخـامِـلَـهْ
ومـا يَـنْـفَـعُ الأَصْـلُ مِـنْ هـاشِـمٍ إذا كـانَـتِ الـنَّـفْـسُ مِـنْ بـاهِـلَـهْ

ورأى ابن قتيبة أنّ «من خبيث الهجاء قول زيد الخيل «فيمن صار في يده

(1) الورقة 98، والأوّل والثالث في الحماسة الشجريّة 443 بلا نسبة، والأوّل في محاضرات الأدباء 1/ 165 بلا نسبة.

(2) المضاف والمنسوب 119، وهما في الكامل 3/ 11، والممتع 226 لرجل من عبد القيس، والثاني في شرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 217 للرجل ذاته، وفي ديوان المعاني 215، والتذكرة الحمدونيّة 5/ 116، ووفيات الأعيان 4/ 90، ونهاية الأرب 3/ 279 بلا نسبة.

(3) المضاف والمنسوب 119. والثاني في اللباب 1/ 93، ووفيات الأعيان 4/ 90، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 217 بلا نسبة.

أسيراً من باهلة أو غَنِيّ، فهو الخائب، وإنّما الغانم من أسر من قُشير وكلاب[1]:

فَخَيْبَةُ مَنْ يُغيرُ عَلى غَنِيٍّ وباهِلَةَ بْنِ أَعْصُرَ والرِّكابِ
وأَدَّى الغُنْمَ مَنْ أَدَّى قُشَيْراً ومَنْ كانَتْ لَهُ أَسْرى كِلابِ

ومنذ الجاهليّة سُبّت باهلة وغَنِيّ معاً بـ (ابني دُخان)، وهو لقب أبيهم أَعْصُر بن سعد، لأنّ ملكاً من ملوك اليمن أغار على مَعَدّ، فدخل هو وأصحابه كهفاً، فدخّن عليهم أَعْصُر، فهلكوا، فسمّي دُخاناً، وقيل لباهلة وغَنِيّ: ابنا دُخان[2].

وفي هذه السُّبّة يقول ابن قتيبة: «ابنا دُخان: غَنِيّ وباهلة، وكانوا يُسبّون بذلك في الجاهليّة كالرِّكاب، أي: لا امتناع بهم كما لا تمتنع الرِّكاب، وكان الرجل منهم في الجاهليّة إذا قتل رجلاً من أفناء العرب لم يكن في دمه وفاء منه حتّى يُزاد عشراً من الإبل أو نحوها، وهذا قول أبي عبيدة، وذكر أنّ الأشعث الكنديّ قال للنبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم: أتكافأ دماؤنا، يا رسول اللّه؟ قال: نعم، ولو قتلت رجلاً من باهلة، لقتلتك به»[3].

ويبدو أنّ أصداء هذه السبّة لم تنته في الجاهليّة، وإنّما ظلّت تتردّد في الإسلام، فقد وجد الفرزدق فيها صوائب شديدة الوقع حين هجا أصمّ باهلة، وكان ممّا قال[4]:

أَأَجْعَلُ دارِماً كابْنَيْ دُخانٍ وكانا في الغَنيمِةِ كالرِّكابِ

ومن الطريف والغريب معاً أن تلفّق بحقّ باهلة مذمّة مرّة، فتهجى أيضاً

(1) الشعر والشعراء 288، وهما في المعاني الكبير 576 لزيد الخيل، والأوّل في الأغاني 6565، والمصون 18، والممتع 252 لزيد الخيل، وفي الممتع 271 لطفيل الغنويّ.
(2) شرح المفضّليّات 102.
(3) المعاني الكبير 577، وحديث الأشعث في وفيات الأعيان 4/ 90: «أتتكافأ».
(4) ديوان الفرزدق 1/ 32، والمعاني الكبير 577.

بأكل لحوم البشر، فقال الجاحظ: «هُجيت هُذيل وأسد وبَلْعَنْبَر وباهلة بأكل لحوم الناس»[1]، ثمّ أنشد قول الراجز في ذلك[2]:

إِنَّ عِفاقاً أَكَلَتْهُ باهِلَهْ

تَمَشَّشوا عِظامَهُ وكاهِلَهْ

وأَصْبَحَتْ أُمُّ عِفاقٍ ثاكِلَهْ

ولعلّ قبيلة باهلة بريئة من هذه التهمة، لا تؤخذ بجريرة الأحدب بن عمرو بن جابر الباهليّ الذي جرّ على قبيلته هجاءً ظالماً، شقيت ببلائه، فقد ذكرت الأخبار أنّه أخذ عِفاق بن مُرَي من سَلَمة بن قُشير في سنة قحط، فشواه، وأكله[3].

ويفتنّ الرواة في هذه الأخبار، فيرمون باهلة بصنوف اللؤم وضروب الخبث، فكان ألسنة القصاص لا تملّ عن الهذر المشين الذي يضع الأحساب والأنساب، وبلغ الأمر ببعض هؤلاء الرواة أن وضعوا كتباً في مثالبها، ويذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست)[4] واحداً لعلان الشعوبيّ الفارسيّ وآخر لأبي عبيدة التَّيْميّ القرشيّ الذي رأى لباهلة حقّاً في مناقب محمودة، فوضع أيضاً (مناقب باهلة). وهنا نضرب صفحاً عمّا يُحكى من أخبار[5]، تعرّض بمكانة

(1) الحيوان 1/ 268.

(2) الحيوان 1/ 269، والرجز في جمهرة أنساب العرب 245، وخزانة الأدب 3/ 206، والتّاج (عفق)، وفي الحيوان: «غِفَاق» بالغين المعجمة، وهو تصحيف، حرّرته من المصادر الأخرى.

(3) جمهرة أنساب العرب 245، وخزانة الأدب 3/ 206، والتاج (عفق).

(4) الفهرست لابن النديم 80 و154.

(5) انظر: البرصان 69، والحيوان 3/ 427، والكامل 3/ 12، والعقد الفريد 4/ 49، والمضاف والمنسوب 119، ومحاضرات الأدباء 1/ 166، ووفيات الأعيان 1/ 424 و4/ 90، وخزانة الأدب 3/ 657، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 218 و219.

باهلة، وتقدح في شرفها، فتغدو النسبة إليها سبّةً شائنةً، فقد ذكر الراغب الأصفهانيّ أنّه «تسابّ رجلان، فقال أحدهما: يا ابن الزانية، فقال الآخر: يا باهليّ، فقُضي له، وقيل له: رَبأت عليه»[1].

وأمّا سبب اتّضاع باهلة، فقد سئل عنه منذ القديم، ويذكر ابن خلّكان أنّ «حسين بن بكر الكلابيّ النسّابة سئل عن السبب في اتّضاع باهلة وغَنِيّ عند العرب، فقال: لقد كان بينهما غَناء وشرف، ولم يضعهما إلاّ إشراف أخويهما من فَزارة وذبيان عليهما بالمآثر، فدَنُؤوا بالإضافة إليهم»[2].

ولا شكّ في أنّ للعصبيّة القبليّة دوراً بارزاً في التعريض بمكانة هذه القبيلة، وما هجاء الشعراء باهلة غير مظهر من مظاهر احتدام العصبيّة في شتّى العصور، والهجاء القبليّ لا يخصّ فرداً واحداً، جرّ على قبيلته جريرةً ما، وإنّما يتناول القبيلة كلّها، فيجرّدها من كلّ منقبة، ويرميها بكلّ مثلبة.

ولم تزل العرب تصف باهلة باللؤم في الجاهليّة والإسلام، ثمّ خَفيت منهم تلك السمة، وشرفت برجال كثيرين، لهم صيت عظيم، وفيهم علم وكرم ومروءة ودين ورئاسة حتّى رأى أحد الشعراء الخلافة فيهم، فقال في أبي قتيبة مسلم بن عمرو[3]:

إذا مـا قُـرَيْـشٌ خَـوى مُـلْـكُـهـا فـإنَّ الـخِـلافَـةَ فـي بـاهِـلَـهْ
لـرَبّ الـحَـرونِ أَبـي صـالِـحٍ ومـا تِـلْـكَ بـالـسُّـنَّـةِ الـعـادِلَـهْ

(1) محاضرات الأدباء 1/ 166.

(2) وفيات الأعيان 4/ 91.

(3) أنساب الخيل 120، والبيتان في المعارف 406، والممتع 267، وأسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها 72، واللسان (حرن)، والتاج (حرن) و(عصفر)، والأوّل في الصحاح 2097، والمضاف والمنسوب 119.

وضرب المثل ببعضهم، فقيل في سُفيان[1] أو سُمَير بن رَبيعة[2]: «أجرأ من فارس خَصَاف»[3] لكلّ جريء مقدام، وقيل في سَحْبان بن زُفَر بن إياس[4]: «أخطب من سحبان وائل»[5] لكلّ فصيح بليغ.

ومن رجالاتها الذين سمقت بهم منزلتها:

* **أبو حَفْص قتيبة بن مسلم بن عمرو** أحد بني وائل بن معن[6]، وكان أبوه عظيم القدر عند يزيد بن معاوية، وأخصّ الناس به[7]، وكان من أبصر الناس بالخيل، فلقّب بالسائس[8]، وشهر بفرسه الحَرون[9]، وكان مسلم قد قُتل مع مصعب بن الزُّبَير سنة اثنتين وسبعين.[10] وأمّا قتيبة، فقد غدا في زمن

(1) انساب الخيل 80، ونشوة الطرب 803، ولم أقف له على ترجمة.

(2) أسماء خيل العرب 67، وأسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها 89، والعباب/ الفاء 146، واللسان، والتاج (خصف)، ولم أقف له على ترجمة.

(3) أنساب الخيل 81، وجمهرة الأمثال 1/ 327، والصحاح 1351، وأسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها 89، ومجمع الأمثال 1/ 181، وما بنته العرب على فعالِ 70، واللسان، والتاج (خصف). وفي نشوة الطرب 803: «أجرى من خَصافِ».

(4) جمهرة الأمثال 1/ 248، ولم أقف له على ترجمة.

(5) جمهرة الأمثال 1/ 248، ومجمع الأمثال 1/ 249، والمستقصى 1/ 102، وفي الحيوان 1/ 39: «أبين من سَحْبان وائل»، وفي العقد الفريد 3/ 70، والمستقصى 1/ 28: «أبلغ من سحبان وائل»، وفي اللسان، والتاج (سحب): «أفصح من سحبان وائل».

(6) المعارف 406، ومعجم الشعراء 212، وجمهرة أنساب العرب 246، واللباب 1/ 93، ووفيات الأعيان 4/ 86، وخزانة الأدب 3/ 657 و4/ 565، وليس ثمّة خلاف في حلقات نسبه، ولكنّ ابن قتيبة اختصر بعضها.

(7) المعارف 406، والممتع 266، ووفيات الأعيان 4/ 87.

(8) التاج (عصفر).

(9) أنساب الخيل 117، والمعارف 406، والمعاني الكبير 171، والممتع 266، وأسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها 71، والعمدة 2/ 235، والمخصّص 6/ 198، ونشوة الطرب 806، واللسان (حرن)، ونهاية الأرب 10/ 48، والتاج (حرن).

(10) وفيات الأعيان 4/ 88.

عبدالملك بن مروان عاملاً للحجّاج على خراسان، أقام بها ثلاث عشرة سنةً، وكان من قبلها في الرَّيّ، وهو الذي افتتح خَوَارزم وسَمَرْقَنْد وبُخارى، وفتح فَرْغانة أواخر أيّام الوليد بن عبدالملك[1]، ولمّا بلغ الحجّاج ما فعله من الفتوحات قال: «بعثت قتيبة فتىً غَزّاءً، فما زدته باعاً إلاّ زادني ذراعاً»[2]، وحين مات الوليد سنة ستّ وتسعين، وتولّى الأمر أخوه سليمان خلع قتيبة، وقلّد يزيد بن المهلّب خراسان، فخرج وَكيع بن حسّان الغُدانيّ على قتيبة، وهو في فَرْغانة، وقتله عام ستّ وتسعين أو سبع وتسعين، وهو ابن خمس وأربعين سنةً[3].

وكان قتيبة ـ رحمه اللّه ـ أديباً عالماً شجاعاً جواداً حسن الأخلاق عظيم القدر ذا شرف جليل في قومه وتقدّم كبير في بلده، ولم يكن يُعاب إلاّ بأنّه باهليّ، وقد مازحه بعضهم بذلك، فاحتمل[4]، وهو وبنوه مفخرة باهلة، فقد شرفت بهم، ولولاهم لظلّت باهلة مضغةً سهلةً، يلوكها الشعراء[5]:

قَوْمٌ قُتَيْبَةُ أُمُّهُمْ وأَبوهُمُ لَوْلا قُتَيْبَةُ أَصْبحوا في مَجْهَلِ

ومن ولده: **سعيد بن سَلْم بن قتيبة** الذي وَلِيَ الولايات للمنصور

(1) المعارف 406، وتاريخ الطبريّ 6/ 424 و429 و436 و439 و442 و483، ومعجم الشعراء 212، واللباب 1/ 93، ووفيات الأعيان 4/ 86، وخزانة الأدب 3/ 657، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 218.

(2) وفيات الأعيان 4/ 87.

(3) المعارف 406، وتاريخ الطبريّ 6/ 516، والمؤتلف والمختلف 133، ومعجم الشعراء 212، ووفيات الأعيان 4/ 88، وخزانة الأدب 3/ 657.

(4) انظر: العقد الفريد 4/ 49، والمضاف والمنسوب 119، ومحاضرات الأدباء 1/ 166، ووفيات الأعيان 4/ 90، وخزانة الأدب 3/ 657، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 218.

(5) المخصّص 13/ 173.

والمهديّ[1]، وكان شريفاً ورعاً، يتصدّق في أوّل السنة بعشرة آلاف درهم، ويعتق نسمةً[2]، وكان عالماً بالحديث واللغة العربيّة[3]، وأخوه إبراهيم ولّي اليمن للهادي[4].

ومنهم: **سعيد بن أحمد بن سعيد بن سَلْم** الذي ثار في البطائح أيّام المعتمد، فقُتل وصُلب[5]. ومحمّد بن المثنّى بن الحجّاج بن قتيبة الّذي كان قائداً من قوّاد طلحة بن طاهر بن الحسين بخراسان[6]. ومحمّد بن محمّد بن عبدالرحمن بن سعيد بن سَلْم الشاعر المقلّ[7]، وغيرهم كثيرون[8].

ومن رجالها أيضاً:

* **أبو أُمامة صُدَيّ بن عَجْلان**[9] صاحب النبيّ[10] ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ ورسوله إلى قومه باهلة[11]، شهد معه أحداً[12]، وشهد مع عليّ ـ كرّم اللّه وجهه ـ الجمل وصفّين[13]، وسكن مصر ثمّ حِمص، وفيها توفّي سنة إحدى

(1) جمهرة أنساب العرب 246، وانظر: سمط اللآلئ 843.
(2) الممتع 267.
(3) اللباب 1/ 93.
(4) جمهرة أنساب العرب 246.
(5) جمهرة أنساب العرب 246.
(6) جمهرة أنساب العرب 246.
(7) معجم الشعراء 407.
(8) انظر: جمهرة أنساب العرب 246.
(9) المحبّر 291، والمعارف 309، وجمهرة أنساب العرب 247، وتهذيب الأسماء واللغات 2/ 176 القسم الأوّل، والإصابة 2/ 182، وابن الأثير يحرّف كنيته، فيجعلها «أبو أسامة» اللباب 1/ 94.
(10) الممتع 266، وجمهرة أنساب العرب 247، وتهذيب الأسماء واللغات 2/ 176 القسم الأوّل، والإصابة 2/ 182.
(11) الإصابة 2/ 182.
(12) الإصابة 2/ 182.
(13) المحبّر 291. وفي المعارف 309، والإصابة 2/ 182: «شهد مع عليّ صفّين».

وثمانين[1]، وقيل: ستّ وثمانين، وهو ابن واحدة وتسعين، فعدّ فيمن تأخّر موته من الصحابة[2].

* **وعبدالله بن بكر السَّهْميّ**: بصريّ من أصحاب الحديث، مات ببغداد سنة ثمان ومئتين[3].

* **وحَبّان بن هلال**: من أصحاب الحديث، مات بالبصرة سنة ستّ عشرة ومئتين[4].

* **وسلمان بن ربيعة**: اختُلف في صحبته[5]، وعُدّ من كبار التابعين[6]، وهو أوّل قاضٍ، قضى لعمر بن الخطّاب ـ رضي اللّه عنه ـ في العراق[7]، وشهد القادسيّة، وتولّى القضاء فيها ثمّ في المدائن، وقُتل في بَلَنْجر من أَرْمينيَة في خلافة عثمان بن عفّان، رضي اللّه عنه[8].

* **وأخوه عبدالرحمن بن ربيعة**: كان قائد طليعة جيش سُراقة بن عمرو الذي وجّهه عمر ـ رضي اللّه عنه ـ إلى دَرْبَند سنة اثنتين وعشرين من الهجرة، ثمّ خلف سُراقة في القيادة، ومضى قدماً إلى الخزر حيث استُشهد، وهو يحاول لمّ شعث قوّاته، فحمل أخوه سلمان العلم، وخرج ببقيّة جيشه فاتحاً تلك البلاد[9].

(1) تهذيب الأسماء واللغات 2/ 176 القسم الأوّل.
(2) المعارف 309، وتهذيب الأسماء واللغات 2/ 176 القسم الأوّل، والإصابة 2/ 182.
(3) المعارف 516.
(4) المعارف 521.
(5) الإصابة 2/ 61.
(6) جمهرة أنساب العرب 247.
(7) المعارف 433.
(8) المعارف 433، وانظر ترجمته في اللباب 1/ 94.
(9) انظر أخبار عبد الرحمن بن ربيعة الباهليّ في تاريخ الطبريّ 4/ 155 و160 و304 وما بعدها، ودائرة المعارف الإسلاميّة 6/ 157.

* **وحِبَّان بن زيد** الذي قال له أبو موسى الأشعريّ: «إنّ باهلة كانت كُراعاً، فجعلتَها ذراعاً»[1].

* **وعمرو بن يربوع** الذي قال فيه أبو عبيدة: «كان عمرو بن يربوع الباهليّ أوّل من رفع قيساً، وبلغني أنّ قيساً لم تجتمع على أحد غيره»[2].

ومن أبرز علمائها:

* **الأصمعيّ**[3]، وهو أبو سعيد عبدالملك بن قُريب[4] بن عبدالملك بن عليّ بن أَصْمَع أحد بني قتيبة بن معن بن مالك بن أَعْصُر[5]، وكان يتبرّأ من باهلة، فيقول: «لست من باهلة، لأنّ قتيبة بن معن لم تلده باهلة قطّ»[6]، وقيل: كان يدّعي في نسبه إليها، فقال أبو عبيدة: «هذا ما يمكن، فقيل: ولِمَ؟ فقال: لأنّ الناس إذا كانوا من باهلة تبرّأوا منها، فكيف يجيء من ليس منها، وينتسب إليها»[7].

---

(1) الممتع 266. والكراع: ما دون الركبة إلى الكعب.

(2) الممتع 267.

(3) راجع: المنتقى من أخبار الأصمعيّ للرَّبَعيّ، انتقاء الحافظ المقدسيّ، وتحقيق محمّد مطيع الحافظ، ومنشورات دار طلاس في دمشق 1987م.

(4) قُريب: لقب له، واسمه عاصم، وانظر: فهرست ابن النديم 82، ووفيات الأعيان 3/ 175، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 1/ 102.

(5) إنباه الرواة 2، واختُلف فيما بعد (قُريب)، فانظر: مراتب النحويّين 46، وطبقات النحويّين واللغويّين 167، وفهرست ابن النديم 82، ومؤتلف القبائل ومختلفها 73، وجمهرة أنساب العرب 245، وسمط اللآلئ 351، واللباب 1/ 56، وإنباه الرواة 2/ 197، ووفيات الأعيان 3/ 170، والبلغة 129، وبغية الوعاة 313، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 1/ 102، وخزانة الأدب 4/ 566.

(6) جمهرة أنساب العرب 245، وانظر: خزانة الأدب 4/ 566، وقتيبة بن معن بن مالك أمّه سَوْدة بنت عمرو بن تميم، وباهلة بنت صعب بن سعد العشيرة حضنته وسائر ولد معن بن مالك من غيرها، فنُسب جميعهم إليها. انظر: جمهرة أنساب العرب 245.

(7) وفيات الأعيان 4/ 90.

وهو بَصْريّ، ولد نحو سنة ثلاث وعشرين ومئة[1]، وقدم بغداد أيّام الرشيد، فأُحضر إليه[2]، وبعث إليه محمّد الأمين بن هارون[3]، فأعطاه الخليفة وابنه مالاً جليلاً، وحرص المأمون عليه ـ وهو في البصرة ـ أن يصير إليه، فلم يفعل، واحتجّ بضعفه وكبره، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل، ويسيّرها إليه، ليجيب عنها[4]، وحضر مجالس الفضل بن الربيع[5] وجعفر بن يحيى البَرْمَكيّ[6] والحسن بن سَهْل[7]، وأخذ عن الأعراب الفصحاء وعن جِلَّة علماء عصره، ومنهم: خلف والخليل وابن العلاء وغيرهم[8]، وروى عنه كثيرون، منهم: ابن أخيه عبدالرحمن بن عبداللّه وأبو نصر وأبو حاتم وغيرهم[9].

وكان الأصمعيّ من نوابغ الزمن علماً ولغةً، فعدّه إسحق بن إبراهيم من عجائب الدنيا المعدودة[10]، وقيل في وصفه: «قال الشافعيّ: ما عبّر أحد من العرب بمثل عبارة الأصمعيّ، وقال ابن معن: لم يكن ممّن يكذب، وكان من أعلم الناس في فنّه، وقال أبو داود: صدوق، وكان يتّقي أن يفسّر الحديث، كما

(1) المعارف 543، ومراتب النحويّين 48، ووفيات الأعيان 3/ 175، والمزهر 2/ 462، وجعل مرّةً أخرى صاحب الوفيات 3/ 175 ولادته سنة 122، وجعلها صاحب البلغة 129 سنة 125 من الهجرة.

(2) الورقة 30، ومراتب النحويّين 54، وتهذيب اللغة 1/ 14، وإنباه الرواة 2/ 198 و199 و201، ووفيات الأعيان 3/ 170 و172.

(3) إنباه الرواة 2/ 204.

(4) وفيات الأعيان 3/ 172.

(5) مراتب النحويّين 58، وإنباه الرواة 2/ 199 و202، ووفيات الأعيان 3/ 172، وبغية الوعاة 314.

(6) مراتب النحويّين 59.

(7) وفيات الأعيان 3/ 173.

(8) انظر: مراتب النحويّين 46 و61 و62، وتهذيب اللغة 1/ 9، وإنباه الرواة 2/ 198، ووفيات الأعيان 3/ 170، وبغية الوعاة 313.

(9) انظر: الورقة 30، ومراتب النحويّين 49 و56 و62 و65، وطبقات النحويّين واللغويّين 167، وتهذيب اللغة 1/ 14، وإنباه الرواة 2/ 198، ووفيات الأعيان 3/ 170، وبغية الوعاة 313.

(10) مراتب النحويّين 59، والمزهر 2/ 404.

يتّقي أن يفسّر القرآن، وكان بخيلاً، ويجمع أحاديث البخلاء، وتناظر هو وسيبويه، فقال يونس: الحقّ مع سيبويه، وهذا يغلبه بلسانه، وكان من أهل السنّة، ولا يفتي إلاّ فيما أجمع عليه علماء اللغة، ويقف عمّا ينفردون عنه، ولا يجيز إلاّ الأفصح»[1].

والأصمعيّ تميّز بذاكرة مذهلة، فكان من أروى الناس للرجز، فقيل: حفظ اثني عشر ألف أرجوزة[2]، وقيل: أربعة عشر ألف أرجوزة[3]، وقيل: ستّة عشر ألف أرجوزة[4] حتّى قيل له: إنّك لتحفظ من الرجز ما لا يحفظه أحد، فقال: إنّه كان همّنا وسَدَمنا[5]. وله أشعار جياد وأراجيز عدّة[6] وتآليف كثيرة في اللغة والشعر[7]، وحياته زاخرة بالأخبار والأحداث، فقد عُمّر، فبلغ نحو تسعين عاماً[8]، وتوفّي بالبصرة[9] سنة 215 للهجرة على خلاف في ذلك[10].

(1) بغية الوعاة 313، وانظر: المعارف 543، ومراتب النحويّين 48، وتهذيب اللغة 1/ 14، وطبقات النحويّين واللغويّين 169 و174، وإنباه الرواة 2/ 198 و201، ووفيات الأعيان 3/ 170 و172، والبلغة 129، والمزهر 2/ 404.

(2) مراتب النحويّين 57، والمزهر 2/ 404.

(3) طبقات النحويّين واللغويّين 168 و169 و171.

(4) طبقات النحويّين واللغويّين 171، وإنباه الرواة 2/ 198، ووفيات الأعيان 3/ 171، وبغية الوعاة 313، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 1/ 102.

(5) مراتب النحويّين 57. والسدم: الحرص.

(6) انظر: الورقة 30.

(7) انظر: فهرست ابن النديم 82، وفهرست ابن خير 374 و375، وإنباه الرواة 2/ 202، وبغية الوعاة 314.

(8) في اللباب 1 /56، ووفيات الأعيان 3/ 175، وبغية الوعاة 314: «بلغ ثمانياً وثمانين»، وفي طبقات النحويّين واللغويّين 174، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 1/ 102: «بلغ إحدى وتسعين»، وفي المعارف 543، وتهذيب اللغة 1/ 14: «عمّر نيّفاً وتسعين».

(9) فهرست ابن النديم 82، ووفيات الأعيان 3/ 175، ويرى مرّةً أخرى صاحب الوفيات 3 /175، وصاحب طبقات النحويّين واللغويّين 174 أنّه توفّي بمَرْو.

(10) في البلغة 129: «210»، وفي إنباه الرواة 2/ 204: «212»، وفي فهرست ابن النديم 82: «213»، وفي وفيات الأعيان 3/ 175: «214»، وفي اللباب 1/ 56، ووفيات الأعيان 3/ 175، وبغية الوعاة

ومن علماء باهلة أيضاً:

* **أبو نصر أحمد بن حاتم** صاحب الأصمعيّ[1] وغلامه[2]، وزُعم أنّه ابن أخته[3]، وروى بصدق عنه كتبه[4] حتّى قال الأصمعيّ: «ليس يُصدّق عليّ أحد إلاّ أبو نصر»[5]، وأخذ أيضاً عن أبي عبيدة وأبي زيد[6]، فهو من مدرسة البصرة، وحدّث عنه أبو العبّاس ثعلب[7] وابن السِّكِّيت[8]، وأقام في بغداد[9]، فربّما حكى الشيء بعد الشيء عن أبي عمرو الشَّيْبانيّ[10]، ثمّ أقدمه الخصيب بن سالم إلى أصبهان، فأقام بها إلى سنة عشرين ومئتين[11]، وتوفّي أبو نصر ـ رحمه اللّه ـ في سنة واحدة وثلاثين ومئتين[12]، وله من

314: «215»، وفي مراتب النحويّين 48، وطبقات النحويّين واللغويّين 174، واللباب 1/ 56، ووفيات الأعيان 3/ 175، وبغية الوعاة 314، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 1/ 102: «216»، وفي فهرست ابن النديم 82، واللباب 1/ 56، ووفيات الأعيان 3: «217 للهجرة».

(1) طبقات النحويّين واللغويّين 180، وإنباه الرواة 1/ 36، وبغية الوعاة 130، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 1/ 424.

(2) طبقات النحويّين واللغويّين 180، وفهرست ابن خير 381، والبلغة 19.

(3) مراتب النحويّين 82، وبغية الوعاة 130، والمزهر 2/ 408، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 1/ 424، وقال اللغويّ: «زعموا أنّه كان ابن أخت الأصمعيّ، وليس هذا بثبت، ورأيت جعفر بن محمّد ينكره» مراتب النحويّين 82، ومثله في المزهر 2/ 408.

(4) مراتب النحويّين 82، وفهرست ابن النديم 83، وإنباه الرواة 1/ 36، وبغية الوعاة 130، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 1/ 424.

(5) طبقات النحويّين واللغويّين 181، وفهرست ابن خير 381، والبلغة 19، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 1/ 425.

(6) مراتب النحويّين 82، وفهرست ابن النديم 83، وبغية الوعاة 130، والمزهر 2/ 408.

(7) طبقات النحويّين واللغويّين 180، وإنباه الرواة 1/ 36.

(8) طبقات النحويّين واللغويّين 180.

(9) مراتب النحويّين 82، وبغية الوعاة 130، والمزهر 2/ 408.

(10) مراتب النحويّين 82، والمزهر 2/ 408.

(11) بغية الوعاة 130.

(12) طبقات النحويّين واللغويّين 181، وفهرست ابن النديم 83، وفهرست ابن خير 381، وإنباه الرواة 1/ 36، والبلغة 19، وبغية الوعاة 130.

العمر نيّف وسبعون سنةً[1]، وله تصانيف في اللغة والأدب[2].

* **أبو محمّد عبدالرحمن بن عبدالله**: كان ابن أخي الأصمعيّ[3]، وكان ثقةً فيما يرويه عنه وعن غيره من العلماء، وله من الكتب (معاني الشعر)[4].

* **أبو يَعْلَى محمّد بن أبي زُرْعة**: وهو لغويّ صنّف نكتاً على كتاب سيبويه، والسيوطيّ ينقل عن الفارسيّ قوله فيه: «كان أبو يَعْلَى أحذق من المبرِّد، وإنّما قلّ عنه، لأنّه عوجل»[5]، فقد قُتل يوم دخول صاحب الزنج البصرة سنة سبع وخمسين ومئتين[6].

وأمّا شعراء باهلة، فإنّنا لا نجد منهم في طبقة الفحول سوى **أعشى باهلة**، وهو شاعر جاهليّ[7]، يكنّى أبا قُحْفان، واسمه عامر بن الحارث أحد بني عامر بن عوف بن وائل بن معن[8]، ولمّا سئل الأصمعيّ عنه: «أعشى باهلة أمن

(1) فهرست ابن النديم 83، وإنباه الرواة 1/ 36.

(2) انظر: فهرست ابن النديم 83، وفهرست ابن خير 381، وإنباه الرواة 1/ 36، وبغية الوعاة 130، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 1/ 425.

(3) مراتب النحويّين 82، وطبقات النحويّين واللغويّين 180، وفهرست ابن النديم 83، وإنباه الرواة 2/ 161.

(4) فهرست ابن النديم 83، وإنباه الرواة 2/ 161.

(5) بغية الوعاة 42، والزُّبيديّ يجعل كنيته: «أبا العلاء» طبقات النحويّين واللغويّين 110.

(6) طبقات النحويّين واللغويّين 110، والسيوطيّ في بغية الوعاة 42 يجعل ولادته يوم دخول صاحب الزنج البصرة، وليس هذا غير وهم، لأنّ ابن أبي زرعة قُتل ـ كما يرى الزُّبيديّ ـ في تلك النّكبة، وصاحب الزنج هو عليّ بن محمّد بن عبد الرحيم. انظر أخباره في تاريخ الطبريّ 470 وما بعدها.

(7) المؤتلف والمختلف 11، ونشوة الطرب 584، وفي الأغاني 1051 روى أبو الفرج خبر مجلس، اجتمع فيه عند عقبة بن سَلْم بشّار بن برد وحمّاد عَجْرَد وأعشى باهلة، وهذا خطأ غريب، فأعشى باهلة جاهليّ، لا خلاف في ذلك، ولو كان قد أدرك الإسلام، ثمّ عمّر إلى عهد بشّار، لما خفي ذلك عن العلماء، ولما سكتوا عنه.

(8) الأصمعيّات 87، وطبقات فحول الشعراء 203، والمؤتلف والمختلف 11، والمكاثرة 13، وسمط اللآلئ 75، والاقتضاب 304، والحماسة البصريّة 1/ 241، ونشوة الطرب 584، والمزهر 2/ 457، وحاشية البغداديّ على شرح بانت سعاد 2/ 33، وخزانة الأدب 1/ 90، وفي السمط: «عمرو بن الحارث»، وفي السمط، والاقتضاب: «يكنّى أبا قُحافة»، وانظر ترجمته في الأعلام 3/ 250.

الفحول هو ؟ قال: نعم، وله مرثيّة ليس في الدنيا مثلها، وهي[1]:

إِنِّـي أَتَـتْـنـي لِـسـانٌ، لا أُسَـرُّ بِـهـا مِنْ عَلْوُ، لا كَذِبٌ مِنْها ولا سَخَرُ

وأمّا سائر شعرائها، فهم دون هذه الطبقة، ولعلّ في مقدّمتهم ثلاثةً: **عمرو بن أحمر، ومحمّد بن حازم، والحسين بن الضحّاك**.

* **محمّد بن حازم** شاعر من شعراء الدولة العبّاسيّة، كان كثير الهجاء، فاطُّرح، ولم يمدح من الخلفاء إلاّ المأمون، ولم يتّصل بواحد منهم، فيكون له نباهة طبقته[2]، وابن المعتزّ يراه «أجود الشعراء لفظاً وألطفهم معنىً»[3]، والمَرْزُبانيّ يجده «يقول المقطّعات، فيُحسن»[4]، ويعيبه بذلك يحيى بن أكثم، فيقول له: «ما نعيب شعرك إلاّ أنّك لا تطيل»[5]، وينفرد المَرْزُبانيّ بأنّه «مولى لباهلة»[6]، وقد نشأ ابن حازم في البصرة، وسكن بغداد[7]، وله شعر مجموع[8].

* **أبو عليّ الحسين بن الضحّاك** الباهليّ صليبةً أو ولاءً[9]، والمشهور

(1) فحولة الشعراء 15، والبيت من قصيدة مشهورة في رثاء المُنتشِر بن وَهْب بن عجلان الباهليّ فارس يوم أَرْمام وقتيل بني الحارث بن كعب. انظر القصيدة في جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 254، والأصمعيّات 88، وطبقات فحول الشعراء 210، والمؤتلف والمختلف 12، والمكاثرة 13، والأمالي للمرتضى 2/ 20، وجمهرة أنساب العرب 246، وسمط اللآلئ 75، ونشوة الطرب 584، وخزانة الأدب 1/ 92.

(2) الأغاني 4965.

(3) طبقات ابن المعتزّ 308.

(4) معجم الشعراء 371.

(5) الأغاني 4971.

(6) معجم الشعراء 371.

(7) الورقة 109.

(8) جمع شعره شاكر عاشور، ونشرته مجلّة (المورد): ع 2، مج 6، 1397 هـ/ 1977 م، ثمّ جمعه أيضاً الدكتور محمّد خير البقاعيّ، ونشرته دار قتيبة في دمشق 1402 هـ/ 1982م.

(9) الأغاني 2586، وانظر: وفيات الأعيان 2/ 162.

بالخليع البصريّ[1]، وهو واحد من شعراء الدولة العبّاسيّة وأحد ندماء الخلفاء من بني هاشم[2]، كان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر، فيغير عليها[3]، وكان يقول له: «أنت أشعر أهل زمانك في الغزل»[4]، ويرى أبو الفرج يرى أنّه «شاعر أديب ظريف مطبوع حسن التصرّف في الشعر حلو المذهب، لشعره قبول ورونق صافٍ»، و«هو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملةً من التكلّف»[5]، وكانت وفاته سنة خمسين ومئتين، شعر مجموع[6].

وليس في باهلة كلّها غير هؤلاء الثلاثة من الشعراء المشهورين، فكأنّ هذه القبيلة المضريّة ليست من أهل الشعر، ودونهم شعراء أغفال، لا نكاد نعرف شيئاً من أخبارهم وأزمانهم، وهم:

* **أدهم بن مُحْرِز**: وهو أحد بني الأحبّ بن زيد بن عمرو بن وائل بن معن بن أَعْصُر، ذكره الآمديّ، فقال: «كان فارس أهل الشام ورجلهم، وابنه مسلم بن أدهم، وابنه أيضاً مالك بن أدهم، وَلِيَ نَهاوند لابن هُبيرة، وكان فارساً من رجال أهل الشام، ولأدهم شعر، وهو القائل، وقد دخل على الحجّاج بن يوسف، وهو أشيب، فأمره بالخضاب:

ولَـمّـا رَأَيْـتُ الـشَّـيْـبَ حَـلَّ بَـيـاضُـهُ تَفَتَّيْتُ، وابْتَعْتُ الشَّبابَ بدِرْهَمِ»[7].

(1) المؤتلف والمختلف 162، ووفيات الأعيان 2/ 162 و163.
(2) الأغاني 2586.
(3) الأغاني 2586، وانظر: 2587 و2595 و2602 منه.
(4) الأغاني 2614.
(5) الأغاني 2586.
(6) صنعه الأستاذ عبد الستّار فرّاج، ونشرته دار الثقافة في بيروت 1380 هـ/ 1960م.
(7) المؤتلف والمختلف 36.

* **الأشعث بن يزيد الضَّحْبيّ**: له أبيات[1].

* **الأصمّ الباهليّ**: هو عبداللّه بن الحجّاج أحد بني ذُبيان بن جئاوة[2]، قال فيه الآمديّ: «شاعر خبيث إسلاميّ، له قصائد، يهجو فيها الفرزدق»[3]، وقال الطَّيَالسيّ «أصمّ باهلة: مشهور كثير الشعر»[4]، ولجرير والفرزدق شعر في هجائه[5]، ولم يبق من شعره وشهرته سوى أبيات[6].

* **بُدَيل بن المُضَرَّب**: وجد له الآمديّ في (كتاب باهلة) قصيدةً جيّدةً، أنشد أبياتاً منها[7].

* **بكر بن حمّاد**: شاعر أمويّ، روى له ابن عبدربّه شعراً وخبراً، فيه: «بكر شاعر باهلة»[8].

* **جَحْل بن نَضْلَة**: شاعر جاهليّ[9] مقلّ[10]، أسر النَّوَار بنت عمرو بن كلثوم التغلبيّ يوم طَلْح، وركب بها المفاوز خوفاً من أن يُلحق[11]، وكان سيّداً

(1) انظر: المؤتلف والمختلف 56.
(2) المؤتلف والمختلف 53.
(3) المؤتلف والمختلف 53.
(4) المكاثرة 45.
(5) انظر: ديوان جرير 1103، وديوان الفرزدق 1/ 32، ونقائض جرير والفرزدق 1039.
(6) انظر: المؤتلف والمختلف 53.
(7) انظر: المؤتلف والمختلف 280.
(8) العقد الفريد 6/ 58 وما بعدها.
(9) خزانة الأدب 2/ 158.
(10) انظر: مجاز القرآن 2/ 33، والأصمعيّات 138، والبيان والتبيين 3/ 340، والشعر والشعراء 95، والمؤتلف والمختلف 112، وشرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ 1/ 196، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقيّ 580، وفرحة الأديب 47 و48، وسمط اللآلئ 304، واللسان (سلا)، ونهاية الأرب 7/ 82، وخزانة الأدب 2/ 158، وفي مجاز القرآن، والأصمعيّات، والبيان والتبيين، والشعر والشعراء، وسمط اللآلئ، وخزانة الأدب: «حَجْل» بالحاء فالجيم، وهو تصحيف.
(11) خزانة الأدب 2/ 158.

فارساً، عاصر النعمان بن المنذر[1]، وذكره ابن أحمر مع غيره من عَرانين باهلة وفوارسهم، فقال[2]:

مُنىً لَكَ أَنْ تَلْقى ابْنَ هِنْدٍ مَنِيَّةٌ وفارِسَ مَيّاسٍ إذا ما تَلَبَّبا
وجَحْلاً أَبا عَمْرٍو وقُرَّةَ ذا النَّدى وزُهْراً وغَلاّقاً، ويا لَكَ مِقْنَبا
عَرانينُ مِنْ عَبْدِ بْنِ غَنْمٍ أَبوهُمُ هِجانٌ، فسامى في الهِجانِ، وأَنْجَبا
فَوارسُ سِلّى يَوْمَ سِلّى وساجِرٍ إذا هَرَّتِ الخَيْلُ الحَديدَ المُذَرَّبا

* **الحسن بن عليّ**: لقّب بالقتّال الباهليّ، وكان شاعراً فارساً، وجد له الآمديّ في (كتاب باهلة) شعراً وخبراً[3].

* **وَلاّد بن يزيد**: هو أحد شيوخ ابن سلاّم في (طبقاته)[4]، قال فيه: «كان خَلاّد من أهل العلم بالشعر، يرويه، ويقوله»[5]، ولم يرو شيئاً من أشعاره وأخباره، وقال ابن النديم: «ابن يزيد الباهليّ: أحد الرواة للأخبار والقبائل والأشعار، ولا مصنّف له نعرفه»[6].

* **رؤبة بن العجّاج بن شَدْقَم**: شاعر هو وأبوه أيضاً[7]، ولهما شعر صالح[8].

* **الزُّرَافة الباهليّ**: شاعر مقلّ جدّاً، له أبيات[9].

---

(1) الكامل 3/ 146.
(2) القصيدة 7/ 1 ـ 4.
(3) المؤتلف والمختلف 252.
(4) طبقات فحول الشعراء 7 و355.
(5) طبقات فحول الشعراء 7.
(6) فهرست ابن النديم 156.
(7) المؤتلف والمختلف 175.
(8) انظر: المؤتلف والمختلف 175، والمكاثرة 43، وجامع الشواهد 3/ 312.
(9) انظر: خزانة الأدب 1/ 242.

* **زَرْبيّ بن سَبّاق**: هو أحد بني عثمان الباهليّ، له ولأبيه أبيات[1].

* **زياد بن رِبْعيّ**: ذكره الآمديّ[2]، ولم يرو شيئاً من شعره وأخباره.

* **أبو سُحْمة الباهليّ**: أحد بني صَحْب[3]، له رجز[4].

* **شَقيق بن جَزْء**: شاعر فارس، أغار بباهلة على بني ضَبَّة بسِلَّى وساجِر، فهزمهم[5]، وعرف في شعر ابن أحمر وغيره من الشعراء بـ (فارس مَيّاس)[6]، وله ولأبيه جزء بن رياح قصائد جياد[7].

* **صفيّة الباهليّة**: شاعرة من شواعر العرب[8]، لها أبيات[9].

* **عبدالحميد بن سعد**: شاعر يعرف بابن نُويرة الباهليّ، وله رجز[10].

---

(1) انظر: التعليقات والنوادر 1/ 109 و254.

(2) المؤتلف والمختلف 193.

(3) معجم الشعراء 474، وصَحْب: بن سعد بن عبد بن غَنْم بن قتيبة بن معن. انظر: مختلف القبائل ومؤتلفها 63، والمؤتلف والمختلف 57.

(4) انظر: معجم الشعراء 474.

(5) فرحة الأديب 77، ومعجم البلدان 3/ 232.

(6) أنساب الخيل 82، وأسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها 228، والمخصّص 6/ 195، واللسان، والتاج (ميس).

(7) انظر: الاختيارين 196، وشرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ 1/ 196 و308، وأسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها 253، وفرحة الأديب 47 و49 و76 و77، ومعجم البلدان 3/ 232، واللسان (بوق) و(فوق) و(دور) و(وشق)، وشرح أبيات المغني للسيوطيّ 714، والتاج (حذق) و(قوق) و(وشق)، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 5/ 234، وجامع الشواهد 1/ 271، وفي أسماء خيل العرب: «حَرّي»، وهو تصحيف، وفي شرح أبيات المغني للسيوطيّ: «جرد»، وهو تحريف آخر، وفي الاختيارين، وشرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ 1/ 308، واللسان، وشرح أبيات المغني للسيوطيّ، والتاج: «رباح» بالباء الموحّدة.

(8) نشوة الطرب 586.

(9) انظر: عيون الأخبار 3/ 66، والعقد الفريد 3/ 277، وديوان المعاني 25، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقيّ 948، وللتبريزيّ 3/ 7، والحماسة البصريّة 1/ 226، ونشوة الطرب 586.

(10) انظر: المؤتلف والمختلف 298.

* **عبدالرحمن بن جُمَانة**: له قصيدة في رثاء قتيبة[1].

* **عبدالملك بن جُمانة**: هو أحد بني أبي عُليم بن معن، وجُمانة أمّه[2]، وهو شاعر مقلّ[3].

* **عمرو بن خلف**: ذكره ابن الجرّاح في (من سمّي من الشعراء عمراً)[4]، وقال: «عمرو بن خلف الباهليّ الضرير أبو الحسين كوفيّ، توفّي في أيّام المعتمد»، ثمّ أنشد له شعراً في رثاء يحيى بن عمر الخارج في الكوفة.

* **مالك بن زُغْبَة**: جاهليّ شهد مع باهلة يوم الكَوْم[5]، وله ولأبيه شعر متفرّق[6].

* **أبو مَعْدان الباهليّ**: لم أجد له سوى بيتين، تكرّرا غير مرّة[7].

* **الهِرْماس بن زياد السَّهْميّ**: له صحبة[8]، وله رجز[9].

* **أبو هشام الباهليّ**: ذكره ابن عبدربّه، وروى له أبياتاً[10].

---

(1) انظر: تاريخ الطبريّ 6/ 521.

(2) المؤتلف والمختلف 109.

(3) انظر: المؤتلف والمختلف 109.

(4) من سمّي من الشعراء عمراً 89.

(5) الاختيارين 197.

(6) انظر: الاختيارين 147 و196، وشرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ 1/ 60، وفرحة الأديب 30 و32، والعباب/ الهمزة 136 و137 و180، واللسان (بور) و(بوق) و(حذق) و(سرع) و(عور) و(عير) و(غير) و(فرأ) و(قصر) و(قمأ) و(نسأ) و(نور) و(وزغ)، والمقاصد النحويّة 3/ 40 و192، وخزانة الأدب 3/ 440، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 5 / 233 و234، والتاج (بور) و(بوق) و(سرع) و(عور) و(عير) و(فرأ) و(قصر) و(قمأ) و(نور) و(وزغ).

(7) انظر: اللسان، والتاج (حزم) و(دلل) و(زبن).

(8) جمهرة أنساب العرب 247.

(9) انظر: معجم الشعراء 474.

(10) العقد الفريد 5/ 413.

وهكذا وقفنا على حقيقة هذه القبيلة، فقد رأينا أنّها ترتفع بنسبها إلى مكانة رفيعة، ولكنّها تهوي بحَسَبها إلى منزلة وضيعة. ومهما حاول المرء أن يبرز شأنها في الجاهليّة والإسلام، فلن يجد لها مفاخر جلّى، تضرب جذورها في بطن الأرض، وتسمُق سوقها في كبد السماء.

وقد جهدت أن أرفع شيئاً من ظلامة التاريخ عنها، فأخبرت عن أيّامها وأعلامها، وكان أكثر قصدي للمناقب والمفاخر، فلعلّ غَبَرَة اللؤم تنفض عن وجهها المضريّ الذي لم يضعه إلاّ إشراف أخويها من فَزَارة وذُبيان عليها بالمحامد والمآثر.

الفصل الثاني
حياة ابن أحمر

1 ـ نسبه وأسرته:

إنّ شاعرنا هو عمرو بن أحمر الباهليّ من بني معن بن مالك بن أَعْصُر[1]، ولا خلافَ في ذلك، ولكنّ الخلاف إنّما نجده في نسب ابن أحمر الذي يصل بينه وبين «معن بن مالك بن أَعْصُر»، فأبو زيد القرشيّ في (جمهرة أشعار العرب) والمَرْزُبانيّ في (معجم الشعراء) أوردا نسبه على هذا النحو: «عمرو بن أحمر بن العَمَرَّد بن عامر بن عبدشمس بن عبد بن فَرّاص بن معن بن مالك بن أَعْصُر»[2]، وأورد نسبه ابن سلاّم في (طبقات فحول الشعراء)[3]، وأبو الفرج في

(1) طبقات فحول الشعراء 571، والشعر والشعراء 356، والمعارف 81، وجمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 842، والأغاني 2980، والمؤتلف والمختلف 44، ومعجم الشعراء 24، وسمط اللآلئ 307، والأمالي لابن الشجريّ 1/ 137، والدرّ الفريد 1/ 337 و4/ 10، وخزانة الأدب 3/ 38، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 135، والتاج (فرض)، ويذكر ابن قتيبة في نسبه: «معن بن أَعْصُر»، وهو ابن مالك لا ابن أعصر، فكأنّ سقطاً في عبارته، والصواب: «معن بن مالك بن أعصر». انظر: الشعر والشعراء 356، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134، وقارن بجمهرة أشعار العرب 245.

(2) جمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 842، ومعجم الشعراء 24.

(3) طبقات فحول الشعراء 571.

(الأغاني)[1]، والآمديّ في (المؤتلف والمختلف)[2]، والمَرْزُبانيّ مرّةً أخرى في (معجم الشعراء)[3]، وابن حَجَر في (الإصابة)[4]، والزَّبيديّ في (التاج)[5]، ولكنّ ثمّة شيئاً من الاختلاف بين هذه المصادر، فقد ورد عند ابن سلاّم والمَرْزُبانيّ وابن حَجَر[6]: «العَمَرَّد بن تميم بن ربيعة بن حَرام بن فَرّاص»، وعند أبي الفرج: «عبدشمس بن فرّاص»، وعند الآمديّ: «عبد بن قُدَام بن قرّاص» بالقاف، وهو تصحيف، ونقل الآمديّ عن ابن الكلبيّ ما أورده في (جمهرة النسب)، فقال: «عامر بن عمرو بن عبيد بن قرّاص»، وورد عند الزَّبيديّ: «العَمَرَّد بن عمرو بن فرّاص».

واختصر نسبه ابن قتيبة في (الشعر والشعراء)[7]، والبكريّ في (سمط اللآلئ)[8]، والبَطَلْيَوْسيّ في (الاقتضاب)[9]، وقالوا: «عمرو بن أحمر بن فرّاص بن معن»، وقال ابن الجرّاح: «عمرو بن أحمر بن العمرّد الباهليّ من بني فرّاص»[10].

وتتّفق هذه المصادر كلّها على أنّ ابن أحمر من بني فرّاص بن معن، ولكنّ الخلاف الغريب إنّما يطالعنا فيما أورده ابن الشجريّ في (أماليه)، إذ قال:

---

(1) الأغاني 2980.

(2) المؤتلف والمختلف 44، وعنه في خزانة الأدب 3 / 38، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 135، وأورده البغداديّ في الشرح: «عبد قُدام بن فرّاص»، فسقطت (ابن) من عبارته.

(3) معجم الشعراء 24.

(4) الإصابة 3/ 112.

(5) التاج (فرص).

(6) أورده ناشر الإصابة محرّفاً، فقال: «عمرو بن الأحمر بن العمود بن تميم بن ربعة بن حرام الباهليّ» الإصابة 3/ 112.

(7) الشعر والشعراء 356.

(8) سمط اللآلئ 307.

(9) الاقتضاب 319.

(10) من سمّي من الشعراء عمراً 56.

«هو عمرو بن أحمر بن العَمَرَّد بن عامر بن عبدشمس بن معن بن مالك بن أَعْصُر بن سعد بن قيس عَيْلان بن مضر»[1]، وهذا النسب غريب، تفرّد به ابن الشجريّ، ثمّ نقله عنه البغداديّ في (خزانة الأدب)[2]، ولم نقف على أثر له في غير (الأمالي) و(الخزانة)، فابن الشجريّ يجعل «عبدَشمس بنَ معن»، فيختصر حلقةً بارزةً من حلقات نسب أحمر، وهي فيما أورده القرشيّ والمَرْزُبانيّ: «عبد بن فرّاص»[3]، إذ ليس في أولاد معن بن مالك مَن سمّي عبدشمس[4].

والمهمّ أنّ ابن أحمر من بني فرّاص بن معن بن مالك بن أَعْصُر، وأمّا كنيته، فلم نجد له سوى كنية واحدة، إذ كان «يكنّى أبا خطّاب»[5]، ولكنّه لم يكن يُعرف بكنيته ولا لقبه، وإنّما يُذكر باسمه، فيقال: ابن أحمر، فيميّز بينه وبين من سمّي باسمه من الشعراء، ولهذا يراه الطَّيالسيّ ممّن «عُرف باسمه دون لقبه»[6]، ويؤكّد ذلك ابن الأثير في (المرصّع)، فيذكره في الأبناء من معجمه، ويقول: «ابن أحمر: هو عمرو بن أحمر الباهليّ شاعر معروف، يُستشهد على اللغة بشعره كثيراً، فيقال: ابن أحمر، ولا يذكر له اسم»[7].

وإذا ما سألنا صاحب (المؤتلف والمختلف) عمّن عرف بـ (ابن أحمر) في ديوان العرب، فسنظفر بثلاثة شعراء، يُعرفون به غير ابن أحمر الباهليّ، أحدهم: ابن أحمر البَجَليّ، وهذا إسلاميّ قديم وشاعر مُجيد وصّاف

(1) الأمالي لابن الشجريّ 1/ 137.
(2) خزانة الأدب 3/ 38.
(3) جمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 842، ومعجم الشعراء 24.
(4) انظر: المعارف 81، والاشتقاق 271، وجمهرة أنساب العرب 245، واللباب 1/ 94، وخزانة الأدب 4/ 565، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 217، والتاج (فرص).
(5) معجم الشعراء 24، وسمط اللآلئ 307، والإصابة 3/ 112.
(6) المكاثرة 55.
(7) المرصّع 65.

للحيّات[1]، والآخر: هُنَيّ بن أحمر الكنانيّ، وهو من شعراء الجاهليّة[2]، والثالث: ابن أحمر الإياديّ[3].

ثمّ تتبّعت سائر من يقال له: (ابن أحمر) في ديوان شعرنا العربيّ[4]، فوجدت المَرْزُبانيّ في (معجم الشعراء) يذكر اثنين، أحدهما: «عوف بن عبدالله بن الأحمر الأَزْديّ: شهد مع عليّ ـ عليه السلام ـ صفّين، وله قصيدة طويلة، رثى فيها الحسين»[5]، والآخر: عطاء بن أحمر المدينيّ: أحد ظرفاء المدينة المعدودين، يسير الشعر ضعيفه، له قصيدة يذمّ فيها جواري القيان، أوّلها:

لا تَعْتَبَنَّ عَلى القِيانِ، ولا تُرِدْ وُدَّ القِيانِ، فإِنَّهُنَّ تِجَارُ»[6].

ولعلّ ابن أحمر هذا هو الشاعر نفسه الذي روى له الوشّاء في (الموشّى)[7] قصيدةً رائيّةً، يذمّ فيها القيان، ويصف ظرفه معهنّ، ولعلّه هو

(1) المؤتلف والمختلف 44، وعنه في شرح أبيات المغني 2/ 136.

(2) االمؤتلف والمختلف 45، وعنه في شرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 136، وابن سعيد الأندلسيّ يجعله من بني ضَمْرَة بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة، ويقول: «هُنَيّ بن أحمر الضَّمْريّ: ذكر البَيْهَقيّ أنّه من شعراء الجاهليّة» نشوة الطرب 380 و382، وانظر: القطعة 2/ 1 ـ 6 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).

(3) المؤتلف والمختلف 45، وعنه في شرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 136.

(4) وجدت من صنع شعر مزاحم العُقَيليّ في مجلّة (معهد المخطوطات العربيّة): ص140، ج1، مج22، 1396 هـ/ 1976 م ينقل عن الجواليقيّ قوله في بيت: «هذا البيت يُروى لمزاحم العُقَيليّ وعروة بن أحمر الخُزاعيّ» بالزاي، فتتبّعت ذلك في شرحه أدب الكاتب، ورأيت الجواليقيّ يقيّده بالدال، ويقول: «ابن أحمد الخُزاعيّ»شرح أدب الكاتب 120 كما وجدت الدكتور إحسان عبّاس ـ رحمه اللّه ـ في تحقيقه معجم الأدباء 856 يحرّف اسم (مزاحم العُقَيليّ) فيما نقله ياقوت من الفهرست 86 و178 إلى (ابن أحمر العُقيليّ)، وفي الفصل الرابع (توثيق شعر ابن أحمر) سنرى صوراً من هذا التحريف بين الشاعرين.

(5) معجم الشعراء 126.

(6) معجم الشعراء 160. والتِّجَار: جمع تاجر، وأَصل التاجر الخمّار يخصّونه به من بين التجّار.

(7) انظر: الموشّى (ط. الخانجيّ) 124 و(ط. صادر) 143، والقطعة 18/ 1 ـ 9 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).

الظريف نفسه الذي عناه الجاحظ بقوله: «لو أنّ رجلاً ألزق نادرةً بأبي الحارث جمَّين والهيثم بن مطهر وبمزبّد وابن أحمر، ثمّ كانت باردةً لجرت على أحسن ما يكون»[1]. ويبدو أنّ هذا الشاعر الظريف قد حظي بكبير اهتمام، فجمع بعضهم أخباره ونوادره في كتابين، يذكر ابن النديم[2] أحدهما في (أحاديث البطّالين لا يُعرف مَن صنّفها)، وهو (كتاب ابن أحمر)، ويذكر الآخر في (أسماء قوم من المغفّلين أُلّف في نوادرهم الكتب)، وهو (نوادر ابن أحمر)، فلا يساورنا أدنى شكّ في اضطراب بين هذا الشاعر المغفّل وشاعرنا ابن أحمر الباهليّ.

وإذا أردنا البحث عن أسرة ابن أحمر لم يكن ذلك بالأمر الميسور، إذ إنّنا لا نجد خبراً واضحاً عن أسرته في مصادرنا القديمة، وكلّ ما نعرفه عبارة عن أشتات بسيطة، لا تكاد تبرز جوانب صورة بيت شاعرنا بوضوح. والظاهر أنّ ابن أحمر عاش في بيت متواضع، لا يمتاز بشيء من صيت ولا شهرة، شأنه في ذلك شأن قبيلته باهلة، والرواة لا يذكرون شيئاً من أخبار أجداده غير ما حدّثنا اليزيديّ عنه، فقال: «كان العَمَرَّد جدّ عمرو بن أحمر الباهليّ، فطعن رِجْل يزيد بن الصَّعِق، فعرجت في وقعة كانت بينهم»[3]، ثمّ أنشد اليزيديّ في تلك الوقعة رجزاً، يُروى لابن أحمر وعمّه تميم بن العَمَرّد معاً، فقال[4]:

أَبـي الَّـذي أَخْـنَـبَ رِجْـلَ ابْـنِ الـصَّـعِـقْ
إِذْ كـانَـتِ الـخَـيْـلُ كـعِـلْـبـاءِ الـعُـنُـقْ
ولَـمْ يَـكُـنْ يـرُدُّهُ الـجِـبْـسُ الـحَـمِـقْ

(1) البخلاء 7.
(2) الفهرست 435.
(3) الأمالي 139، وانظر: اللسان، والتاج (خنب) و(صعق).
(4) الأمالي 139، والطَّيالِسيّ في المكاثرة 29 يروي لتميم هجاءً في أعشى بني بيبة.

ولعلّ والد ابن أحمر كان يرتجز كأخيه تميم، فقد روى أبو عمرو الشَّيْبانيّ هذا الرجز لأبي العَمَرَّد(1):

تَشْكو إلى الأَدْنَيْنِ والأَقارِبِ
مِنْ أَسَدٍ في الرَّحْلِ غَيْرِ كاسِبِ
لَيْثٍ عَلى ما جَمَّعَتْ قُراضِبِ

فإذا صحّ لدينا أنّه اختصّ بهذه الكنية دون سائر إخوته، فإنّنا نؤكّد أنّه كان يرتجز حقّاً، ولكنّ المصادر لا تسعفنا بالخبر اليقين، فيبقى الأمر مجرّد ظنّ. وروى ابن برّيّ شعراً مضطرباً بين ابن أحمر والأزرق بن طَرَفة بن العَمَرَّد بن فَرّاص(2)، فلعلّ الأزرق ابن عمّه كان شاعراً أيضاً(3)، وابن السيرافيّ يحدّثنا عنه، فيقول: «تنازع ناس من بني باهلة من بني فَرّاص وناس من بني قُرَّة بن هبيرة بن سَلَمة بن قُشير حتّى صاروا إلى السلطان، فقال بعض القُشيريّين للسلطان: إنّ الأزرق بن طَرَفة ـ وهو من بني باهلة ـ لصّ بن لصّ، ليُغروه به، فقال قصيدةً، فيها:

رَماني بأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ ووالِدي بَريئاً، ومِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَماني
دَعاني لِصًّاً مِنْ لُصوصٍ، وما دَعا بِها والدي فيما مَضى رَجُلانِ»(4).

وأمّا والد ابن أحمر وإخوته، فلم نعثر على شيء من أخبارهم غير ما أورده ابن رشيق في كتابه (العمدة)، فسمّى أخوين له في (مَنْ لم يُعْرِق في الشعر)، فقال: «عمرو بن أحمر، وأخواه سِنان وسَيّار»(5)، وفي كلام ابن رشيق

(1) الجيم 3/ 91.
(2) انظر: اللسان (جول).
(3) انظر: الأشباه والنظائر 2/ 274.
(4) شرح أبيات سيبويه 1/ 249، وانظر: القطعة 48/ 1 ـ 2 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(5) العمدة 2/ 308. وقال ابن رشيق: «الفرق بين المُعْرِق وبين ذي البيت أنّ المُعْرِق من تكرّر الأمر فيه وفي أبيه وفي جدّه فصاعداً، ولا يكون مُعْرِقاً حتّى يكون الثالث فما فوقه»، و«ذو البيت من عمّ الأمر جميع أهل بيته وأكثرهم».

ما يدلّ على أنّ بيت ابن أحمر لم يكن مُعْرِقاً في الشعر، فليس في أيدينا من الدلائل ما يشير إلى أنّ والده وجدّه كانا شاعرين، أو أنّ هذا الأمر قد تكرّر في أولاده وأحفاده.

وإذا دلفنا إلى بيت ابن أحمر نفسه، فإنّ المصادر القديمة لا تسعفنا بشيء من الأخبار حول زوجه وأبنائه، ولكنّنا نعرف أنّه كان متزوّجاً، وأنّ العلاقة بينه وبين زوجه كانت غير ودّيّة، وذلك ممّا أنشده الأنباريّ، فقال: «قال ابن أحمر يذكر امرأته:

رَمَتْني بهَوْراتِ الذُّنوبِ، وباعَدَتْ فِراشي، فيا لَلنّاسِ ماذا يُليقُها»[1].

ويبدو أنّ هذه العلاقة قد انتهت بالطلاق، فهو يذكر أنّها كانت ترجو في الطوائف زوجاً آخر سواه، فتتركه منبوذاً وحيداً[2]:

أَمْسَتْ تَخَيَّرُ في الأَشْياعِ أَيَّهُمُ تَرْضى، وأَمْسَيْتُ بَوَّاً نائِياً جَسَدا

ولهذا نراه يَرْغَب بها عن كلّ مسترخ مستكين، ويرغّب إليها كلّ أريحيّ شجاع، و«يقول لامرأته»[3] [4]:

فلا تَصِلي بمَطْروقٍ إِذا ما سَرى في الرَّكْبِ أَصْبَحَ مُسْتَكينا
مُطيعٌ لا يُطاعُ، ولا يُبالي أَغَثّاً كانَ حالُكِ أَمْ سَمينا
يَظَلُّ أَمام بَيْتِكِ مُجْرَعِبّاً كما أَلْقَيْتِ بالمَتْنِ الوَضينا
إِذا شَرِبَ المُرِضَّةَ قالَ: أَوْكي عَلى ما في سِقائِكِ قَدْ رَوينا
إِذا اشْتَدَّ الزَّمانُ أَكَبَّ لَغْياً فلا قِدْحاً يُدِرُّ ولا لَبونا

(1) الأضداد 263، وانظر: القصيدة 43/ 1.
(2) القصيدة 16.
(3) كنز الحفّاظ 410.
(4) القصيدة 58/ 25 ـ 34.

وكـونـي إنْ هَـلَـكْـتُ لِأَرْيَـحِـيٍّ مِـنَ الـفِـتْـيـانِ لا يُـضْـحـي بَـطـيـنـا
كَـأَنَّ الـصَّـقْـرَ يَـقْـلِـبُ مُـقْـلَـتَـيْـهِ إذا نَـفَـضَ الـعُـيـوبَ، وقَـدْ خَـفـيـنـا
كَـأَنَّ الَّـلـيْـلَ لا يَـأْتـي عَـلَـيْـهِ إذا زَجَـرَ الـسَّـبَـنْـداةَ الأَمـونـا
يُـصـيـبُ مَـغـارمـاً فـي الـقَـوْمِ قَـصْـداً وهُـنَّ لـغَـيْـرِهِ لا يَـبْـتَـغـيـنـا
فـمـا كَـلَّـفْـتُـكِ الـقَـدَرَ الـمُـغَـبّـى ولا الـطـيْـرَ الَّـذي لا تَـعْـبُـريـنـا

ونقع على رواية أخرى للأبيات، تقول: «فبَلِّي يا غَنِيُّ بأَرْيَحيٍّ»[1]، فنعرف أنّ هذه الزوج كانت تدعى غَنِيَّة، ولكنّ ابن أحمر رخّمها، فقال: غَنِيّ، وممّا يؤكّد ذلك أنّ هذه التسمية قد ذكرها غير مرّة في شعر آخر له، فقال[2]:

زَعَـمَـتْ غَـنِـيَّـةُ أَنَّ أَكْـثَـرَ لِـمَّـتـي شَـيْـبٌ، وهـانَ بـذاكَ مـا لَـمْ تَـزْدَدِ

وقال[3]:

ومـا بَـيْـضـاءُ فـي نَـضَـدٍ تَـداعـى بـبَـرْقٍ فـي عَـوارِضَ قَـدْ شَـرِيـنـا
يَـضـيءُ صَـبـيـرُهـا فـي ذي حَـبِـيٍّ جَـواشِـنَ لَـيْـلِـهـا بِـيـنـاً فـبِـيـنـا
بِـأَحْـسَـنَ مِـنْ غَـنِـيَّـةَ يَـوْمَ راحَـتْ وجـارَتِـهـا ومِـنْ أُمِّ الـبَـنـيـنـا

ولعلّنا نلمح في هذا الشعر سبباً مهمّاً من أسباب الخلاف بينهما، فهو شيخ طاعن في السنّ، يشكو ـ كما سنرى ـ عَوَراً في عينه وسَقْياً في بطنه، وهي امرأة شابّة، تمرح بنشاطها وحيويّتها، فتتمادى في مواجهته والاستخفاف به.

وابن أحمر يذكر في شعره نساء أخريات، هنّ: ليلى والحارثيّة وميّ

(1) تهذيب اللغة 2 / 261، والصحاح 1461، وتهذيب إصلاح المنطق 460، واللسان (بلل) و(معد)، والتاج (معد)، وانظر: القصيدة 57/ 30.
(2) القصيدة 14/ 2.
(3) القصيدة 58/ 9 ـ 11.

وخنساء وكنانيّة وجدوى، ولا ندري من أمرهنّ شيئاً غير هذه الأسماء التي قد تكون لامرأة واحدة، يكنّي بها عن اسمها الحقيقيّ على عادة الشعراء.

2 ـ نشأته وصلاته:

إذا كانت المصادر القديمة قد ضنّت علينا بأخبار أهل بيته وأحوالهم، فحياته لم تكن بأوفر حظّاً من ذلك، فقد شُغلت هذه المصادر بما أتى به من حروف الغريب والفصيح واللغة، وأغفلت أخبار نشأته ومراحل حياته، فلا نكاد ندري شيئاً من سيرته الأولى.

ولهذا نحن لا ندري متى ولد، وكيف شبّ وتدرّج، ومع ذلك كلّه لا بدّ لنا أن نلتمس شيئاً من نشأته من خلال ما عثرنا عليه من أخبار يسيرة في أضعاف تلك المصادر، وما نجده في قصائد ابن أحمر نفسه.

وأقدم ما نجده من إشارات إلى نشأته الأولى ما رواه ابن قتيبة عن أبي عمرو بن العلاء (154هـ)، فقال: «كان ابن أحمر في أفصح بقعة من الأرض أهلاً: يَذْبُلَ والقَعاقِعَ، يعني مولده قبل أن ينزل الجزيرة ونواحيها»[1]، فنشأ هذا الطفل الأعرابيّ في أحضان بادية نجد، وتهيّأت له سبل الفصاحة حتّى أمكن له أن يكون «صحيح الكلام كثير الغريب»[2]، ثمّ يكون «الشاعر الفصيح » الذي «يتقدّم شعراء أهل زمانه»[3]، وإذا كان أبو عمرو بن العلاء قد حدّد مولده بنجد، فليس من مصدر آخر يحدّد بوضوح الزمن الذي ولد فيه ابن أحمر، ولكنّ ثمّة

(1) الشعر والشعراء 359، وعنه في شرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134.

(2) طبقات فحول الشعراء 580، ومعجم الشعراء 24، والإصابة 3/ 112، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134.

(3) المؤتلف والمختلف 44، وخزانة الأدب 3/ 38، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 135، وانظر: من سمّي من الشعراء عمراً 56.

اتفاقاً بين العلماء على أنّه «من شعراء الجاهليّة»[1]، فممّا لا شكّ فيه أنّه عاش طفولته وشطراً من شبابه قبل الإسلام حتّى كان شاعراً «من شعراء الجاهليّة المعدودين»[2]، قال فيها قصائد كثيرةً، ولعلّ معنى ذلك أنّه كان في حوالي العشرين من عمره على أقلّ تقدير، وإذا كان ابن أحمر قد أدرك العقد الأوّل من ولاية عبدالملك بن مروان (73 ـ 86هـ)[3] حين شكا ظلم السُّعاة إلى يحيى بن الحكم بن أبي العاص واليه على المدينة سنة خمس وسبعين للهجرة[4]، فهذا يعني أنّه قد عُمّر نحو خمس وتسعين، ويؤكّد هذا أيضاً أنّه قد ولد قبل الهجرة بنحو عشرين سنةً.

وهذا الشطر من حياته يكاد يكون غامضاً أشدّ الغموض، لأنّنا لا نعرف خبراً، يضيء لنا جانباً ما من جوانب هذه الفترة التي قضاها في الجاهليّة، ولهذا نضطرّ إلى أن نستقرئ شعره، فنراه في أغلب قصائده يتحسّر على أيّام شبابه، ويندب ما يلاقيه من صروف الدهر، وفي هذا ما يدلّ على أن تلك القصائد لم تنظم إلاّ في فترة متأخّرة من حياته، وإذا ما بحثنا في شعره عن ذكريات الشباب، فإنّنا لا نجد سوى ذكرى مجلس لهو وشراب، لا يدانيه في سموّه غير مجالس الملوك، وهو يصطخب بغناء القيان وموسيقى العود والصَّنْج، ويَعْبَق بريح الكؤوس والقدور[5]:

ولَقَدْ غَدَوْتُ، وما يُفَزِّعُني خَوْفٌ أُحاذِرُهُ ولا ذُعْرُ
رُؤْدَ الشَّبابِ كَأَنَّني غُصُنٌ بحَرام مَكَّةَ ناعِمٌ نَضْرُ
كشَرابٍ قَيْلٍ عَنْ مَطِيَّتِهِ ولِكُلِّ أَمْرٍ واقِعٍ قَدْرُ

(1) الأغاني 2980، والأمالي لابن الشجريّ 1/ 137، والإصابة 3/ 112، وخزانة الأدب 3/ 39.
(2) الأغاني 2980، والإصابة 3/ 112، وخزانة الأدب 3/ 39.
(3) تاريخ الخلفاء 422، وتاريخ الطبريّ 6/ 431.
(4) تاريخ الطبريّ 6/ 202.
(5) القصيدة 20/ 14 ـ 21.

مُـدَّ الـنَّـهـارُ لَـهُ، وطـالَ عَـلَـيْـ ـهِ الَّـلـيْـلُ، واسْـتَـنْـعَـتْ بِـهِ الـخَـمْـرُ
ومُـسِـفَّـةٍ دَهْـمـاءُ داجِـنَـةٌ رَكَـدَتْ، وأُسْـبِـلَ دونَـهـا الـسِّـتـرُ
وجَـرادَتـانِ تُـغَـنِّـيـانِـهُـمُ وتَـلأْلأَ الـمَـرْجـانُ والـشَّـذْرُ
ومُـجَـلْـجَـلٌ دانٍ زَبَـرْجَـدُهُ حَـدِبٌ كـمـا يَـتَـحَـدَّبُ الـدَّبْـرُ
وَنَّـانِ حَـنَّـانـانِ بَـيْـنَـهُـمـا وَتَـرٌ أَجَـشُّ غِـنـاؤُهُ زَمْـرُ

ولمّا خمدت نشوة الذكرى، وأحسّ ابن أحمر أنّ الشباب قد ولّى، بدا للشاعر الحكيم أنّ طريق اللهو بُطل وضلالة[1]:

خَـلُّـوا طَـريـقَ الـدَّيْـدَبـونِ، فـقَـدْ وَلَّـى الـصِّـبـا، وتَـفـاوَتَ الـنَّـجْـرُ

ويبدو من خلال قوله: «كأنّني غُصُنٌ بحرام مكةَ ناعمٌ نَضْرُ» أنّ هذا الفتى النجديّ كان يرتحل إلى الحجاز، ولكنّنا لا نقوى على تحديد ذلك بوضوح ودقّة، لأنّنا لا نجد من أخبار تلك الرحلات إلاّ مثل هذه الإشارات إلى بعض بلاد الحجاز. وهذا المجلس الوحيد في شعره ينمّ على شباب فتى، لم يكن ماجناً، إذا ما قورن بما نراه من طرفة بن العبد وامرئ القيس مثلاً، أو بما يعرفه ابن أحمر نفسه عن الملك الضليل ولهوه بهند وهِرّ وفَرْتَنى.

وأمّا قصائد الشباب أو ما قاله ابن أحمر في الجاهليّة، فقد كان كثيراً حتّى إنّ الأصفهانيّ قال: «قال في الجاهليّة والإسلام شعراً كثيراً»[2]، ولكنّه لم يصل إلينا منه سوى أبيات يسيرة، ترتبط بأحداث جاهليّة معيّنة، لا نجد بين أيدينا وسيلةً إلى تحديد زمانها بدقّة، ولعلّ أوضح مثال نسوقه هنا ما أنشده ابن أحمر في سِلّى، وهو يوم لباهلة على بني ضَبَّة، فقال[3]:

(1) القصيدة 20/ 24.
(2) الأغاني 2980.
(3) القصيدة 7/ 4 ـ 7.

فَـوارِسُ سِـلّـى يَـوْمَ سِـلّـى وسـاجِـرٍ إذا هَـرَّتِ الـخَـيْـلُ الـحَـديـدَ الـمُـذَرَّبـا
لَـدُنْ غُـدْوَةً حَـتّـى كَـرَرْنَ عَـشِـيَّـةً وقَـرَّبْـنَ حَـتّـى مـا يَـجِـدْنَ مُـقَـرَّبـا
تَـدارَكْـنَ حَـيّـاً مِـنْ نُـمَـيْـرِ بْـنِ عـامِـرٍ أُسـارى تُـسـامُ الـذُّلَّ قَـتْـلاً ومَـحْـرَبـا
فـلَـمْ أَرَ يَـوْمـاً كـانَ أَكْـثَـرَ غـارَةً وشَـمْـسـاً أَبَـتْ أَطْـنـابُـهـا أَنْ تَـقَـضَّـبـا

وأمام تلك الأشتات التي نلملمها من أضعاف كتب اللغة والأدب لا نكون مغالين إذا ما قلنا: إنّ طائفةً مهمّةً ممّا قاله ابن أحمر في الجاهليّة قد فُقدت، شأنه في ذلك شأن كثير من شعراء الجاهليّة الذين أُغفل ذلك الجانب المهمّ من حياتهم. وقد حاول الدكتور حسين عطوان أن يقول شيئاً في هذا الأمر، فزعم «أنّ ما بقي من شعره لا ينبئ بأنّه قال شعراً كثيراً أو قليلاً في الجاهليّة، وقد تكون بعض أشعاره التي نظمها في الجاهليّة قد ضاعت، ولم تصل إلينا»[1] إلاّ أنّ الدكتور عطوان في مناقشته هذا الأمر كان حازماً جازماً، فقال الكلمة الأخيرة في أشتات متناثرة، لا يملك أمامها الباحث غير أن يتريّث حتّى يقف على نسخة من ديوان ابن أحمر.

وإذا ما نظرنا إلى علاقة ابن أحمر بقومه، وهو في مطلع شبابه، لم نجدها ودّيّةً، وربّما أوشكت أن تصل إلى حدّ خلعه وهدر دمه، ويذكر ذلك على لسان زوجه، فيقول[2]:

تَـقـولُ حَـلـيـلَـتـي بـشَـراءَ: إنّـا نَـأَيْـنـا أَنْ نَـزورَ، وأَنْ نُـزارا
عَـلَـيْـكَ الـجـانِـبَ الـوَحْـشِـيَّ، إنّـي سَـمِـعْـتُ لـقَـوْمِـنـا حَـلِـفـاً حَـرارا
لَـئِـنْ وَرَدَ الـسُّـمَـارَ، لَـنَـقْـتُـلَـنْـهُ فـلا وأَبـيـكِ لا أَرِدُ الـسُّـمَـارا

والمصادر القديمة لا تسعفنا بالأسباب، ولكنّ القصيدة ذاتها تشير إلى

(1) مقدّمة شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 10.
(2) القصيدة 32/ 12 ـ 14.

طرف خفيّ من هذا الخلاف، إذ إنّ قريباً له نال من عرضه قدحاً وذمّاً، فهجاه ابن أحمر، وقال:

أَرانا لا يَزالُ لَنا حَميمٌ كداءِ البَطْنِ سِلاّ أَوْ صُفارا
يُعالِجُ عاقِراً، أَعْيَتْ عَلَيْهِ لِيُلْقِحَها، فيُنْتِجَها حُوارا
يُدَنِّسُ عِرْضَهُ، لِيَنالَ عِرْضي أَبا دَغْفاءَ، وَلِّدْها فَقارا[1]

ويظهر أنّ ابن أحمر لم يسلم في غمرة هذا الخلاف من بوائق قومه، ويذكر الرواة أنّ مَخْشِيّاً ـ ولعلّه أحد رجالهم ـ رماه بسهم، ففقأ عينه[2]، ففرح لئام قومه بما أصابه[3]:

تُسائِلُ بابْنِ أَحْمَرَ مَنْ رَآهُ أَعارَتْ عَيْنُهُ، أَمْ لَمْ تَعارا
فإِنْ يَفْرَحْ بما لاقَيْتُ قَوْمي لِئامُهُمُ، فلَمْ أُكْثِرْ حِوارا

ونظنّ أنّ ذاك الخلاف اضطرّ ابن أحمر إلى أن يودع رِكابه رجلاً من بني سعد، ويذكر ابن دريد هذا، ويقول: «كان ابن أحمر أودع إبله وراعيها رجلاً من بني سعد، فأغار عليها قوم منهم، فأخذوها، ولم يسع الخفير فيها»[4]، فهجاهم، وقال[5]:

لا صابَ جارَهُمُ الرَّبيعُ، ولا زادَتْ حُمولَتُهُ عَلى عَشْرِ
طَرَقَ الخَناسِرَةَ اللِّئامَ، فلَمْ يَسْعَ الخفيرُ بناقَةِ القَسْرِ
لَوْ كُنْتُ ذا عِلْمٍ عَلِمْتُ، وكَيْفَ لي بالعِلْمِ بَعْدَ تَدَبُّرِ الأَمْرِ

(1) القصيدة 32/ 5 ـ 7.
(2) الشعر والشعراء 356، والاقتضاب 434، وشرح شواهد الشافية 4/ 354، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134.
(3) القصيدة 32/ 17 ـ 18.
(4) جمهرة اللغة 2/ 206. وبنو سعد: قوم سعد بن زيد مَناة بن تميم.
(5) القصيدة 25/ 17 ـ 20.

لَـوْ بـي تَـحَـمَّـسَـتِ الـرِّكـابُ إِذاً ما خـانَـنـي حَـسَـبـي ولا وَفْـري

ثمّ تهدّدهم بداهية عظيمة، تأتيهم، فتصُمّهم، إن لم يردّوا عليه إبله، وقال[1]:

فـرُدُّوا مـا لَـدَيْـكُـمْ مِـنْ رِكـابـي ولَـمَّـا تَـأْتِـكُـمْ صَـمِّـي صَـمَـامِ

ويبدو أنّ ابن أحمر كان صاحب رعي ورِكاب، يخرج وراعيه القَسْر[2] بها إلى المرعى، كما يقول[3]:

إِنَّـكَ لَـوْ رَأَيْـتَـنـي والـقَـسْـرا
مُـجَـشَّـرِيـنَ قَـدْ رَعَـيـنـا شَـهْـرا
لَـمْ تَـرَ فـي الـنّـاسِ رِعـاءً جَـشْـرا
أَتَـمَّ مِـنّـا قَـصَـبـاً وسَـيْـرا

ثمّ استبدل بالرعي حين نزل الجزيرة حياةً حضريّةً، لم تعجب هذا البدويّ[4]:

تَـبَـدَّلْـتَ إِصْـطَـبْـلاً وتَـلاًّ وجَـرَّةً وديـكـاً إِذا مـا آنَـسَ الـفَـجْـرَ فَـرْفَـرا
وبُـسْـتـانَ ذي ثَـوْرَيْـنِ لا لِـيْـنَ عِـنْـدَهُ إِذا مـا طَـغـى نـاطـورُهُ وتَـغَـشْـمَـرا

وأمّا في كهولة ابن أحمر، فالذي يبدو أنّه كان ضعيف الصلة بأكثر الأحداث في عصره وبأكثر الأمراء والخلفاء الذين عاصرهم، فإذا كنّا قد وجدنا أبياتاً معدودةً، يمدح فيها ابن أحمر خليفةً، أو يثني على أمير، فليس ثمّة ما يشير إلى أنّه قد اتّصل حقيقةً بهؤلاء، والمصادر القديمة لا تنكر لابن أحمر صلاته

(1) القصيدة 52/ 1.
(2) التقفية 197، وجمهرة اللغة 2/ 206، واللسان، والتاج (قسر) و(هيب).
(3) القصيدة 33/ 1 ـ 4.
(4) القصيدة 28/ 13 ـ 14.

ببعض رجال عصره وأحداثه، وهي صلات تكاد تكون غير وثيقة، أو أنّ أخبارها قد انقطعت، فلم يصلنا منها غير القليل القليل.

ففي عهد النبوّة لا نعرف البتّة لابن أحمر مشاركةً ما في الدعوة الإسلاميّة، ولا نعلم متى أسلم، وكيف كان إسلامه، وإذا سألنا ابن حَجَر عن إسلامه وصحبته وجدناه في (الإصابة) يجعله في قسم (المخضرمين من الصحابة)، وينقل عن المَرْزُبانيّ قوله: «هو مخضرم، أدرك الجاهليّة والإسلام، فأسلم»[1].

ولابن أحمر في الإسلام فضل كبير، فقد كان أحد الفرسان المجاهدين في الفتوح الإسلاميّة، ويذكر ابن الجرّاح أنّه «أسلم، وغزا مغازي الروم، وأصيب بعينه هناك»[2]، ويرى المَرْزُبانيّ هذا، فيقول: «غزا مغازي الروم، وأصيبت إحدى عينيه هناك»[3]، ويروي أبو الفرج أنّه «كان في خيل خالد بن الوليد حين وجّه أبو بكر خالداً إلى الشام»[4]، وينشد في خالد ـ رضي اللّه عنه ـ قوله[5]:

إِذا قالَ سَيْفُ اللّهِ: كُرُّوا عَلَيْهِمُ كَرَرْتُ بِقَلْبٍ رابِطِ الجَأْشِ صارِمِ

وأمّا علاقته بالخلفاء الراشدين، فقد ذكر الأصفهانيّ أنّه «لم يأت أبا بكر»[6]، والمصادر لا تروي له شيئاً في مدحه والثناء عليه. ويبدو أنّه لم يأت أيضاً عمر بن الخطّاب، رضي اللّه عنه، ولكنّه أثنى عليه وعلى قومه بقصيدة

(1) الإصابة 3/ 112، وعنه في خزانة الأدب 3/ 39، وعبارة المَرْزُبانيّ: «أدرك الإسلام، فأسلم» معجم الشعراء 24، وهي ذاتها عبارة الأغاني 2980، وانظر: الأمالي لابن الشجريّ 1/ 137، وقال البغداديّ: «عمرو بن أحمر الباهليّ: شاعر إسلاميّ» حاشيته على شرح بانت سعاد 2/ 611.

(2) من سمّي من الشعراء عمراً 56.

(3) معجم الشعراء 24، وعنه في الإصابة 3/ 112، وخزانة الأدب 3/ 39.

(4) الأغاني 2980، وعنه في الإصابة 3/ 112.

(5) القصيدة 50.

(6) الأغاني 2980، وعنه في الإصابة 3/ 112، وخزانة الأدب 3/ 39.

طويلة، ينشد أبو الفرج ما بقي من أبياتها، فيقول: «قال في عمر بن الخطّاب ـ رضي اللّه عنه ـ قصيدةً له طويلةً جيّدةً: «أَدْرَكْتُ آلَ أَبي حَفْصٍ وأُسْرَتَهُ... (الأبيات)»[1].

وينشد صاحب الأغاني له في عثمان، فيقول: "وقال في عثمان بن عفّان، رضي اللّه عنه:

حُثِّي، فلَيْسَ إِلى عُثْمانَ مُرْتَجَعٌ إِلاّ العَداءُ وإِلاّ مَكْنَعٌ ضَرَرُ
إِخالُها سَمِعَتْ عَزْفاً، فتَحْسَبُهُ إِهابَةَ القَسْرِ لَيْلاً حينَ تَنْتَشِرُ[2]».

فكأنّ أبا الفرج يظنّ أنّ ابن أحمر قد قال هذا الشعر في مدح عثمان بن عفّان، ولو نظرنا نظرةً شاملةً إلى مشوبة ابن أحمر التي أوردها القرشيّ في (جمهرة أشعار العرب)[3] وإلى موضع هذين البيتين منها، لعرفنا أنّ القصيدة ليست في ابن عفّان، وإنّما هي في يحيى بن الحكم بن أبي العاص، ولعلّ المقصود بعثمان هنا أحد عمّال الصدقات الذين يشكو ابن أحمر إلى ابن أبي العاص ظلمهم وعَسْفهم.

وإذا كانت المصادر لم ترو له شيئاً في مدح عثمان، رضي اللّه عنه، فالظاهر أنّه كان عثمانيّ الهوى، انحاز إلى المطالبين بدمه والمعادين لعليّ بن أبي طالب، كرّم اللّه وجهه، ويدلّ على ذلك أمران، أحدهما: أنّه استشفع لنفسه عند أبي الحسن برسالة، لم يبق منها غير بيت واحد، يرويه صاحب (الأغاني)، فيقول: «قال في عليّ بن أبي طالب، رضي اللّه عنه:

مَنْ مُبْلِغٌ مَأْلُكاً عَنِّي أَبا حَسَنٍ فارْتَحْ لخَصْمٍ ـ هَداكَ اللّهُ ـ مَظْلومِ»[4].

(1) الأغاني 2980، وانظر: القصيدة 18/ 19، 12، 20.
(2) الأغاني 2980، وانظر: القصيدة 18/ 25، 24.
(3) انظر: جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 301، و(ط. البجاويّ) 842.
(4) الأغاني 2981، وانظر: القصيدة 51/ 1.

والآخر: أنّه كان مقرّباً من النُّعْمان بن بشير الأنصاريّ[1] أحد أشهر من مالوا إلى معاوية ضدّ عليّ[2]، ومدحه ابن أحمر بقصيدة من غرر قصائده[3]. والمصادر تضنّ بأخبار ابن أحمر خلال اضطراب الأحوال السياسيّة في تلك الفترة الحاسمة من تاريخنا العربيّ الإسلاميّ، فكأنّه لاذ بالصمت حتّى خلافة يزيد بن معاوية (60 ـ 64)[4]، إذ رأينا صلته بهذا الخليفة غير ودّيّة، فابن أحمر وقومه ربّما لم يسعوا بالولاء ليزيد حين توفّي معاوية، وبويع له قسراً، شأنهم في ذلك شأن أهل الحجاز الذين أخذوا البيعة بالخلافة لعبداللّه بن الزُّبَير في مكّة سنة أربع وستّين[5]، وربّما وقفوا منه موقف عداء، فاستخفّ ابن أحمر به، وشقّ عصا الطّاعة، فقال[6]:

أَبا خالِدٍ، هَدِّبْ خَميلَكَ لَنْ تَرى بعَيْنَيْكَ وَفْداً آخِرَ الدَّهْرِ جائِيا
ولا طاعَةً حَتّى تُشاجِرَ بالقَنا قَناً ورِجالاً عاقِدينَ النَّواصِيا
فلا يَأْتِنا مِنْكُمْ كِتابٌ بِرَوْعَةٍ فلَنْ تَعْدَموا مِنْ سائِرِ النّاسِ راعِيا

ولمّا اتّصل بيزيد عن ابن أحمر أنّه هجاه طلبه، فلم يجد شاعرنا سبيلاً غير الاعتذار إليه والفرار من سطوته وعقابه، وهو يتبرّأ من هجاء جَرِب، نسب إليه، وناله شرّه، ثمّ ينكر حكم القضاء الجائر، ويقول[7]:

(1) النعمان بن بشير الأنصاريّ: له ولأبيه صحبة ورواية، وكان أوّل مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً. استعمله معاوية على الكوفة ثمّ على حِمْص، ودعا إلى ابن الزبير ثمّ إلى نفسه، فقتله بنو أميّة سنة خمس وستين من الهجرة. انظر: المعارف 294، وتاريخ الطبريّ 2/ 401 و5/ 133 و462 و481 و531 و539، وجمهرة أنساب العرب 364، والإصابة 3/ 559.
(2) تاريخ الطبريّ 5/ 131.
(3) انظر: القصيدة 46/ 10 ـ 16.
(4) تاريخ الخلفاء 420، وتاريخ الطبريّ 5/ 499.
(5) تاريخ الخلفاء 422.
(6) القصيدة 60/ 31 ـ 33.
(7) القصيدة 28/ 15 ـ 16

وإِنْ قالَ غاوٍ مِنْ تَنوخَ قَصيدَةً بها جَرَبٌ عُدَّتْ عَلَيَّ بزَوْبَرا
ويَنْطِقُها غَيْري، وأَكْلَفُ حَمْلَها فهَذا قَضاءٌ حقُّهُ أَنْ يُغيَّرا

وتتّفق المصادر على أنّ ابن أحمر قد فرّ من يزيد، ولعلّ أقدم إشارة إلى هذا ما ذكره التَّبْريزيّ في تعليقه على البيتين السابقين، فقال: «كان ابن أحمر ادُّعِيَ عليه أنّه هجا يزيد بن معاوية، فطلبه ابن حاطب، فأخذه، وقيّده، ثمّ أَفلت»[1]. ولمّا شعر ابن أحمر أنّ يزيد يجدّ في طلبه، ويسعى إلى محاربة معارضيه في الحجاز، لم يجد من الرحيل عن الشام بدّاً، ورأى أن يعود إلى قومه، لينتصر بهم، فأتى البصرة في طريقه إلى الأُبُلَّة[2]، وقال[3]:

أُخَبِّرُ مَنْ لاقَيْتُ أَنِّي مُبَصِّرٌ وكائِنْ تَرى قَبْلي مِنَ النّاسِ بَصَّرا
صَدَدْتُ صُدوداً عَنْ جَبابِرِ حاطِبٍ صُدودَ ابْنِ كِسْرى عَنْ صُدودِ ابْنِ قَيْصَرا
وقُلْتُ لَهُ لَمَّا قَضى جُلّ ما قَضى وطارَ خِباءٌ فَوْقَنا، فتَجَوَّرا
جَزى اللّهُ قومي بالأُبُلَّةِ نُصْرَةً وبَدْواً لَهُمْ حَوْلَ الفِراضِ وحُضَّرا
هُمُ خَلَطوني بالنُّفوسِ، وأَشْفَقوا عَلَيَّ، ورَدُّوا البَخْتَرِيَّ المُؤَمَّرا

وهكذا يلوذ ابن أحمر بقومه، وولاية يزيد توشك أن تنتهي بموته عام (64هـ)[4]، وتنقطع أخباره طوال فترة الصراع بين الزُّبَيريّين والأمويّين، فلعلّه لم يكن يقوى على المشاركة في الأحداث السياسيّة، وقد بلغ به العمر ما بلغ، وأصاب منه المرض ما أصاب، ويظهر أنّ الأيّام لم تصلح ما فسد بينه وبين بني أميّة، فلا نعرف له صلة بهم إلاّ أنّ صاحب (الأغاني) يذكر أنّ ابن أحمر أدرك

(1) كنز الحفّاظ 504، وانظر: كنز الحفّاظ 410، وتهذيب إصلاح المنطق 500، والاقتضاب 319 و402، والمشوف المعلم 65، وخزانة الأدب 3/ 38، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 130.
(2) الأُبُلَّة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة.
(3) القصيدة 28/ 26 ـ 30.
(4) تاريخ الخلفاء 420، والمعارف 351، وتاريخ الطبريّ 5/ 499.

خلافة عبدالملك بن مروان (73 ـ 86 هـ)[1]، وأنشد فيه شعراً، ويقول: «قال في الجاهليّة والإسلام شعراً كثيراً وفي الخلفاء الّذين أدركهم: عمرَ بن الخطّاب فمن دونه إلى عبدالملك بن مروان»[2]، ولكنّنا لم نجد له شعراً في خلافة عبدالملك غير قصيدة، قالها في يحيى بن الحكم بن أبي العاص والي المدينة لعبدالملك بن مروان، وهي المشوبة التي اختارها من شعره أبو زيد القرشيّ في (جمهرة أشعار العرب)[3]، فصانها من يد الحدثان، وهذه القصيدة تعدّ آخر ما نجده له من شعر سياسيّ، يرجع إلى أيّام كهولته التي قضاها في قومه، فكان لا بدّ أن تظهر فيها بعض معالم شيخوخته، فهو «شيخ شَموس»[4] في «الثماني من التسعين»[5]، يستغيث من جَور السُّعاة على قومه وظلمهم بابن أبي العاص، فلا يبدو من خلال شكواه إلاّ سيّداً من سادات قومه ولساناً معبّراً عن حالهم، فيخاطب يحيى بكلّ حكمة وكلّ جرأة قائلاً[6]:

يا يَحْيَ، يا بْنَ إمامِ النّاسِ، أَهْلَكَنا ضَرْبُ الجُنودِ وعُسْرُ المالِ والحَسَرُ
إنْ قُمْتَ ـ يا بْنَ أَبي العاصي ـ بحاجَتِنا فما لِحاجَتِنا وِرْدٌ ولا صَدَرُ
إنِّي أَعوذ بما عاذَ النَّبِيُّ بِهِ وبالخَليفَةِ أَنْ لا تُقْبَلَ العُذَرُ
مِنْ مُتْرَفيكُمْ وأَصْحابٍ لَنا مَعَهُمْ لا يَعْدِلونَ، ولا نَأْبى، فنَنْتَصِرُ
فإنْ تُقِرَّ عَلَيْنا جَوْرَ مَظْلَمَةٍ لَمْ تَبْنِ بَيْتاً عَلى أَمْثالِها مُضَرُ
لا تَنْسَ يَوْمَ أَبي الدَّرْداءِ مَشْهَدَنا وقَبْلَ ذَلِكَ أَيَّامٌ لَنا أُخَرُ

(1) تاريخ الخلفاء 422، وتاريخ الطبريّ 6/ 418.
(2) الأغاني 2980، وعنه في خزانة الأدب 3/ 39.
(3) انظر: جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 301 و(ط. البجاويّ) 842.
(4) القصيدة 18/ 21.
(5) القصيدة 18/ 40.
(6) القصيدة 18/ 27 ـ 28، 31 ـ 34.

وبذلك نجد أنّ ابن أحمر قد نشأ أعرابيّاً في نجد، وارتحل فاتحاً إلى الشام، ونزل الجزيرة، وامتدّت به الحياة إلى الشطر الأكبر من القرن الهجريّ الأوّل، ولكنّه يكاد يكون ضعيف الصلة بأحداث عصره ورجاله.

3 ـ عوره ووفاته:

جعل أبو العلاء المعريّ ابن القارح يطوف في نعيم (رسالة الغفران)، فيلقى ابن أحمر في قوم عُور، فقال: «بينا هو يطوف في رياض الجنّة لَقِيه خمسةُ نفر على خمس أَيْنُق، فيقول: ما رأيت أحسن من عيونكم في أهل الجنان! فمن أنتم، خلدَ عليكم النعيم؟ فيقولون: نحن عوران قيس: تميم بن مقبل العَجْلانيّ، وعمرو بن أحمر الباهليّ، والشَّمَّاخ مَعْقِل بن ضرار أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، وراعي الإبل عبيد بن الحصين النُّميريّ، وحميد بن ثور الهلاليّ»[1]. وتتّفق كلمة العلماء على ذلك الوصف، فنراهم يذكرون ابن أحمر في (عوران قيس)[2] إلاّ أنّ ابن قتيبة في (المعارف)[3] يورده في (الصحابة العور)، وأنّ ابن سيده في (المخصّص) يورده في (عوران العرب)، ويقول: «عوران العرب خمسة: تميم بن أُبَيّ بن مقبل، والراعي، والشَّمَّاخ بن ضرار، وابن أحمر، وحميد بن ثور الهلاليّ[4]، فإذا لم يكن ثمّة تحريف أصاب عبارة ابن سيده، فلا شكّ في أنّه يقصد هنا عوران قيس، لأنّ عوران العرب كثيرون[5]، وابن سيده نفسه في (المحكم)[6] يتّفق والعلماء الآخرين في أنّ

(1) رسالة الغفران 237.

(2) انظر: جمهرة اللّغة 2/ 390، والاقتضاب 319، وشرح أدب الكاتب 355، وخزانة الأدب 3/ 38، وشرح شواهد الشافية 4/ 353، والتاج (عور).

(3) المعارف 587.

(4) المخصّص 13/ 169.

(5) انظر: المحبّر 302، والبرصان 362.

(6) المحكم 1/ 245.

عوران قيس خمسة شعراء عور، ولكنّه يستبدل الراعي النُّميريّ بالأعور الشَّنَيّ.

وأمّا عور ابن أحمر، فليس خَلْقيّاً، وإذا ما سألنا المصادر عن أسبابه، فإنّنا نقف على خبرين متباينين، أحدهما: رواه ابن الجرّاح، فقال: «أسلم، وغزا مغازي الروم، وأصيب بعينه هناك[1]، ورواه المَرْزُبانيّ، فقال: «غزا مغازي الروم، وأصيبت إحدى عينيه هناك»[2]، والخبر الآخر: رواه ابن قتيبة، فقال: «كان أعور، رماه رجل ـ يقال له: مَخْشِيّ ـ بسهم، فذهبت عينه»[3]، ورواه البطليوسيّ، فقال: «كان رماه رجل ـ يقال له: مخشِيّ ـ بسهم، ففقأ عينه»[4].

ويبدو أنّ الرأي الأوّل يبعد كثيراً، إذ ليس له ما يؤيّده في شعر ابن أحمر، وأمّا الرأي الآخر، فهو نتيجة استقراء واضحة فيما يقوله ابن أحمر نفسه[5]:

شَلَّتْ أَنامِلُ مَخْشِيٍّ، فلا اجْتَبَرَتْ ولا اسْتَعانَ بضاحي كَفِّهِ أَبَدا
أَصارَني سَهْمُهُ أَعْشى، وغادَرَهُ سَيْفُ ابْنِ أَحْمَرَ يَشْكو الرَّأْسَ والكَبِدا

وكان لهذه العلّة أثر جارح في نفسه، فقد كانت رميةً نافذةً، أصابت كبرياءه، وملأت فؤاده حسرةً وأسىً[6]:

ولا تَقولَنَّ زَهْواً ما تُخَبِّرُني لَمْ يَتْرُكِ الشَّيْبُ لي زَهْواً ولا العَوَرُ

وهذا الإحساس بالعور تفرّد به ابن أحمر، ولم نقف على أثر له في غير شعره، فإذا عوران قيس كانوا خمسة شعراء، فإنّ أصحابه الأربعة لم يكونوا البتّة يشعرون بالعور شعور ابن أحمر ذاته، وإنّما يرجع ذلك إلى أنّ هذه العلّة كانت

(1) من سمّي من الشعراء عمراً 56.
(2) معجم الشعراء 24، وعنه في الإصابة 3/ 112، وخزانة الأدب 3/ 39.
(3) الشعر والشعراء 356، وعنه في شرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134.
(4) الاقتضاب 434، وعنه في شرح شواهد الشافية 4/ 354.
(5) القصيدة 16/ 3 ـ 4.
(6) القصيدة 18/ 51.

خَلْقيّة فيهم، بينما نجدها طارئة على ابن أحمر، لا نملك وسيلةً إلى تحديد زمانها تحديداً دقيقاً واضحاً، ونظنّ أنّها كانت في مطلع شبابه، وهو في غمرة خلافه مع قومه.

وعلّة شاعرنا لم تكن العور فحسب، وإنّما يذكر ابن أحمر نفسه أنّ الماء الأصفر أصابه في شيخوخته، فعالجه بالكيّ والشُّكاعى[1]، فلم يبرأ، وتحت وطأة المرض وشدّته يتوسّل إلى اللّه منهكاً، يرجو البرء أو الموت[2]:

إِلَـيْـكَ ـ إِلَـهَ الـحَـقِّ ـ أَرْفَـعُ رَغْـبَـتـي عِـيـاذاً وخَـوْفـاً أَنْ تُـطـيـلَ ضَـمـانِـيـا
فإِنْ كـانَ بُـرْءاً، فـاجْـعَـلِ الـبُـرْءَ نِـعْـمَـةً وإِنْ كانَ فَيْضاً، فاقْضِ ما أَنْتَ قاضِيا
لِـقـاؤُكَ خَـيْـرٌ مِـنْ ضَـمـانٍ وفِـتْـنَـةٍ وقَـدْ عِـشْـتُ أَيّـامـاً، وعِـشْـتُ لَـيـالِـيـا
شَـرِبْـتُ الـشُّـكـاعـى، والْـتَـدَدْتُ أَلِـدَّةً وأَقْـبَـلْـتُ أَفْـواهَ الـعُـروقِ الـمَـكـاوِيـا

والرواة ينشدون هذا الشعر، ويقولون: كان ابن أحمر قد سُقي بطنه[3]، فلا يضيفون إلى ما قاله شيئاً، ولكنّ ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) يجعل هذا السقي سبباً لوفاته، فيقول: «سقي بطنه، فمات»[4]. فالسقي كان مرضه الذي مات فيه بعد أن بلغ عمراً طويلاً، وجرّب ـ على حدّ تعبيره ـ تسعين حجّةً، وبلّى أعمامه وأخواله.

والرواة أيضاً لم يتّفقوا على العهد الذي أدركه ابن أحمر، بل نجدهم

(1) الشُّكاعى: من دِقّ النبات، وهي دقيقة العيدان صغيرة خضراء، والناس يتداوون بها. انظر: اللسان، والتاج (شكع).

(2) القصيدة 60/ 6 ـ 8، 14.

(3) أدب الكاتب 119، والمعاني الكبير 1220، وسمط اللآلئ 778، والاقتضاب 342. وسُقي بطنه، وسَقى، واستسقى: حصل فيه الماء الأصفر، والسَّقْي والسِّقي: ماء أصفر يقع في البطن. انظر: اللسان، والتاج (سقي).

(4) الشعر والشعراء 356، وعنه في شرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134.

يسكتون عن سنة وفاته، والزِّرِكْليّ من المحدثين أوّل من يذهب إلى أنّه توفّي نحو 65هـ/ 685م[1]، فيجعل وفاته عام بايع أهل الشام عبدالملك بن مروان، ولعلّ خبراً في (الأغاني)، أوحى إليه بهذا الزعم، وهو ما يتفرّد الأصبهانيّ بروايته، فيقول: «أدرك الإسلام، وأسلم، وقال في الجاهليّة والإسلام شعراً كثيراً، ومن الخلفاء الّذين أدركهم عمر بن الخطّاب فمن دونه إلى عبدالملك بن مروان»[2]، وكأنّ الزِّرِكليّ لم يقف على ذاك الشعر الذي لم يقله ابن أحمر في ابن مروان، وإنّما قاله في يحيى بن الحكم بن أبي العاص واليه على المدينة سنة خمس وسبعين من الهجرة[3]، ليعرف أنّ حياة ابن أحمر امتدّت إلى ما بعد السنة الخامسة والستّين بعشر سنوات على أقلّ تقدير.

ثمّ نرى الدكتور رضوان محمّد حسين النجّار يذهب إلى أنّه «توفّي سنة 75 للهجرة تقريباً»[4]، فيجعل وفاة ابن أحمر على أعقاب شكواه إلى ابن أبي العاص، ويكون أقرب إلى الصواب.

وإذا كان الأصبهانيّ يجعل ابن أحمر يدرك ابن مروان، فإنّنا نجد رأياً آخر، يتفرّد به ابن الجرّاح، فيقول: «توفّي على عهد رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم»[5]، ثمّ نجد رأياً ثالثاً يتفرّد به أيضاً المَرْزُبانيّ، فيقول: «توفّي على عهد عثمان ـ رضي اللّه عنه ـ بعد أن بلغ سنّاً عاليـةً»[6].

ورأي ابن الجرّاح كرأي المرزبانيّ غريب، يطيح للوهلة الأولى بجملة

(1) الأعلام 5/ 72.

(2) الأغاني 2980، وعنه في الإصابة 3/ 112، وخزانة الأدب 3/ 39.

(3) تاريخ الطبريّ 6/ 202.

(4) القسم الأوّل من المستدرك على دواوين شعراء العرب المطبوعة 299.

(5) من سمّي من الشعراء عمراً 56، وأشار الناسخ في حاشية إلى أنّه توفّي على عهد «عثمان بن عفّان، رضي اللّه عنه».

(6) معجم الشعراء 24، وعنه في الإصابة 3/ 112، وخزانة الأدب 3/ 39، والتاج (فرص).

حقائق، نراها في حياة ابن أحمر وشعره، فإذا كان قد توفّي على عهد النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، أو على عهد عثمان، رضي اللّه عنه، فعثمان قُتل سنة خمس وثلاثين[1]، ونحن نجد لابن أحمر صلات بمن جاء بعده من الخلفاء، فقد ذكرنا أنّه قال شعراً في عليّ، كرّم اللّه وجهه، ثمّ هجا يزيد، وشكا ظلم السُّعاة إلى ابن أبي العاص والي ابن مروان على المدينة، وهذا الشعر لا يرقى إليه شكّ، بل لا نجد سبباً لإثارة أدنى شكّ حوله، فالرواة يتّفقون على أنّ ابن أحمر «ادّعي عليه أنّه هجا يزيد بن معاوية، فطلبه ابن حاطب، فأخذه، وقيّده، ثمّ أَفلت»[2]، وابن أحمر نفسه في قصيدته التي اختارها القرشيّ في (جمهرة أشعار العرب)[3] يصرّح أنّه كان في «الثماني من التسعين»[4] حين شكا ظلم السعاة إلى ابن أبي العاص، فإذا علمنا أنّ عبدالملك بن مروان قد ولّى ابن أبي العاص على المدينة سنة خمس وسبعين من الهجرة[5]، فإنّ ذلك يؤكّد أنّ ابن أحمر كان في حوالي التسعين من العمر على الأقلّ، والرواة يتّفقون مرّةً أخرى على أنّه كان شاعراً مخضرماً معمّراً، بلغ سنّاً عاليةً[6]، ويتفرّد ابن قتيبة عنهم بقوله في (الشعر والشعراء): «عُمّر تسعين سنةً»[7]، وفي (المعاني الكبير): «كان بلغ تسعين»[8]، وهو في شعره ينوّه بأنّه «شيخ شآم»[9]، «جرّب تسعين

(1) تاريخ الخلفاء 415، وتاريخ الطبريّ 4/ 365.

(2) كنز الحفّاظ 504، وانظر: تهذيب إصلاح المنطق 500، وكنز الحفّاظ 410، والاقتضاب 319 و402، والمشوف المعلم 65، وخزانة الأدب 3/ 38، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 130.

(3) انظر: جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 301 و(ط. البجاويّ) 842.

(4) القصيدة 18/ 40.

(5) تاريخ الطبريّ 6/ 202.

(6) معجم الشعراء 24، وعنه في الإصابة 3/ 112، وخزانة الأدب 3/ 39، والتاج (فرص).

(7) الشعر والشعراء 356.

(8) المعاني الكبير 1221.

(9) القصيدة 46/ 3.

(10) القصيدة 60/ 10.

حِجّةً»[1]، فيظلّ يتحسّر على أيّام شبابه، ويظلّ يندب ما يلاقيه من هرم وضعف وتقدّم مفرط في السنّ.

وفي هذا كلّه ما يشير إلى أنّ ابن أحمر لم يُقبض في عهد النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، ولا في عهد عثمان، رضي اللّه عنه، ولعلّ تحريفاً قديماً وتزيّداً واضحاً، أصاب عبارة المَرْزُبانيّ، فمن اليسير أن تختلط عبارة «ابن مروان» بـ «عثمان»، فيتداول نسّاخ معجمه هذا التحريف، ويتزيّدون بالرضا على عثمان، ثمّ ينقل ذلك عن (معجم الشعراء) ابن حَجَر في (الإصابة)[2] وعبدالقادر البغداديّ في (خزانة الأدب)[3] والمرتضى الزَّبيديّ في (تاج العروس)[4] إلاّ أنّ ابن حَجَر والبغداديّ يجدان أنّ ما قاله أبو الفرج يخالف قول المَرْزُبانيّ، ولكنّهما لم يكونا في معرض هذا البحث.

وهكذا لم يُقبض ابن أحمر في عهد النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، ولا في عهد عثمان، وإنّما امتدّت به الحياة إلى عهد عبدالملك بن مروان (73 ـ 86هـ)[5]، فإذا كنّا نرى ابن أحمر «شيخاً شَموساً «في «الثماني من التسعين» عام ولّي ابن أبي العاص المدينة أو بعده بقليل، ثمّ نراه يشكو سقياً، قضى عليه، و«قد جرّب تسعين حِجّةً»، فهذا يعني أنّه توفّي بعد ذلك عن عمر، يتراوح بين (90 و95) سنةً على الأقلّ، وإن اتفقنا على ذلك، فإنّنا نستطيع أن نقدّر وفاته بين (77 و82هـ/ 696 و701م).

إنّ حياة ابن أحمر لا تكاد تخرج عن النمط المألوف الذي يحياه بهدوء شاعر، قضى شطراً من حياته في الجاهليّة وشطراً في الإسلام، فنحن لم نجد

(1) الإصابة 3/ 112.
(2) خزانة الأدب 3/ 39.
(3) التاج (فرص).
(4) تاريخ الخلفاء 422، وتاريخ الطبريّ 6/ 431.

في جوانب تلك الحياة ما يمكن أن يميّز ابن أحمر من غيره بين الشعراء المخضرمين الذين كان لهم دور بارز في الدعوة الجديدة، أمثال: حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبداللّه بن رَواحة وعبداللّه بن الزِّبَعْرى وسواهم إلاّ أنّه يشمخ بمنزلة أدبيّة رفيعة، جعلته «يتقدّم شعراء أهل زمانه»[1].

4 ـ شخصيّته وثقافته:

إنّ شخصيّة ابن أحمر واضحة الجوانب، لا تكاد تخرج في إطارها العام عن النمط المألوف عند أهل البادية الذين لم يكن للتعقيد دور مهمّ في مجتمعهم وأثر بارز في نفوسهم، فقد كانوا بمنأى عن آثار الحضارة ومظاهرها، فظلّت طبائعهم جِلفةً جافيةً. وابن أحمر أعرابيّ، نشأ في بادية نجد، ثمّ ارتحل فترةً إلى الجزيرة، وتبدّل بالبداوة والرعي حياةً حضريّةً، لم يكن راضياً عنها، فاضطرّ أن يعود إلى موطنه حيث «النصرة» و«الشفقة» على حدّ تعبيره[2]. وإذا كانت وسائلنا إلى دراسة هذا الجانب من حياته شبه قاصرة بعد أن عرفنا أن ديوانه مفقود، وأنّ المصادر لا تسعفنا بأكثر أخباره، فليس لنا إلاّ أن نعتمد في هذا البحث ما يقوله ابن أحمر نفسه عن نفسه، وما يتراءى لنا من معالم، تضافرت في تكوين شخصيّته.

وهذا الجانب الأعرابيّ من شخصيّته يبرز واضحاً من خلال ألفاظ غريبة ومعان جافية، تبدو ظاهرةً، لفتت قدامى الباحثين إليها، فيراه غير واحد منهم «كثير الغريب»[3]، يذكر حروفاً، لم يأت بها غيره من الشعراء، ومنها: «كأس رَنَوْناة»، أي: دائمة، وذلك في قوله:

---

(1) المؤتلف والمختلف 44، وخزانة الأدب 3/ 38، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 135، وانظر: من سمّي من الشعراء عمراً 56.

(2) انظر: القصيدة 28/ 29 ـ 30.

(3) طبقات فحول الشعراء 580، ومعجم الشعراء 24، والإصابة 3 /112، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134.

بَـنَّـتْ عَـلَـيْـهِ الـمُـلْـكَ أَطْـنـابَـهـا كَـأْسٌ رَنَـوْنـاةٌ وطِـرْفٌ طِـمِـرْ[1]

وهذا الراعي النجديّ قد يمتح من صميم الصحراء وأعماقها معاني دقيقةً، قلّ من يعرفها، وأمثال هذا قوله[2]:

تَـلَـسَّـنَ أَهْـلُـهُ زَمَـنـاً عَـلَـيْـهِ رِمـاثـاً تَـحْـتَ مِـقْـلاتٍ نَـيُـوبِ

ونقل ثعلب وابن منظور عن ابن السِّكِّيت شرحه، فقال ثعلب: «هذا غريب، والمعنى فيه أنّهم أقاموا للناقة فصيلاً، ليستدرّ لبنها»[3]، وقال ابن منظور: «هذا معنى غريب، قلّ من يعرفه»[4]. وأمثال هذا لا يعرفه إلاّ من تبدّى، أو اختلف فترةً من الزمن إلى البادية، ولعلّ في هذا دليلاً على جفاء هذا الأعرابيّ وارتباطه الوثيق بحياة الصحراء.

وهذا الأعرابيّ أسلم، وحسُن إسلامه، فتهذّب بمكارم الأخلاق التي أتى بها هذا الدين الحنيف، ليتمّمها بين عرب الجزيرة، ولكنّ بقيّةً من جاهليّة ظلّت في نفسه، ولعلّ أبا زيد القرشيّ أوّل من نبّه على ذلك، إذ رأى في شعره شيئاً من معالم الإسلام وشيئاً آخر من آثار الجاهليّة في آن معاً، فجعل ابن أحمر من أصحاب المَشوبات التي اختارها في (جمهرته) من دواوين سبعة شعراء مخضرمين، وقال: «أصحاب المشوبات، وهنّ سبع اللائي شابهنّ الإسلام والكفر، وهم: النابغة نابغة بني جَعْدة، وكعب بن زهير، والقَطّاميّ التَّغْلبيّ، والحطيئة العبسيّ، والشَّمّاخ بن ضِرار الغطفانيّ، وعمرو بن أحمر، وتميم بن مُقْبل»[5]،

(1) القصيدة 35/ 9.
(2) القصيدة 5/ 4.
(3) مجالس ثعلب 320.
(4) اللسان (لسن)، وانظر: التاج (لسن).
(5) جمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 106، وانظر (ط. صادر) منه 81.

ومن الطبيعيّ أن نلاحظ ذلك عند هؤلاء الأعراب الذين نشأوا في بوادي نجد، وقضوا شطراً مهمّاً من حياتهم قبل الإسلام. فابن أحمر ما انفكّ يذكر مُثلاً جاهليّةً عدّةً كطلب الوِتر وشرب الخمر وزجر الطير وكالعصبيّة القبليّة بكلّ مظاهرها، وهو يذكر مجلس شراب واحداً قبل أن ينهاه الحِلْم والدِّيْن عن ذلك الرجس، وربّما أشار إلى شيء من اللهو والمجون، ولكنّه لا يصرّح به، وإنّما يورد ذلك من خلال لهو الملك الضلّيل ومجونه، وهو يتحدّث عمّا كان فيه من سفه الشباب، فيتراءى لنا ابن أحمر فتىً عابثاً، يستجيب لهوى نفسه ونوازعها، فلا يلوي على شيء من القيم قبل أن يعلم «ما ينفع ممّا يضرّ»[1]:

بَـلْ وَدِّعـيـنـي طَـفْـلَ إِنِّـي بَـكُـرْ فـقَـدْ دَنـا الـصُّـبْـحُ، فـمـا أَنْـتَـظِـرْ
أَنْ تَـغْـضَـبَ الـكَـأْسُ لِـمـا قَـدْ أَنَـتْ إِنَّ أَنـاةَ الـكَـأْسِ شَـيْءٌ نَـكِـرْ
إِنَّ امْـرَأَ الـقَـيْـسِ عَـلـى عَـهْـدِهِ فـي إِرْثِ مـا كـانَ أَبـوهُ حُـجُـرْ
بَـنَّـتْ عَـلَـيْـهِ الـمُـلْـكَ أَطْـنـابَـهـا كَـأْسٌ رَنَـوْنـاةٌ وطِـرْفٌ طِـمِـرْ
يَـلْـهـو بـهِـنْـدٍ فَـوْقَ أَنْـمـاطِـهـا وفَـرْتَـنـى تَـعْـدو إِلَـيْـهِ وهِـرّ
أَدَّى إِلـى هِـنْـدٍ تَـحِـيَّـاتِـهـا وقـالَ: هَـذا مِـنْ وَداعـي دُبُـرْ
إِنَّ الـفَـتـى يُـقْـتِـرُ بَـعْـدَ الـغِـنـى ويَـغْـتَـنـي مِـنْ بَـعْـدِ مـا يَـفْـتَـقِـرْ
والـحَـيُّ كـالـمَـيْـت، ويَـبْـقـى الـفَـتـى والـعَـيْـشُ فَـنّـانِ: فـحُـلْـوٌ ومُـرّ
هَـلْ يُـهْـلِـكَـنِّـي بَـسْـطُ مـا فـي يَـدي أَوْ يُـخْـلِـدَنِّـي مَـنْـعُ مـا أَدَّخِـرْ
ولَـنْ تَـرى مِـثْـلـيَ ذا شَـيْـبَـةٍ أَعْـلَـمُ مـا يَـنْـفَـعُ مِـمَّـا يَـضُـرّ

وابن أحمر دائم الحسرة على شبابه، بل توشك حسرته أن تكون توطئةً لأغلب أغراضه، فإذا ما شكا ظلم السُّعاة، فليس ثمّة تمهيد لشكواه إلاّ أن يندب

(1) القصيدة 35/ 4 ـ 5، 8 ـ 10، 13 ـ 17، 20.

شبابه[1]، وإذا ما كان بين يدي ممدوحه، فلن يجد مدخلاً إلى غايته سوى ذلك العهد الماضي[2]، وإذا ما ذكر مجلساً، حدّثنا عمّا فيه من سفه الصَّبا، فأوّل ما يأسى له شبابه الذي ولّى[3]:

بـانَ الـشَّـبـابُ، وأَخْـلَـفَ الـعُـمْـرُ وتَـنَـكَّـرَ الإِخْـوانُ والـدَّهْـرُ

وشاعرنا يشير إلى تعلّقه بغير امرأة أيّام شبابه، ولكنّ حديثه فيهنّ حديث عامّ، لا يصدر عن شاعر ماجن كامرئ القيس وطَرَفة في الجاهليّة وكعمر بن أبي ربيعة في الإسلام، وإذا ما تراءى لنا شيء من المجون، فإنّنا نجده غامضاً، يتستّر وراء لهو الملك الضلّيل وعبثه، فكأنّ ابن أحمر قد طُبع بالمدرسة النجديّة أجمل طبع وأرقّه. وابن أحمر لا يلحّ كثيراً على مظاهر شبابه، ولا يصرّ على ما نجده في شعره من إرث الجاهليّة، فقد تهذّب بمكارم الأخلاق أحسن تهذيب، وآمن بالدين الجديد أعمق الإيمان، فهو رجل شهم ذو نجدة ومروءة، لا تخونه الفعال الحسنة والوَفْر الواسع، إذا ما استغاثت به الرِّكاب[4]:

لَـوْ بـي تَـحَـمَّـسَـتِ الـرِّكـابُ إذاً مـا خـانَـنـي حَـسَـبـي ولا وَفْـري

وديوان العرب سيظلّ يحفظ لهذا الشاعر موقفاً فذّاً في وجه السُّعاة الذين أهلكت سياطهم الناس ذلاً وجَوراً، فقد قام بحاجة هؤلاء المقهورين خير قيام، وكان صوت الحقّ في وجه سلطان جائر، أنذره ابن أحمر بالشدائد من الأيّام، وتوعّده برجال شجعان، أخلصوا أنفسهم لله، وسخّروها للحقّ[5]:

إِنِّـي أَعـوذ بـمـا عـاذَ الـنَّـبِـيُّ بِـهِ وبـالـخَـلـيـفَـةِ أَنْ لا تُـقْـبَـلَ الـعُـذَرُ

(1) انظر: القصيدة 18/ 1.
(2) انظر: القصيدة 19/ 1.
(3) القصيدة 20/ 1.
(4) القصيدة 25/ 20.
(5) القصيدة 18/ 31 ـ 39.

مِنْ مُتْرَفيكُمْ وأَصْحابٍ لَنا مَعَهُمْ لا يَعْدِلونَ، ولا نَأْبى، فنَنْتَصِرُ
فإِنْ تُقِرَّ عَلَيْنا جَوْرَ مَظْلَمَةٍ لَمْ تَبْنِ بَيْتاً عَلى أَمْثالِها مُضَرُ
لا تَنْسَ يَوْمَ أَبي الدَّرْداءِ مَشْهَدَنا وقَبْلَ ذَلِكَ أَيَّامٌ لَنا أُخَرُ
مَنْ يُمْسِ مِنْ آلِ يَحْيى يُمْسِ مُغْتَبِطاً في عِصْمَةِ الأَمْرِ ما لَمْ يَغْلِبِ القَدَرُ
وَرّادَةٌ يَوْمَ بَعْثِ المَوْتِ رايَتُهُمْ حَتّى يَفيءَ إِلَيْها النَّصْرُ والظَّفَرُ
مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ هُمُ لِلّهِ خالِصَةٌ قَدْ صَعَّدوا بزِمامِ الأَمْرِ، وانْحَدَروا
كَأَنَّهُ صُبْحَ يَسْري القَوْمِ لَيْلَهُمُ ماضٍ مِنَ الهِنْدُوانِيّاتِ مُنْسَدِرُ
يَعْلو مَعَدّاً، ويُسْتَسْقى الغَمامُ بِهِ بَدْرٌ تَضاءَلُ فيهِ الشَّمْسُ والقَمَرُ

فيبدو أنّه شيخ شَموس عَسِر في عداوته شديد الخلاف على من عانده حتّى يُقرّ الحقّ، ويرفع الظلم، وهو يشير إلى ذلك، فيقول[1]:

شَيْخٌ شَموسٌ إِذا ما عَزَّ صاحِبُهُ شَهْمٌ وأَسْمَرُ مَحْبوكٌ لَهُ عُذُرُ

لذلك نراه يحرص على ألاّ يدخل في مهاجاة حتّى قال الأصمعيّ: «ابن أحمر لم يهاج أحداً»[2]، فإذا وجدنا ابن أحمر يعرّض «برجل كان يشتمه، ويعيبه، يقال له: سفيان»[3]، فهذا التعريض لم يكن ليبلغ سوى حدّ السخريّة والمَهانة، ويقول[4]:

نُبِّئْتُ سُفْيانَ يَلْحانا، ويَشْتِمُنا واللّهُ يَرْفَعُ عَنّا شَرَّ سُفْيانا
فِداكَ كُلُّ ضَئيلِ الجِسْمِ مُخْتَشِعٌ وَسْطَ المَقامَةِ يَرْعى الضَّأْنَ أَحْيانا
تُهْدي إِلَيْهِ ذِراعَ الجَدْيِ تَكْرِمَةً إِمّا ذَبيحاً وإِمّا كانَ حُلّانا

(1) القصيدة 18/ 21.
(2) فحولة الشعراء 17.
(3) التنبيه والإيضاح 1/ 235، وعنه في اللسان (ذبح).
(4) القصيدة 57/ 1 ـ 4.

عِيطٌ عَطابيلُ لُثْنَ الرَّيَّ، وابْتَذَلَتْ مَعاطِفاً سابِرِيّاتٍ وكَتّانا

وإذا خاصم في ضِجاج مُضِلاّ، فإنّه يدعه، ولا يلتفت إلى مجادلته[1]:

وخَصْمٍ مُضِلٍّ في الضِّجاجِ تَرَكْتُهُ وقَدْ كانَ ذا شَغْبٍ، فوَلَّى مُواتِيا

فأخلاقه تأبى أن يدخل في نَفْرَة، قد تحطّ من حسبه ووفره، وتهلك حيّاً ذا عدد وقَدْر[2]:

تَقَلَّدْتُ إِبْريقاً، وعَلَّقْتَ جَعْبَةً لِتُهْلِكَ حَيّاً ذا زُهاءٍ وجامِلِ

فلا تَحْسَبَنِّي مُسْتَعِدّاً لنَفْرَةٍ وإِنْ كُنْتُ نَطّاطاً كَثيرَ المَجاهِلِ

وهو ليس بجبان، ولكنّه يخشى بوائق الدهر وصروفه، ومتى حاولت يد الحدثان أن تنال من عرضه، فإنّه لا يستكين لها، ولا يلين[3]:

ولَسْتُ بهَيْرَعٍ خَفِقٍ حَشاهُ إِذا ما طَيَّرَتْهُ الرِّيْحُ طارا

ولَسْتُ بعِرْنَةٍ عَرِكٍ سِلاحي عَصاً مَثْقوبَةً تَقِصُ الجِمارا

ولا يُنْسِينِيَ الحَدَثانُ عِرْضي ولا أُلْقي مِنَ الفَرَحِ الإِزارا

فابن أحمر ليس رجلاً هِداناً، يهاب الشدائد، ولكنّه حريص على ألاّ تصغر نفسه أمام عداوة، لا طائل فيها، ولا شكّ في أنّ ابن أحمر قد جُبل على تلك السجايا الرفيعة والأخلاق الكريمة حتّى كأنّه يراها مزيّةً، تسمق بالشاعر، ومن هنا ندرك معنى اختياره زهيرَ بنَ أبي سُلْمى أشعر الناس، فكأنّه يشاكله في هذه الأخلاق، ويقول أبو زيد القرشيّ: «قال ابن أحمر: زهير أشعر الناس»[4].

---

(1) القصيدة 60/ 37.

(2) القصيدة 47/ 1 ـ 2.

(3) القصيدة 32/ 19 ـ 21.

(4) جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 80، والعمدة 1/ 97، والمزهر 2/ 481، وجاء في (ط. البجاويّ) من الجمهرة 105: «قال العجّاج: زهير أشعر الناس». وأشار المحقّق في حاشية إلى أنّ ثمّة أصولاً أخرى منه عزت هذا القول إلى ابن أحمر، فقال: «هذا في ع، وفي النسخ الأخرى: =

وهذه الجِبلّة التي طبعت على الحقّ والخير جعلت شاعرنا يرغب عن النفاق في صلته برجال عصره، فتصدّى لسُعاة والي المدينة، وتعرّض ليزيد بن معاوية الذي أُخذت له البيعة بالمكر والعنف. والرواة لم ينشدوا له غير مِدْحة واحدة في النعمان بن بشير الأنصاريّ، لا نكاد نجد فيها أثراً للمداجاة ولا للمصانعة التي يراها الدكتور عبدالحفيظ السَّطْلي في كلامه عن العجّاج «ظاهرةً طبيعيّةً في تلك الفترة، لأنّ تقلّب الأحداث السياسيّة بسرعة والصراع العنيف بين الطامحين إلى الحكم والسلطان ـ ولا سيّما في العراق ـ قد جعل أمثال العجّاج يرهبون أن تدور الدائرة عليهم أو على قومهم في ظروف، لم تكن لها سابقة في تاريخ القبائل»[1].

ولعلّ ابن أحمر كان على شيء من اليُسر، وهو يذكر غير مرّة أنّه صاحب رعي ورِكاب، فلم يكن يسعى إلى جاهٍ ولا مال مثل بعض شعراء عصره.

وهكذا نرى أنّ شخصيّة ابن أحمر متعدّدة الجوانب واضحة المعالم مألوفة السجايا، تضافرت في تكوينها عدّة عناصر، كان من أهمّها: نشأته في نجد نشأةً أعرابيّةً في قوم، كادوا يخلعونه في شبابه، ثمّ كان صوتهم الأقوى في شيخوخته، ومنها ما كان وليد العاهة والمرض، ومنها ما كان وليد الحياة الاجتماعيّة والدينيّة والسياسيّة التي عاصرها في الجاهليّة والإسلام.

وهذه العناصر ضربت جذورها في أعماق نفسه، فلم يستطع الواقع الجديد في الجزيرة أن يترك أثراً كبيراً في تلك النفس، أو أن يغيّر شيئاً من ثقافته الأعرابيّة، ولهذا نرى أنّ لسانه زلّ في التعبير عن مظهر من مظاهر تلك الحياة

= قال ابن أحمر». وكان عمر بن الخطّاب ـ رضي اللّه عنه ـ يرى أنّ ابن أبي سُلْمى أشعر الشعراء، لأنّه «كان لا يعاظِل بين القول، ولا يتّبع حُوْشيّ الكلام، ولا يمدح الرجل إلاّ بما فيه» الشعر والشعراء 138، وانظر: الأغاني 3753.

(1) العجّاج: حياته ورجزه 92.

الجديدة التي لا تتّصل بحياة الأعراب، فقد أخذ عليه العلماء قوله في وصف امرأة[1]:

لَمْ تَدْرِ ما نَسْجُ اليَرَنْدَجِ قَبْلَها ودِراسُ أَعْوَصَ دارِسٍ مُتَخَدِّدِ

فظنّ ابن أحمر أنّ اليرندج ممّا يُنسج، وإنّما هو جلود سود، تُعمل منها الخِفاف، وهذا الخطأ أخذه عليه عدد من النقّاد، أمثال: ابن السِّكِّيت وابن قتيبة وابن عبدربّه والأزهريّ والجرجانيّ وأبي هلال العسكريّ والسيوطيّ وغيرهم[2].

فثقافة ابن أحمر توشك أن تقتصر على الحياة الأعرابيّة التي عاشها في نجد، ومنها انتقلت إليه الفصاحة قبل أن ينزل الجزيرة حتّى قال أبو عمرو بن العلاء: «كان ابن أحمر في أفصح بقعة من الأرض أهلاً: يَذْبُلَ والقَعاقِعَ»[3]، فقد تهيّأت له سبل الفصاحة، فأمكن له أن يكون «صحيح الكلام كثير الغريب»[4]، ثمّ يكون «الشاعر الفصيح» الذي «يتقدّم شعراء أهل زمانه»[5]، و«يُستشهد على اللغة بشعره كثيراً»[6]، فكانت فصاحته من أبرز ما تميّزت به شخصيّته وثقافته، وما ذلك إلاّ لأنّ هذه الثقافة كانت أعرابيّة الطابع، تستمدّ مظاهرها من البادية والصحراء، فنرى ابن أحمر عالماً بحياة الأعراب، خبر البادية بكلّ أفنانها، وعرف الصحراء بكلّ أكنافها، ومن ذلك قوله[7]:

---

(1) القصيدة 14/ 18.

(2) الحروف 100، والشعر والشعراء 359، والعقد الفريد 5/ 360، وتهذيب اللغة 12/ 359، والوساطة 14، والصناعتين 79، والمزهر 2/ 502.

(3) الشعر والشعراء 359، وعنه في شرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134.

(4) طبقات فحول الشعراء 580، ومعجم الشعراء 24، والإصابة 3/ 112، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134.

(5) المؤتلف والمختلف 44، وخزانة الأدب 3/ 38، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 135، وانظر: من سمّي من الشعراء عمراً 56.

(6) المرصّع 65.

(7) القصيدة 28/ 18 ـ 21.

فلَمّا غَسا لَيْلي وأَيْقَنْتُ أَنَّها هِيَ الأُرَبى جاءَتْ بأُمِّ حَبَوْكَرا
وأَفْلَتُّ مِنْ أُخْرى تَقاصَرَ طَيْرُهُ عَشِيَّةَ أَدْعو بالسِّتارِ المُجَبِّرا
فَزِعْتُ إِلى القَصْواءِ، وَهْيَ مُعَدَّةٌ لِأَمْثالِها عِنْدي إِذا كُنْتُ أَوْجَرا
كَثَوْرِ العَدَابِ الفَرْدِ يَضْرِبُهُ النَّدى تَعَلَّى النَّدى في مَتْنِهِ، وتَحَدَّرا

فقد شبّه ما وقع فيه من حبائل الأمور بأعظم الدواهي، ولكنّه بثقافته الأعرابيّة أدرك أن أقوى الصواعق ما تجعل الطير يتضاءل من وقعها، وفي ذلك قال ابن قتيبة: «الطير تَقاصر من حسن الصاعقة»[1]، ولهذا جعل نفسه تفلت «من أخرى تقاصر طيرها»، فيفزع إلى ناقته القصواء، فيشبّهها في نشاطها وقوّتها وسرعتها بثور وحشيّ، ولا يكتفي بذلك، بل يجعل هذا الثور من العَداب، أي: الرمل المستدقّ الليّن، لأنّه يعرف أنّ بقر الوحش تلوذ به، وفي ذلك يقول الطَّيالِسيّ: «خصّه، لأنّ بقر الوحش تألفه لخصبه وخوفاً من القانص، فإذا ما جاءها القانص اعتصمت بركوب الرمل، فلا تقدر الكلاب عليها»[2].

وإذا ما هجا بني أَعيا في رواية أو بني سَهْم في رواية أخرى، فإنّه يعيب عليهم لؤمهم، ويستمدّ من البيئة البدويّة صورةً طريفةً، تليق بهم، فيراهم كالعنز التي ترتضع من خِلْفها، ويقول[3]:

إِنِّي وَجَدْتُ بَني أَعْيا وجامِلَهمْ كالعَنْزِ تَعْطِفُ رَوْقَيْها، فتَرْتَضِعُ

ولم يكن ابن أحمر عالماً بطباع الحيوان فحسب، وإنّما كان عالماً بالأنواء والرياح في هذه الصحراء، ويكاد يهجِس بالحديث عنها، وما ينفكّ يذكر أنواعها كالشمال والدَّبُور والصَّبا والجنوب والجِرْبِيَاء وسوى ذلك، وتمدّه بيئته بصورها

(1) المعاني الكبير 860.
(2) الاقتضاب 319.
(3) القصيدة 38/ 1.

الرائعة وأوقاتها المختلفة وأوصافها المتنوّعة.. ولذلك أمكن لثقافة ابن أحمر أن تسعفه برصد الفلك، وهو نفسه يذكر أنّه كان يراقب النجم حتّى غيابه، ويقول[1]:

أُراقِبُ النَّجْمَ، كَأَنّي مُوْلَعٌ بحَيْثُ يَجْري النَّجْمُ حَتّى يَقْتَحِمْ

وهذا الاهتمام بمواعيد النجوم ومواقفها أمر لا يستغرب من شاعر جاهليّ أو مخضرم، إذا تحدّث عنه، لأنّ هذه الأمور من أهمّ مستلزمات حياة العرب قبل الإسلام حتّى وجد القرآن الكريم القسم بمواقع النجوم قسماً عظيماً، لا يستهان به، ولولا اهتمامهم بهذا الموضوع وارتباطه بحياتهم، لما أقسم القرآن به، ونبّه على أسماعهم أنّه قسم عظيم[2].

وأمثال هذه الظواهر كثير ومتنوّع في ثقافة ابن أحمر الأعرابيّة، ولسوف نرى في دراستنا موضوعاته وخصائص شعره جوانب أخرى منها، لا تخلو من مؤثّرات البيئة الحضريّة الّتي ارتحل إليها فترةً وجيزةً من الزمن، ومن ذلك قوله في مجلس غناء[3]:

وجَرادَتانِ تُغَنِّيانِهُمُ وتَلأْلأَ المَرْجانُ والشَّذْرُ
ومُجَلْجَلٌ دانٍ زَبَرْجَدُهُ حَدِبٌ كما يَتَحَدَّبُ الدَّبْرُ
وَنَّانِ حَنَّانانِ بَيْنَهما وَتَرٌ أَجَشُّ غِناؤُهُ زَمْرُ

فذكر قياناً وأحجاراً كريمةً وعوداً وصَنجاً.

---

(1) القصيدة 54/ 4.

(2) قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ سورة الواقعة 56/ 75 ـ 78، وقوله: (فلا أقسم): لا زائدة، أي: أقسم بمواقع النجوم، وانظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم 688 وما بعدها.

(3) القصيدة 20/ 19 ـ 21.

ومن ذلك قوله في المعاطف السابريّات[1]:

عِيْطٌ عَطابيلُ لُثْنَ الرَّيَّ، وابْتَذَلَتْ مَعاطِفاً سابِرِيَّاتٍ وكَتّانا

فذكر السابريّات، وهي من أرقّ الثياب وأجودها.

وإذا كانت هذه الثقافة تستمدّ مظاهرها من الصحراء والبادية، ولا تخلو من مؤثّرات البيئة الحضريّة، فإنّ ثمّة مصدراً مهمّاً، ينبغي أن نشير إليه، وهو القراءة، فأغلب الظنّ أنّ ابن أحمر كان يعرف القراءة والكتابة، فهو «يصف صحيفةً، كتبها»[2]، ويقول[3]:

إذا جاءَ مِنْهُمْ قافِلٌ بصَحيفَةٍ يَكونُ عَناءً ما يُنَبِّقُ عانِيا

وتَعْرِفُ في عُنْوانِها بَعْضَ لَحْنِها وفي جَوْفِها صَمْعاءُ تُبْلي النَّواصِيا

ويذكر كتباً، ويقول[4]:

أَمْ لا نَزالُ نُرَجِّي عيشَةً أُنُفاً لَمْ تُرْجَ قَبْلُ، ولَمْ يُكْتَبْ بِها زُبُرُ

ولعلّ من أوضح هذه الإشارات إلى ذلك قوله في حاجب[5]:

وحاجِبٍ كالنُّونِ فيه بَسْطَةٌ أَجادَهُ الكاتِبُ خَطّاً بالقَلَمْ

وكلّ ذلك يجعلنا نعتقد أنّ ابن أحمر كان ممّن يقرأ ويكتب، فتكون قراءته مصدراً من مصادر ثقافته وسمةً أخرى من سمات شخصيّته.

(1) القصيدة 57/ 4، وانظر: القصيدة 42/ 1.
(2) الأضداد 240.
(3) القصيدة 60/ 29 ـ 30.
(4) القصيدة 18/ 4، وانظر: القصيدة 12/ 2.
(5) القصيدة 54/ 3.

5 ـ منزلته الأدبيّة :

جعلت هذه الشخصيّة الأعرابيّة شاعرنا الباهليّ في طليعة الأعلام من أهل الشعر الذين خاضوا بحره، وبَعُد فيه شأنهم، فإذا ما سأل أبو حاتم أستاذه الأصمعيّ عن منزلة ابن أحمر بين الفحول من الشعراء قال: «قلت: فابن أحمر الباهليّ؟ قال: ليس بفحل، ولكنّه دون هؤلاء الفحول وفوق طبقته»[1]. وأمّا ابن سلاّم الجُمَحيّ في (طبقات فحول الشعراء)[2]، فيجعله في الطبقة الثالثة من الإسلاميّين خاصّةً، ويجدهم أربعةً، هم : كعب بن جُعيل التغلبيّ، فعمرو بن أحمر الباهليّ، فسُحيم بن وَثِيل الرِّياحيّ، وأوس بن مَغْراء السَّعْديّ، ثمّ يرى أنّ ابن أحمر مقدَّم على ابن وثيل، فيقول: «عمرو بن أحمر مقدّم في الشعر على سحيم بن وثيل، وسحيم أشرف منه»[3].

ويجعل أبو عبيدة ابن أحمر في الطبقة الثالثة من الشعراء عامّةً، وينقل أبو زيد القرشيّ رأيه هذا، فيقول: «ذكر أبو عبيدة من الطبقة الثالثة من الشعراء: المُرَقِّش، وكعب بن زهير، والحطيئة، وخِداش بن زهير، ودريد بن الصِّمَّة، وعنترة، وعروة بن الورد، والنَّمِر بن تَوْلَب، وعمرو بن أحمر، والشَّمَّاخ. قال المفضّل: فهؤلاء فحول شعراء أهل نجد الذين ذمّوا، ومدحوا، وذهبوا بالشعر كلّ مذهب»[4]. ثمّ يختار القرشيّ نفسه من شعره قصيدةً، يراها «من عيون

(1) فحولة الشعراء 12، وعنه في الموشّح 119، وسأل أبو حاتم أستاذه الأصمعيّ: «ما معنى الفحل؟ قال: يريد أنّ له مزيّةً على غيره كمزيّة الفحل على الحِقَاق» فحولة الشعراء 9. والحقاق: جمع حِقّ، وهو من الإبل: الداخل في السنة الرابعة.

(2) طبقات فحول الشعراء 571.

(3) شرح أبيات المغني 2/ 134، والمطبوع من (طبقات فحول الشعراء) أخلّ بقول ابن سلاّم الذي نقله البغداديّ عن الكتاب نفسه.

(4) جمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 107، وانظر: (ط. صادر) منه 81.

أشعار العرب في الجاهليّة والإسلام»[1]، ويرويها في (مشوبات العرب) من (جمهرته).

وإذا كان الأصمعيّ يراه «فوق طبقته»، فإنّ ثمّة ناقدين آخرين، يقاربانه الرأي، وهما ابن الجرّاح والآمديّ، وأمّا الأوّل، فقد قال: «شاعر فصيح مُقدّم على جميع نظرائه في فنون الشعر وغريبه»[2]، وأمّا الآخر، فقد قال: «كان يتقدّم شعراء أهل زمانه.. وقد ذكرت حاله وأشعاره مع الشعراء المشهورين»[3]، ولعلّهم بذلك يضعونه على رأس طبقة الشعراء المخضرمين الذين نعرف من فحولها: الحطيئة والأعشى والنابغة الجَعْديّ وكعب بن زهير وغيرهم. وهذه المكانة الرفيعة الّتي تبوّأها ابن أحمر كانت موضع اهتمام أهل اللغة والأدب، فصُنع ديوانه، واستُشهد بشعره حتّى لا يكاد مصدر من المصادر يخلو من شعره.

(1) جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 81 و(ط. البجاويّ) 107.

(2) من سمّي من الشعراء عمراً 56.

(3) المؤتلف والمختلف 44، وعنه في خزانة الأدب 3/ 38، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 135.

الفصل الثالث

ديوان ابن أحمر ومصادر شعره

1 ـ الديوان:

إنّ أرزاء الدهر ومصائبه أتت على جُلّ تراثنا العربيّ، فلم ينته إلينا ممّا قالت العرب إلاّ أقلّه، وديوان ابن أحمر غيض من فيض، ما يزال في ذمّة التاريخ. وقد طلبت ذلك السِّفْر من ديوان العرب في فهارس كثير من مكتبات الشرق والغرب، فما وقفت له على أثر، ولكنّنا نجد في كتب اللغة والتراجم والأدب إشارات إليه، تأخذ بالظهور من أوائل القرن الثالث (الأصمعيّ 217هـ) إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجريّ (المرتضى الزَّبيديّ 1205هـ)، وإذا كانت هذه الإشارات لا تسفر عمّن صنع ديوان ابن أحمر، فإنّ في أقدمها دلالةً مهمّةً على أنّ ثمّة عالماً من العلماء والرواة الأوائل قد عمله في جملة ما عُمل من دواوين الشعر العربيّ، فأبو سعيد السيرافيّ (368هـ) في تعليقه على بيت لابن أحمر يقول: «وهذا قول أظنّ الأصمعيّ قاله في تفسير شعره»[1]، فيوحي إلينا

(1) ضرورة الشعر 86.

هذا القول أنّ الأصمعيّ قد روى شعر ابن أحمر وشرحه على عادته في صنع ديوان العجّاج وغيره، ثمّ نجد ابن خَيْر الإشبيليّ يذكر سندين متّصلين لرواية الديوان، انتهى بهما إلى أبي عليّ القاليّ (356هـ) الذي قرأ شعر ابن أحمر على ابن دريد (321هـ) عن أبي حاتم (255هـ) عن الأصمعيّ[1]، ولكنّ مَنْ ترجم للأصمعيّ لا يشير في جملة مصنّفاته إلى هذا، فيبقى الأمر مجرّد ظنّ، ليس له ما يؤيّده، أو يجعله يقيناً حتّى يكشف الزمان عن نسخة مخطوطة من ديوانه.

وفي الإشارات التي وجدناها يأخذ مصطلحا (ديوان) و(شعر) معنىً واحداً، لأنّ المصادر القديمة في أغلب الأحيان لم تكن لتميّز بينهما تمييزاً دقيقاً، وأقدم هذه الإشارات ما رواه أبو أحمد العسكريّ (382هـ) بسنده، فقال في مجلس: «أخبرني محمّد بن يحيى، أخبرنا أبو ذَكْوان، حدّثنا موسى بن سعيد بن سَلْم قال: كان ابن الأعرابيّ يُؤدّبنا، فدخل الأصمعيّ، ونحن نقرأ شعر ابن أحمر:

أَغَدْواً واعَدَ الحَيُّ الزِّيالا لِوَجْهٍ، لا يُرِيدُ بِهِ بِدالا

إلى أن بلغنا إلى قوله:

أَرى ذا شَيْبَةٍ حَمّالَ ثِقْلٍ وأَبْيَضَ مِثْلَ صَدْرِ السَّيْفِ نالا

فقال الأصمعيّ: بالا، فصاح ابن الأعرابيّ: نالا، نالا، بالنون من النوال، فقال الأصمعيّ لنا: إنّ الشاعر قد فرَغ من هذا، فقال: فيهم حمّال ثقل، وهو الذي يُنيل، ويعطي، وفيهم شابّ مثل صدر السيف بالاً، أي: حالاً، وهو كالسيف في حاله وبأسه»[2]، وأضاف العسكريّ في المجلس ذاته: «حدّثني

(1) انظر: فهرست ابن خير 393.

(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف 1/ 189، وانظر: التنبيه على حدوث التصحيف (ط. طلس) 84 و(ط. آل ياسين) 140، وراجع: القصيدة 48/ 1، 25.

يَمُوت بن المُزَرَّع عن أبي أُمامة الباهليّ ـ وحضر المجلس ـ أنّ ابن الأعرابيّ افتُضح بهذا، ثمّ احتال، فأحضر نسخةً، فيها شعر عمرو بن أحمر، وقد غيّر البيت الأوّل منها، فجعله:

أَغَــدْواً واعَــدَ الــحَــيُّ الــزِّيــالا وشَـوْقـاً، لا يُـبـالـي الـعَـيْـنَ بـالا

ثمّ قال: معنى الأصمعيّ صحيح، ولكن كيف يُردّد ابن أحمر قافيتين في قصيدة، فزادت فضيحتهم لضعف المصراع الذي غيّروه وإحالة معناه»[1]. ففي الخبر الأوّل إشارة واضحة إلى أنّ ثمّة كتاباً، يُقرأ في ذلك المجلس، وأمّا الخبر الثاني، فيدلّ دلالةً صريحةً على نسخة لابن الأعرابيّ من ديوان ابن أحمر.

ويبدو أنّ العسكريّ نفسه قد قرأ شعر ابن أحمر على ابن دريد (321هـ)، ويدلّ على ذلك قوله: «قرأت عليه في شعر ابن أحمر:

حَتّى إِذا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ صَبَّحَها أَضْري ابْنِ قُرّانِ باتَ الوَحْشَ والعَزَبا»[2].

وإذا كان بروكلمان يذهب إلى أنّ (جمهرة أشعار العرب) قد «جُمعت في أواخر المئة الثالثة للهجرة»، ثمّ «تمّ تأليفها في ملتقى القرنين الثالث والرابع للهجرة»[3]، فإنّنا نرى أنّ جامعها أبا زيد محمّد بن أبي الخطّاب القرشيّ الذي ليس له أدنى ذكر في جميع كتب الطبقات والرجال، قد يكون اطّلع في تلك الحقبة من الزمن على ديوان ابن أحمر، وأخذ منه قصيدةً رائيّةً، جعلها في

(1) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف 1/ 190، وانظر: القصيدة 48/ 1.
(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف 1/ 463، وانظر: القصيدة 8/ 6.
(3) تاريخ بروكلمان 1/ 75، والدكتور ناصر الدين الأسد يرى أنّ صاحب (الجمهرة) عاش قبل منتصف القرن الخامس، لأنّ ابن رشيق روى عنه في (العمدة)، وابن رشيق مات سنة 463 من الهجرة، ويجعل الزِّرِكْليّ وفاته سنة 170 من الهجرة، وانظر: مصادر الشعر العربيّ 586 و588، والأعلام 6/ 114.

(مَشُوبات العرب) من (جمهرته) التي اختارها «غُرراً هي العيون من أشعارهم وزمام ديوانهم»[1].

وفي القرن الرابع الهجريّ نجد ابن جنّيّ (392هـ) ينظر في ديوان ابن أحمر، فهو يروي ما أنشده أبو زيد[2]:

كَـأَنَّـهـا بـنَـقـا الـعَـزّاف طـاوِيَـةٌ لَمّا انْطَوى بَطْنُها، واخْرَوَّطَ السَّفَرُ
مـارِيَّـةٌ لُـؤْلُـؤَانُ الَّـلـوْنِ أَوَّدَهـا طَـلٌّ، وبَـنَّـسَ عَـنْـهـا فَـرْقَـدٌ خَـصِـرُ

ثمّ يقول: «لم يسند أبو زيد هذين البيتين إلى ابن أحمر، ولا هما أيضاً في ديوانه»[3].

وفي القرن الخامس الهجريّ يتثبّت أبو عبيد البكريّ الأندلسيّ (487هـ) من رواية بيت في شعره الذي حمله أبو علي القاليّ (356هـ) إلى الأندلس، ويقول: «قال ابن أحمر:

تَـتَـبَّـعُ أَوْضـاحـاً بـسُـرَّةِ يَـذْبُـلٍ وتَـرْعى هَـشـيـمـاً مِـنْ حُـلَـيْـمَـةَ بـالِـيـا

هكذا ثبتت روايته عن أبي عليّ في شعر ابن أحمر»[4].

وفي أواخر القرن ذاته كان شعره بين يدي الخطيب التَّبْريزيّ (502هـ) حين هذّب كتاب ابن السِّكِّيت (الألفاظ)، وروى ما أنشده لابن أحمر: «لَبّ بأرضٍ لا تَخَطّاها الحُمُرْ»، ثمّ قال: «وفي شعره: لا تَخَطّاها الغَنَمْ»[5].

وفي القرن السادس الهجريّ نجد عدّة إشارات إلى الديوان لدى البَطَلْيَوسيّ (521هـ) وابن الشجريّ (542هـ) وابن خَيْر (575هـ) وابن بَرّيّ

(1) جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 9 و(ط. البجاويّ) 1.
(2) القصيدة 18/ 7 ـ 8.
(3) الخصائص 2/ 24.
(4) معجم ما استعجم 465، وانظر: القصيدة 60/ 25.
(5) كنز الحفّاظ 446، وانظر: القصيدة 54/ 2.

(592هـ). فالبَطَلْيَوْسيّ في (الاقتضاب) روى ما أنشده ابن قتيبة في (أدب الكاتب)[1]:

تُسائِلُ بابْنِ أَحْمَرَ مَنْ رآهُ أَعارَتْ عَيْنُهُ، أَمْ لَمْ تَعارا

ثمّ قال: «البيت لعمرو بن أحمر، ووقع في شعره: ورُبّتَ سائلٍ عنّي حَفِيٍّ»[2].

وابن الشجريّ في (الأمالي) روى هذا البيت:

عَلى حَيَّيْنِ في عامَيْنِ شَتّا فَقَلَّ غِناؤُنا بِهِما وطالا

ثمّ قال: «لا يجوز أن تكتب (شتّا) ههنا بالياء كالتي في قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[3]، لأنّ ألف (شتّا) في البيت ضمير، و(شَتّى) في الآية اسم على (فعْلى) جمع شَتيت كقتيل وقتلى، وإنّما ذكرت هذا، لأنّي وجدته في نسخة بالياء»[4].

وابن خَيْر الإشبيليّ في (الفهرست) يطالعنا بنصّ جدّ ثمين، يبيّن أنّ ديوان ابن أحمر قد وصل إليه بسندين مختلفين، مصدرهما معاً أبو علي القاليّ (356هـ) الذي حمل ديوان ابن أحمر إلى الأندلس فيما حمله من دواوين العرب[5]، فيقول: «شعر عمرو بن أحمر الباهليّ، حدّثني به الوزير أبو عبداللّه جعفر بن محمّد بن مكّي عن الوزير أبي مروان عبدالملك بن سراج عن أبي سهل الحرّانيّ، وحدّثني به أيضاً الشيخ أبو بكر محمّد بن عبدالغنيّ بن فندلة عن الأستاذ أبي الحجّاج يوسف بن سليمان الأعلم عن أبي سهل يونس بن أحمد

(1) القصيدة 32/ 17.
(2) الاقتضاب 434.
(3) سورة الحشر 59/ 14.
(4) الأمالي لابن الشجريّ 1/ 141، وانظر: القصيدة 48/ 19.
(5) انظر: فهرست ابن خير 397.

الحرّانيّ المذكور عن أبي عمر بن أبي الحباب عن أبي عليّ البغداديّ، قال: قرأته على أبي بكر بن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعيّ، وحدّثني به أيضاً الشيخ المسنّ أبو بكر محمّد بن أحمد مناولةً منه لي في أصل أبي الوليد ملك بن عبداللّه العتبيّ الذي بخطّ يده، قال: حدّثني به أبو الوليد العتبيّ المذكور عن أبي مروان عبدالملك بن سراج بسنده المتقدّم»[1].

وأمّا ابن برّيّ، فقد أفاد من ديوان ابن أحمر في حواشيه على (صحاح) الجوهريّ، وهي أحد مصادر (لسان العرب) و(تاج العروس)، ومن هذه الحواشي: ما رواه الجوهريّ لابن أحمر: «أُخِبُّ ذَلولاً أو عَروضاً أَروضُها»[2]، ثمّ علّق ابن برّيّ حاشيةً، تقول: «وهكذا روايته في شعره»[3]، وروى هذا الرجز[4]:

أَبـي الَّـذي أَخْـنَـبَ رِجْـلَ ابْـنِ الـصَّـعِـقْ
إِذْ كـانَـتِ الـخَـيْـلُ كـعِـلْـبـاءِ الـعُـنُـقْ

ثمّ قال ابن برّيّ: «وجدته أنا أيضاً في شعر ابن أحمر الباهليّ»[5].

وفي القرن السابع الهجريّ كان الديوان بين يدي الصَّغَانيّ (650هـ)، وهو يضع تكملةً لـ (صحاح) الجوهريّ، وقد روى عنه هذا العجز: «كالْقَرِّ بَيْنَ قَوادِمِ زُعْرِ»، وقال: «لم أجده في ديوان ابن أحمر، ووجدت فيه بيتاً، ليس فيه حُجّةً على القَرّ، وهو[6]:

(1) فهرست ابن خير 393. وأورد محقّقه اسم ابن أحمر مصحّفاً بالدال في خمسة مواضع منه، وهي: 393 و398 و499 و544 و561.
(2) القصيدة 36/ 5.
(3) اللسان، والتاج (عرض)، ولم أعثر على هذا في المطبوع من تنبيهات ابن برّيّ على (الصحاح).
(4) القطعة 33/ 1 ـ 3 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(5) التنبيه والإيضاح 1/ 73، وعنه في اللسان، والتاج (خنب).
(6) التكملة 3/ 164، وعنه في التاج (قرر)، وانظر: القصيدة 25/ 9.

حَـلَـقَـتْ بَـنـو عَـزْوانَ جُـؤْجُـؤَهُ والـرَّأْسَ غَـيْـرَ قَـنـازِعٍ زُعْـرِ

وفي القرن الثامن الهجريّ نجد الحافظ مُغَلْطاي (762هـ) يأخذ منه أبياتاً في حاشيته على كتاب السهيليّ (الروض الأنف) للسهيليّ، ويروي ما أنشده أبو القاسم لابن أحمر[1]:

أَنْـشَـأْتُ أَسْـأَلُـهُ عَـنْ حـالِ رِفْـقَـتِـهِ فقـالَ: حَيَّ، فـإِنَّ الـرَّكْـبَ قَـدْ ذَهَـبـا

ثمّ يقول: «فيه نظر من حيث أنّ الذي في ديوان ابن أحمر أنّ ذلك البيت بعد قوله: قالوا عَيينا... (الأبيات)»[2].

وفي القرن الحادي عشر الهجريّ يذكر صاحب (كشف الظنون) «ديوان ابن أحمر»[3] إلاّ أنّ الحاج خليفة (1067هـ) لا يضيف شيئاً إلى عبارته هذه، فلا نعلم من أمره شيئاً. وفي أواخر القرن ذاته يقف عبدالقادر البغداديّ (1093هـ) على عدّة نسخ من ديوان ابن أحمر، وهو ينظر في هذا البيت[4]:

بـتَـيْـهـاءَ قَـفْـرٍ، والـمَـطِـيُّ كَـأَنَّـهـا قَطا الحَزْنِ، قَدْ كانَتْ فِراخاً بُيوضُها

ثمّ يقول: «في عامّة نسخ شعره: أُريهِمْ سُهَيْلاً، والمَطِيُّ كَأَنَّها / قَطا الحَزْنِ.. قال شارحه: قوله أُريهِمْ سُهَيْلاً، يعني أصحابه، وإن لم يخبر لـه ذكر لدلالة الحال عليه، أي: يُريهم مطلعه»[5].

وفي القرن الثاني عشر الهجريّ نجد المرتضى الزَّبيديّ (1205هـ) يروي ما أنشده الجوهريّ لابن أحمر[6]:

(1) القصيدة 8/ 15.
(2) خزانة الأدب 3/ 38.
(3) كشف الظنون 1/ 764.
(4) القصيدة 36/ 4.
(5) خزانة الأدب 4/ 33.
(6) القصيدة 18/ 51.

ولا تَـقُـولُـنَّ زَهْـوٌ مـا يُـخَـبِّـرُنـا لَمْ يَتْرُكِ الشَّيْبُ لي زَهْواً ولا الكِبَرُ

ثمّ يقول: «وفي ديوان ابن أحمر: ولا العَوَرُ»[1].

وبذلك يكون صاحب (تاج العروس) هو آخر من اطّلع عليه قبيل أن يصبح في ذمّة التاريخ، وأمّا بعد هذه الحقبة من الزمن، فليس ثمّة من دليل في أيدينا، يؤيّد بقاءه إلى عهد معيّن، لأنّنا لا نعلم متى فُقد هذا الديوان.

وفي العصر الحديث جرت ثلاث محاولات لجمع شعر ابن أحمر، أوّلها: ما قام به الدكتور حسين عطوان سنة 1970[2]، وأطلق على ما جمعه اسم (شعر عمرو بن أحمر الباهليّ)، فحاز بذلك قصب السَّبْق، وكان له فضل المتقدّم الرائد في إخراج هذا الشعر، والدكتور عطوان كابد في سبيله مشقّةً صعبة المسالك، لم تخل من العِثار، فهو لا يميّز رواية المتقدّمين من رواية المتأخّرين، ليقع على الأقدم والأصحّ منها، ولا يحفِل بالروايات المختلفة في المصادر، ولا يُعنى البتّة بالمسائل اللغويّة في شعر ابن أحمر الذي أتى بأحرف، لا تُعرف في كلام العرب، ولا يستوفي تخريج الشعر من مصادره، ففاته بعض ما ورد فيها من أبيات، والتبس عليه أحياناً شعر ابن أحمر بشعر من سمّي باسمه أو بشعر غيره من الشعراء، فهو مثلاً يجعل قصيدةً لعطاء بن أحمر المدينيّ ومقطّعةً لبدر بن حمراء الضّبّيّ في الصحيح من شعر ابن أحمر الباهليّ[3]، ويضع فيه أبياتاً لامرئ القيس والحطيئة وكُثيّر وكعب بن مالك ومُزاحم والفرزدق وحميد وغيرهم[4]، وربّما حرّف بعض الأبيات عمّا جاءت عليه في أصولها،

(1) التاج (زها).

(2) نشر مجمع اللغة العربيّة في دمشق شعر ابن أحمر بلا تاريخ، وأشار في فهرس مطبوعاته 14 إلى أنّه طبع سنة 1970.

(3) انظر: شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 73 و109.

(4) انظر: شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 39 و81 و123 و132 و166.

ومن ذلك ما نقله عن (المعاني الكبير)، فأورده على هذا النحو[1]:

لَـمّـا رَأَتْ عُـرُبـاً هَـجـائِـنَ وَسْـطـهـا مَرِحَتْ، وجالَتْ في الصُّراخِ الأَبْعَدِ

مع أنّ رواية ابن قتيبة للبيت في المصدر نفسه[2] تقول[3]:

لَـمّـا رَأَتْ غَـرْبـاً هَـجـائِـنَ وَسْـطـهـا مَرِحَتْ، وجالَتْ في الصِّراحِ الأَبْعَدِ

فصحّف الدكتور عطوان «غَرْباً» بالغين المعجمة بـ «عُرُباً» بالعين المهملة، و«الصِّراح» بالحاء المهملة بـ «الصُّراخ» بالخاء المعجمة، فكان أبعد ما يكون عن معنى البيت الذي أراده الشاعر، وشرحه ابن قتيبة، فقال: «غَرْباً: جاوز القَدْر، ومنه يقال: استغرب فلان في الضحك، هجائن: بيض، يقول: لمّا رأت بي شيباً كثيراً مرحت بشبابها ونشاطها، وجال في الصِّراح الأبعد»[4]، أي: في المواجهة التي جاوزت الحدّ.

ومثله ما نقله عن (عيار الشعر) و(الموشّح)، فأورده على هذا النحو[5]:

غـادَرَنـي سَـهْـمُـهُ أَعْـشـى، وغـادَرَهُ سَهْمُ ابْنِ أَحْمَرَ، يَشْكو الرَّأْسَ والكَبِدا

مع أنّ الرواية في هذين المصدرين: «سَيْفُ ابْنِ أَحْمَرَ»[6].

وأمثال هذا التصحيف والتحريف في هذه النشرة من شعر ابن أحمر كثير، لا طائل الآن من تتبّعه، وكان الأولى أن تُترك الأبيات على روايتها في الأصول حتّى يكشف الزمان عن نسخة مخطوطة من ديوانه.

وقد استدرك الدكتور رمضان عبدالتوّاب على هذه النشرة بعض الأبيات

(1) شعر ابن أحمر 52.
(2) المعاني الكبير 1221، وانظر: القصيدة 14/ 3.
(3) القصيدة 14/ 3.
(4) المعاني الكبير 1221.
(5) شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 48.
(6) عيار الشعر 99، والموشّح 136، وانظر: القصيدة 16/ 4.

التي عثر عليها لابن أحمر وبعض التصويبات والملاحظات الأخرى في مقالة، نشرها بعنوان (شعر عمرو بن أحمر الباهليّ)[1]، ثمّ استدرك الدكتور رضوان محمّد حسين النجّار على هذه النشرة ذاتها بيتاً وحيداً في مقالته (المستدرك على دواوين شعراء العرب المطبوعة)[2].

وبعد الدكتور حسين عطوان قام الأستاذ أحمد فاروق بالمحاولة الأخرى لجمع شعر ابن أحمر، والأستاذ فاروق أشار إلى ذلك في حاشيته على بيت، رواه البَطَلْيَوْسيّ في (الاسم والمسمّى)[3]بلا عزو، وهو:

فلَوْ كانَ في لَيْلى شَذا مِنْ خُصومَةٍ لَلَوَّيْتُ أَعْناقَ الخُصومِ المَلاوِيا[4]

ثمّ قال: «البيت لابن أحمر في ديوانه الذي صنعته، وحقّقته، وأعددته للطبع، وفيه أبيات أكثر من صنعة الدكتور حسين عطوان»[5]، وأغلب الظنّ أنّ هذه المحاولة الثانية لجمع شعر ابن أحمر لم يُكتب لها أن تطبع، وتنتشر. وأمّا المحاولة الثالثة، فقد كان لي نصيب صنعها جمعاً وشرحاً وتحقيقاً ما أمكنني إلى ذلك من سبيل رسالةً وجهداً مضنياً.

2 ـ رواية شعره :

رأينا في دراستنا ديوانَ ابن أحمر سندين متّصلين لروايته، انتهى بهما ابن خَيْر الإشبيليّ إلى أبي عليّ القاليّ (356هـ) الذي قرأ شعر ابن أحمر على أبي بكر بن دريد (321هـ) عن أبي حاتم (255هـ) عن الأصمعيّ (217هـ)[6]. والمصادر

(1) انظر: مجلّة (مجمع اللغة العربيّة في دمشق): ص422، ج2، مج47، 1392 هـ/ 1972 م.
(2) انظر: مجلّة (معهد المخطوطات العربيّة): ص327، ج1، مج30، 1406 هـ/ 1986 م.
(3) الاسم والمسمّى 340.
(4) القطعة 53/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(5) الاسم والمسمّى 343.
(6) انظر: فهرست ابن خَيْر 393.

لا تُتيح لنا أن نتعرّف بوضوح الطرقَ التي حملته، ونقلته من القرن الأوّل إلى عصر التدوين في القرن الثاني الهجريّ، ولكنّنا نستطيع أن نطمئنّ إلى أنّ هذا الشعر قد تهيّأت له الطبقة الأولى من الرواة العلماء الذين أخذوا برواية أشعار المتأخّرين من الشعراء قبل غيرهم من المتقدّمين، فلم يكونوا ليلتمسوا الفروع إلاّ بعد إحكام الأصول، وكانت هذه سنّة العلماء في الرواية والعلم معاً، وحسبنا أنّ الجاحظ أشار إلى ذلك، فقال: «إنّ بعض من كلف برواية الأشعار بدأ برواية أشعار هذيل قبل رواية شعر عبّاس بن الأحنف ورواية شعر ابن أحمر قبل رواية شعر أبي نُواس»[1].

ولعلّ شعر ابن أحمر قد دُوّن قُبيل الأصمعيّ وطبقته من الرواة، أو لعلّه دوّن في حياتهم، فقد رأينا في دراستنا ديوانَه إشارةً إلى أنّ ثمّة «نسخةً، فيها شعر عمرو بن أحمر»، كانت في مجلس، حضره الأصمعيّ وابن الأعرابيّ[2].

وذكر الآمديّ كتاباً لباهلة، وجد فيه قصائد لشاعرين مقلّين من شعرائها، هما: القَتّال[3] وبُدَيْل بن المُضرَّب[4]، وإذا جُمعت أشعار هذه القبيلة وأخبارها في كتاب، ضمّ مثل هذين الشاعرين المغمورين، فلا شكّ في أنّه ضمّ أشعار المشهورين من شعراء باهلة كابن أحمر وغيره. ومثل هذه الكتب أو الدواوين كانت «تضمّ بين دفّتيها قصائد كاملةً ومقطّعات قصيرةً وأبياتاً متفرّقةً لشعراء تلك القبيلة أو لبعض شعرائها، وربّما ضمّت أكثر شعر هؤلاء الشعراء، بل ربّما ضمّت جميع شعر كلّ شاعر منهم وديوانه كاملاً، ثمّ تضيف إلى ذلك من الأخبار والنسب والقصص والأحاديث ما يتّصل بالشاعر نفسه أو ببعض أفراد

(1) البرصان 3.
(2) انظر: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف 1/ 189.
(3) المؤتلف والمختلف 280.
(4) المؤتلف والمختلف 280.

قبيلته وما يوضّح مناسبات القصائد، ويفسّر بعض أبياتها، ويبيّن ما فيها من حوادث تاريخيّة، فيجيء كتاب القبيلة بذلك سجلاً لحوادثها ووقائعها وديواناً لمفاخرها ومناقبها ومعرضاً لشعر شعرائها»[1]، ونشط تصنيف هذه الكتب منذ أواخر القرن الهجريّ الثاني على أيدي أبي عبيدة والأصمعيّ وابن الأعرابيّ والمفضّل الضَّبِّيّ وأبي عمرو الشَّيْبانيّ ومحمّد بن حبيب وغيرهم[2] إلاّ أنّ ثمّة أخباراً، تدلّ على أنّ «كتب القبائل كانت مكتوبةً مدوّنةً قبل مطلع القرن الثاني الهجريّ، وأنّ العلماء الرواة من رجال الطبقة الأولى في القرن الثاني قد وصلتهم هذه المدوّنات من القرن الأوّل الهجريّ، فاعتمدوها مصدراً من مصادر تدوينهم نسخَهم الخاصّة التي نسبت روايتها إليهم»[3].

وإذا كنّا قد وجدنا[4] أنّ ابن أحمر كان يحسن الكتابة، فإنّ هذا يعني أنّه ربّما أسهم أيضاً بتدوين طائفة من شعره على الأقلّ، فكان ذلك عوناً للرواة من بعده. ولا شكّ في أنّ الرواية والتدوين قد اجتمعا معاً في الحفاظ على شعر ابن أحمر ونقله إلى القرن الثاني، ليكون بين أيدي الطبقة الأولى من الرواة، أمثال: الفراهيديّ (175هـ)، وسيبويه (180هـ)، وابن الكلبيّ (204هـ)، وأبي عمرو الشَّيْبانيّ (206هـ)، وقُطْرُب (206هـ)، والفرّاء (207هـ)، والأصمعيّ (217هـ)، وابن الأعرابيّ (231هـ)، وابن سلاّم الجُمَحيّ (231هـ)، ثمّ ليكون بين أيدي الطبقة الثانية من الرواة، أمثال: ابن السِّكِّيت (244هـ)، وأبي حاتم (255)، وشَمِر بن حَمْدَوَيْه (255هـ) وغيرهم.

(1) مصادر الشعر الجاهليّ 554.
(2) انظر: فهرست ابن النديم 223 وما بعدها.
(3) مصادر الشعر الجاهليّ 558.
(4) انظر: القصيدة 54/ 3، و60/ 29 ـ 30.

3 ـ مصادر شعره :

بُعيد أن حملت الرواية والكتابة شعر ابن أحمر إلى القرن الثاني أصبحت ألسنة اللغويّين والنحاة تلهج بروايته قرناً بعد آخر شواهدَ على معنى من معاني اللغة أو بنية لفظ من ألفاظها أو غريب من غرائب الاستعمال أو طريقة من طرائق الاشتقاق حتّى حظي بجلّ اهتمامهم، فقال ابن الأثير: «ابن أحمر الباهليّ شاعر معروف، يُستشهد على اللغة بشعره كثيراً، فيقال: قال ابن أحمر، ولا يذكر له اسم»[1]، لما في شعره من فصاحة، جعلته مقدّماً لدى أهل اللغة.

ولهذا نرى أنّ الأصول التي عنيت بجمع اللغة، أو تناولت بالتصنيف مشكلاتها وظواهرها، كانت تزخر بشعره أكثر ممّا رأيناه في مصادر الأدب والنقد والمعاني وسواها، ولذا كانت المعجمات في مقدّمة مصادر شعره، ونذكر على سبيل المثال أنّنا وجدنا في اللسان لابن منظور نحو (351) بيتاً وثلاثين شطراً، وفي التاج للزَّبيديّ (300) بيت وخمسة عشر شطراً، وفي تهذيب اللغة للأزهريّ (148) بيتاً وأربعة عشر شطراً، وفي الصحاح للجوهريّ (91) بيتاً وتسعة أشطار، وفي جمهرة اللغة لابن دريد (69) بيتاً وشطرين، وفي المخصّص لابن سيده (63) بيتاً وعشرة أشطار، وفي التكملة للصغانيّ (60) بيتاً وشطراً واحداً، وفي المحكم لابن سيده (53) بيتاً وشطرين، وفي مقاييس اللغة لابن فارس (47) بيتاً وثمانية أشطار، وفي التقفية لابن أبي اليمان (34) بيتاً وشطرين، وفي أساس البلاغة للزمخشريّ (32) بيتاً وأربعة أشطار، وفي كنز الحفّاظ في تهذيب كتاب الألفاظ للتَّبْريزيّ (31) بيتاً وشطراً واحداً، وفي الأفعال للسَّرَقُسْطيّ (30) بيتاً وشطرين، وفي مجمل اللغة لابن فارس (20) بيتاً وخمسة عشر شطراً.. ولو

(1) المرصّع 65.

عددنا الأبيات المضطربة النسبة بين أحمر وغيره من الشعراء، لارتفعت هذه الأرقام أكثر في هذه المعجمات وغيرها من المصادر.

وهذه المعجمات جميعاً تورد أبيات ابن أحمر شواهدَ على معنى من المعاني أو بنية لفظ من الألفاظ، ولهذه الغاية ذاتها كان من مصادره كتب غريب القرآن ومجازه، ففي مجاز القرآن لأبي عبيدة مثلاً نعدّ نحو (18) بيتاً، وكان منها شرح الدواوين والأصول، ففي شرح المفضّليّات للأنباريّ نعدّ (27) بيتاً، وفي الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب للبَطَلْيَوْسيّ (24) بيتاً وشطرين، وفي شرح أبيات المغني للبغداديّ (20) بيتاً وشطرين، وفي الجاهليّات (17) بيتاً، وفي شرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ (12) بيتاً.

ثمّ كانت كتب النحو على اختلافها من مصادر شعره أيضاً، وذلك لما في شعره من شواهد نحويّة عدّة، فالبغداديّ في خزانة الأدب احتجّ لابن أحمر بـ (37) بيتاً وشطرين، وابن الشجريّ في الأمالي بـ (32) بيتاً، وابن جنّيّ في الخصائص بـ (18) بيتاً وشطراً واحداً، وسيبويه في الكتاب بـ (6) أبيات وشطراً واحداً.

وأمّا مصادر الأدب والنقد والمعاني، فإنّ كلاً منها يورد طائفةً قليلةً من شعره، إذا ما قورنت بالمصادر السابقة حتّى إنّ كتاباً مهمّاً، وهو الأغاني، لم يورد من شعر ابن أحمر إلاّ ثمانية أبيات، نجدها في ثنايا أخبار المغنية جميلة مولاة بني سُلَيم. وإذا ما ذكرنا أبرز هذه المصادر وأهمّها، فإنّنا لا نحظى بكبير طائل، فالجاحظ مثلاً لم ينقل من شعره غير (23) بيتاً في البيان والتبيين، والمعريّ لم يرو غير (14) بيتاً في رسالة الغفران، و(12) بيتاً في الصاهل والشاحج، وابن سلاّم لم ينشد غير (6) أبيات في طبقات فحول الشعراء، والمَرْزُبانيّ لم يورد غير بيتين في الموشّح، و(6) أبيات في معجم الشعراء.. ولكنّ واحداً من تلك المصادر ـ وهو المعاني الكبير لابن قتيبة ـ يورد أبياتاً لابن

أحمر، يكاد عددها يفوق ما روته تلك المصادر من شعره، فقد رأى ابن قتيبة في هذا الشعر ذخراً واسعاً، يمثّل به على ما بسطه من معانٍ حتّى إنّنا نعدّ في كتابه هذا (139) بيتاً وشطراً واحداً، وهذا قَدْر كبير، إذا ما قيس بسائر الشعراء الذين احتجّ بهم ابن قتيبة في الكتاب، بينما نجده في الشعر والشعراء يورد (18) بيتاً، وفي عيون الأخبار (6) أبيات وشطراً واحداً. ولعلّ في ذلك دليلاً آخر على أنّه «يُستشهد على اللغة بشعره كثيراً» إلاّ أنّ مصادر أهل الأدب والنقد والمعاني تظلّ ذات قيمة مهمّة بما ترويه من أخبار حياته وخصائص شعره، وبما تطالعنا به من أحكام ورؤى نقديّة فيه.

وهنالك نوع من الكتب النقديّة ـ وهي كتب التصحيف والتحريف والتنبيه ـ لا تخلو من أهميّة في رواية شعره، إذ إنّها تنظر إلى ما وقع في الرواية من خطأ وزلل، ثمّ تقف على الصحيح منها، ففي سمط اللآلئ للبكريّ (38) بيتاً وشطر واحد، وفي شرح ما يقع التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكريّ (11) بيتاً وشطر واحد، وفي التنبيهات لعليّ بن حمزة (9) أبيات وشطر واحد، وفي التنبيه على حدوث التصحيف والتحريف لحمزة الأصفهانيّ (5) أبيات وشطر واحد.

ويتلو ذلك منزلةً تلك المصادر التي صُنّفت على شكل مختاراتٍ وأمالٍ، أو اهتمّت بجمع الأمثال، أو ألّفت في الأزمنة والأمكنة، وتأتي جمهرة أشعار العرب في مقدّمة هذه المصادر، إذ اختار أبو زيد القرشيّ من شعر ابن أحمر قصيدةً في (52) بيتاً، فحفظها من يد الحدثان. ونجد أصحاب الحماسات يختارون من شعره نُتفاً قليلةً، فالبصريّ مثلاً ينشد له (16) بيتاً، والبحتريّ يروي (9) أبيات، وأبو تمّام يورد (4) أبيات. وأمّا أقدم مجموعتين من مختارات شعر العرب وأهمّها، وهما الأصمعيّات والمفضّليّات، فلم توردا شيئاً من شعر ابن أحمر على خلاف أصحاب الحماسات الذين رأوا في شعره أغراضاً، تفي بمراميهم وغاياتهم، وتستحقّ أن تُنتقى، وتختار. وأمّا كتب الأزمنة والأمكنة،

فقد احتجّت بشعره، وعددنا في معجم ما استعجم للبكريّ نحو (57) بيتاً، وفي الأزمنة والأمكنة للمرزوقيّ (23) بيتاً، وفي معجم البلدان لياقوت (19) بيتاً وثلاثة أشطار، وفي الجبال والأمكنة والمياه للزمخشريّ (3) أبيات وشطرين.. وهذا قَدْر كبير إذا ما قورن بسائر الشعراء الذين استشهد بشعرهم كلّ مصدر منها. وأمّا كتب الأمثال والمحاضرات والأمالي، فليست بذات أهميّة كبيرة فيما أوردته من شعر ابن أحمر إلاّ أنّها تظلّ مهمّةً من الناحية التاريخيّة على الأقلّ.

وإذا ما استعرضنا أنواعاً أخرى من المصادر في المكتبة العربيّة مثل كتب التاريخ والسيرة والديانات والمذاهب وما يتفرّع عن هذه العلوم، فإنّنا لا نكاد نقف على أيّ أثر فيها لابن أحمر، ففي السيرة النبويّة مثلاً بيت واحد لا غير، وهو ما يؤكّد عدم احتفال هذا النوع من المصادر بشعر ابن أحمر مع أنّ أكثرها قد تحدّث عن بعض معاصريه من الشعراء المخضرمين كحسّان بن ثابت وعبداللّه بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم ممّن كان لهم مشاركة ما في صدر الإسلام.

4 ـ ضياع شعره:

رأينا أنّ ديوان ابن أحمر وكتاب باهلة قد فُقدا، وليس بين أيدينا من شعره غير ما نجده في أضعاف المصادر المختلفة، وليس هنالك دليل على أنّ هذه المصادر قد نقلت أبياتاً أو قصائد لم ترد في ديوانه، لأنّ «العلماء الرواة الذين دوّنوا ذلك الشعر لم يجدوا إلاّ أبياتاً متفرّقةً أو مقطّعاتٍ صغيرةً، أشبه ما تكون بالأوصال الممزّقة، التقطوها التقاطاً من أفواه بعض الأعراب والرواة»[1].

والنظرة العجلى إلى شعر ابن أحمر تجعلنا على ثقة تامّة من ضياع قسم

(1) مصادر الشعر الجاهليّ 483.

كبير منه، إذ بدا لنا أنّ ابن أحمر من أصحاب المطوّلات، ولكنّ صروف الدهر لم تبق منها غير مشوبة، عدّتها (52) بيتاً، ولم تدع القصائد الأخرى إلاّ أوصالاً متناثرةً، تكاد تنمّ على صورته الأصليّة في أغلب الأحيان حتّى إنّنا نعدّ في إحدى رائيّاته المجموعة أو إحدى ميميّاته (34) بيتاً، وفي قصيدة داليّة (38) بيتاً، وفي قصيدة نونيّة (39) بيتاً، وفي قصيدة رائيّة (37) بيتاً، وفي قصيدة لاميّة (30) بيتاً.

ولعلّ كثيراً من الأبيات الفرادى، ومجموعها نحو (22) بيتاً، هي مجرّد بقايا قصائد مفقودة، ومن أمثلة ذلك ما أنشده في رِكاب، أودعها «رجلاً من بني سعد، فأغار عليها قوم منهم، فأخذوها، ولم يسع الخفير فيها»[1]، فعرّض بهم، وقال[2]:

فـرُدُّوا مـا لَـدَيْـكُـمْ مِـنْ رِكـابـي ولَـمّـا تَـأْتِـكُـمْ صَـمِّـي صَـمـامِ

ولكنّه لم يبق من هذا التعريض غير هذا البيت الذي لا شكّ في أنّه لم يكن بيتاً يتيماً، وإنّما هو من قصيدة في الأصل.

وابن أحمر غزير الشعر كثيره، قال الشعر من يفاعته إلى مماته، ولم يحجم عنه في الإسلام كما فعل لبيد، ولم تفتُر عنه عزيمته حتّى قال أبو الفرج: «قال في الجاهليّة والإسلام شعراً كثيراً»[3] إلاّ أنّ هذا الشعر الكثير قد ذهب في ذمّة التاريخ، ولم يبق منه غير (530) بيتاً وأربعة أشطار، هي مجموع الشعر الذي اطمأنّ البحث إلى نسبته إليه. وأمّا ما اضطربت نسبته بين أحمر وغيره من الشعراء، فقد بلغ لدينا نحو مئة بيت وأربعة أشطار، حاولت أن أردّها إلى أصحابها ما أمكنني إلى ذلك من سبيل.

(1) جمهرة اللغة 2/ 206.

(2) القصيدة 52/ 1.

(3) الأغاني2980، وعنه في الإصابة 3/ 112، وخزانة الأدب 3/ 39، والعبارة فيهما: «قال في الإسلام شعراً كثيراً».

إنّ ضياع جزء كبير من شعر ابن أحمر يمثّل جانباً واضحاً من جوانب محنة جلّى، رُزئ بها على مرّ العصور تراثنا العربيّ الإسلاميّ، فلو جاءنا وافراً لجاءنا علم وشعر كثير كما قال أبو عمرو بن العلاء[1]. ولم تكن يد الحدثان وحدها تعبث بهذا التراث فحسب، وإنّما تتحدّث الأخبار عن رواة وضّاعين ومدّعين منحلين، أفسدوا ما أبدعه الأوّلون، وشاع بينهم الكذب والوضع والاضطراب[2]، وفي الفصل القادم سنحاول أن نوثّق شعر ابن أحمر قبل أن نمضي في الفصول القادمة إلى دراسة أغراضه الشعريّة وخصائصه الفنّيّة.

(1) طبقات فحول الشعراء 25، والزينة 1/ 96، والخصائص 1/ 386.

(2) انظر: مصادر الشعر الجاهليّ 321 وما بعدها.

الفصل الرابع
توثيق شعره

1 ـ الانتحال وشعره:

كان الشعر العربيّ منذ الجاهليّة وسنوات الإسلام الأولى عرضةً للوضع والانتحال، ثمّ استفحل هذا الأمر فيما بعد، فغدا ظاهرةً معروفةً شائعةً، لم يكن الرواة العلماء، ليسكتوا عنها، فقد تنبّه لها كثيرون منهم[1]، وكانوا «ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه، ويقولون: هذا مصنوع»[2]، ورأوا من أهمّ أسبابها: الرواة القصّاص الذين أدخلوا في شعر الأوائل ما ليس منه، والصراع القبليّ والحزبيّ الذي شُبّت ناره في القرن الهجريّ الأوّل، ثمّ استعرت في القرون التالية أكثر فأكثر، وكانت الأحداث ذاتها تحدّد للوضّاعين كلّ شعر مصنوع، يمكن أن يُحمل على هذا الشاعر أو ذاك.

وشاعرنا ابن أحمر ليس بذي نِحْلة ولا صاحب خصومة، فلم يشتهر أمره البتّة على أساس ذلك الصراع الحزبيّ أو القبليّ الذي امتاز به عصره، ولو عرف

(1) انظر: مصادر الشعر الجاهليّ 325 وما بعدها.
(2) ذيل الأمالي 105.

بشيء من هذه الموضوعات لكان أثره واضحاً فيما بقي من شعره وأخباره، فلعلّ ابن أحمر ظلّ بمنأى عن بغي الوضّاعين وسطوة المدّعين المنتحلين.

والناظر إلى شعر ابن أحمر بعين البحث لا يجد سبباً لإثارة أدنى شكّ حول أيّ بيت من شعره، لأنّنا لا نرى فيه شيئاً من آثار الانتحال، ما دمنا لا نملك البيّنة ولا الدليل، وما دامت يد الزمان تضنّ بديوانه وبكثير من أخباره، فنظلّ مطمئنين إلى صحّته حتّى يظهر من وجوه النقد ما يضعّف من ثقتنا واطمئناننا، ويميّز الموضوع من الصحيح.

وإن عدنا إلى شعر ابن أحمر الذي جمعناه من المصادر القديمة، لم نجد غير موضع واحد منه، أثار ابن جنّيّ شيئاً من الشكّ حوله، إذ لم يجد في ديوان ابن أحمر بيتين، أنشدهما أبو زيد، وهما[1]:

كَـأَنَّـهـا بـنَـقـا الـعَـزّاف طـاوِيَـةٌ لَمَّا انْطَوى بَطْنُها، واخْرَوَّطَ السَّفَرُ

مـارِيَّـةٌ لُـؤْلُـؤَانُ الَّـلـوْنِ أَوَّدَهـا طَـلٌّ، وبَـنَّـسَ عَـنْـهـا فَـرْقَـدٌ خَـصِـرُ

فقال ابن جنّيّ: «لم يسند أبو زيد هذين البيتين إلى ابن أحمر، ولا هما أيضاً في ديوانه، ولا أنشدهما الأصمعيّ فيما أنشده من الأبيات التي أورد فيها كلماته، وينبغي أن يكون ذلك شيئاً، جاء به غير ابن أحمر تابعاً له فيه ومتقيّلاً أثره»[2]، ولكنّ هذا الشعر ألصق بابن أحمر من غيره من الشعراء، لأنّه شاهد أهل اللغة على حرفين، لا يُعلم أحد أتى بهما إلاّ ابن أحمر، أحدهما: ماريّة، أي: البقرة الوحشيّة، والآخر: بنّس إذا تأخّر[3]. والبيتان وردا في مصادرهما

(1) القصيدة 18/ 7 ـ 8.

(2) الخصائص 2/ 24.

(3) الشعر والشعراء 358، والمعاني الكبير 658، والعقد الفريد 5 361، والتنبيه على حدوث التصحيف (ط. طلس) 104 و(ط. آل ياسين) 168، وتهذيب اللغة 13/ 12، واللسان (بنس)، والتاج (بنس) و(مري).

الكثيرة لابن أحمر دون غيره من الشعراء[1]، ورواهما أبو زيد نفسه لابن أحمر في مشوبته التي اختارها من شعره، وجعلها في جمهرته[2]، ولم نقع على أيّ مصدر يشكّك في هذه النسبة إليه غير ابن جنّيّ الذي ربّما وقف على نسخة من ديوان ابن أحمر، يبدو أنّها قد خلت من تلك المشوبة، إذ كانت رواية كلّ ديوان من الدواوين تختلف بين عالم وآخر تبعاً للخلاف بين مصادر الرواية ومصادر الرواة. وإذا كان الأصمعيّ قد ذكر هذا الحرف من غريب ابن أحمر بلا شاهد عليه، وقال : «منها ماريّة، أي : لؤلؤيّة، لونها لون اللؤلؤ»[3]، فالظاهر أن يكون ما أنشده أبو زيد لم ينته إلى الأصمعيّ، ولو وصل إليه، لما سكت عن روايته ابنُ جنّيّ وسواه ممّن أورد كلامه في حروف ابن أحمر، وليس في ذلك سبب يدفعنا إلى الشكّ في البيتين، فهما لابن أحمر، جاء بهما غير تابع لأحد ولا متقيّل لأثر.

إنّ ما أثاره ابن جنّيّ من الشكّ هو المثال الوحيد الذي نقع عليه في المصادر القديمة، وإذا عدنا إلى شعر ابن أحمر الذي صنعه الدكتور حسين عطوان، وقفنا على عدّة أمثلة، بعضها ممّا وهم في روايته لابن أحمر، وبعضها الآخر ممّا اضطربت نسبته بينه وبين غيره من الشعراء، فالدكتور عطوان ينحل ابن أحمر شعراً لمن سمّي باسمه من الشعراء، ويجعل في الصحيح من شعره أبياتاً للحطيئة وامرئ القيس وابن مقبل ومزاحم العُقَيْليّ وحميد والفرزدق وكثيّر وكعب بن مالك وغيرهم، ولهذا أرجأنا النظر في كلّ ذلك إلى القسم الثاني من هذا الفصل، وهو (الاضطراب وشعر ابن أحمر).

(1) انظر : تخريج البيتين السابع والثامن من القصيدة الثامنة عشرة في آخر شعر ابن أحمر.
(2) انظر : جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 301 و(ط. البجاويّ) 842.
(3) الخصائص 2/ 22، وانظر : التاج (مري).

2 ـ الاضطراب وشعره:

إنّنا لا نجد في شعر ابن أحمر شيئاً واضحاً من مظاهر الانتحال إلاّ أنّ ممّا قد يوهم بهذه المظاهر اختلاف الرواة في نسبة الشعر، فتراهم ينسبون أبياتاً منه إلى شاعرين أو ثلاثة شعراء أو أكثر، وصور ذلك الاضطراب في رواية شعر ابن أحمر كانت كثيرةً جدّاً، سنعرضها للتمحيص والنقد قبل أن نبحث في موضوعاته وخصائصه، لنكون على بيّنة ممّا لهذا الشاعر وممّا ليس له.

وأوّل هذه الصور ما وقع الاضطراب في روايته مع من سمّي بابن أحمر من الشعراء، فقد رأينا أنّ ثمّة شعراء آخرين، عرفهم ديوان العرب باسم شاعرنا الباهليّ الذي «عُرف باسمه دون لقبه»[1]، فكان في مصادر شعره «يقال: ابن أحمر، ولا يذكر له اسم»[2]، فيميّز بذلك بينه وبين من سمّي باسمه من الشعراء.

ومع هذا تظلّ المشكلة قائمةً، تصادف جامع شعره في كلّ مصدر من المصادر، فنحن لا نستطيع الاطمئنان إلى أنّ ما أنشد لابن أحمر لم يكن مختلطاً البتّة بشعر سواه ممّن سمّي باسمه، لأنّنا لا نملك البيّنة والدليل القاطعين في مثل هذه المشكلة التي ستظلّ قائمةً حتّى يسفر التاريخ عن نسخة من ديوان ابن أحمر، تكون الفيصل في توثيق شعره.

وقد تيسّرت لنا الحجّة في بعض الأشعار المضطربة التي يتنازعها الرواة بين ابن أحمر وسواه ممّن سمّي باسمه، فرأينا أن نثير شيئاً من الشكّ حولها، لنصل إلى شيء آخر من اليقين، ومنها قصيدة، تفرّد صاحب (الموشّى) بروايتها

(1) المكاثرة 55.
(2) المرصّع 65.

لابن أحمر[1]، فنقلها عنه الدكتور عطوان إلى الصحيح من شعر الباهليّ[2]، ومطلعها[3]:

عَـذَّبَـنـي ذو الـجَـلالِ بـالـنّـارِ إِنْ هـامَ قَـلْـبـي بـذاتِ أُسْـوارِ

ومردّ إثارة الشكّ في نسبتها إلى ابن أحمر الباهليّ سببان، أحدهما ما نلمحه في أسلوبها الشعريّ من سهولة مفرطة، لم نعهدها في شعره الذي يمتلئ بالمتين الجزل من الألفاظ والرائق المعجب من الأساليب، والآخر ما نراه في جوّها الاجتماعيّ من مجون فاضح، يبعد كثيراً عن حياة شاعرنا وعصره، ويليق بابن أحمر المدينيّ الّذي وصفه المَرْزُبانيّ، فقال: «عطاء ابن أحمر المدينيّ: أحد ظرفاء المدينة المعدودين، يسير الشعر ضعيفه، له قصيدة، يذمّ فيها جواري القيان، وأوّلها[4]:

لا تَـعْـتَـبَـنَّ عَـلـى الـقِـيـانِ ولا تُـرِدْ وُدَّ الـقِـيـانِ، فـإِنَّـهُـنَّ تِـجَـارِ

ومن هذه الأشعار بيت، أورده الثعالبيّ[5] لابن أحمر، وهو[6]:

قـالَـتْ: فـأَهْـدِ لَـنـا إِزاراً مُـعْـلَـمـاً فـأَبـو طَـريـفٍ مـا عَـلَـيْـهِ إِزارُ

ولعلّ (الموشّى) كان مصدر رواية الثعالبيّ، فقد تفرّد الوشّاء[7] برواية البيت ذاته في قصيدة، لم ينسبها إلى أحد، ومطلعها:

مـا لِـلأَحِـبَّـةِ فـي الـتَّـخَـشُّـعِ عـارُ فاخْشَعْ، وإِنْ حافواعَلَيْكَ، وجاروا

(1) الموشّى (ط. صادر) 143 و(ط. الخانجيّ) 125.
(2) انظر: شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 109.
(3) القطعة 18/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(4) معجم الشعراء 160.
(5) المضاف والمنسوب 250.
(6) القطعة 11/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(7) الموشّى (ط. صادر) 142 و(ط. الخانجيّ) 124.

وهي قصيدة طريفة الموضوع، برع صانعها في سرده، فراح يصوّر لهو القيان وظرف (ابن أحمر) معهنّ، ولكنّه أخفق في نسجها الفنّيّ، فكان يسيراً ضعيفاً، لا يخلو من أخطاء، لا تصدر عن شاعر فصيح، يُستشهد على اللغة بشعره، فلعلّ السببين اللذين دفعا القصيدة السابقة عن أحمر الباهليّ يدفعان أيضاً هذه القصيدة عن شاعرنا وعن عصره، ويجعلان مثل هذا الشعر أليق أسلوباً وغرضاً بابن أحمر المدينيّ وفنّه.

ومن هذه الأشعار قصيدة، نسبها المستشرق فريتس كرنكو في (الحماسة الشجريّة) إلى ابن أحمر الباهليّ، وأوّلها[1]:

يا ضَمْرُ، خَبِّرْني، ولَسْتَ بصادِقٍ وأَخوكَ رائِدُكَ الَّذي لا يَكْذِبُ

فقال كرنكو: «هذا الشعر مشهور، ويروى لضَمْرة بن ضَمْرة ولابن أحمر الباهليّ»[2]، ثمّ رأيت الشيخ محمّد بن أبي شنب في (الجُمَل) للزجّاجيّ يقع في الوهم ذاته في نسبة هذا الشعر، فيقول: «يروى لرجل من مَذْحِج ولهَمّام أخي حسّان بن مُرّة ولضمرة بن ضمرة ولابن الأحمر الباهليّ»[3]. ولعلّ منشأ هذا الاضطراب هو العينيّ في (المقاصد النحويّة)[4]، إذ تفرّد بإنشادها لـ (ابن أحمر) فحسب، فاختلط الأمر على كرنكو في أبناء أحمر، فظنّه الباهليّ، والأصوب أنّه هُنَيّ بن أحمر الكنانيّ، وممّن روى القصيدة أو بعض أبياتها للكنانيّ هذا: سيبويه والآمديّ والمَرْزُبانيّ والعسكريّ والهَرَويّ والغُنْدَجانيّ وابن برّيّ وياقوت وصدر الدين البصريّ وابن سعيد الأندلسيّ وابن منظور والبغداديّ والزَّبيديّ[5]،

(1) انظر: القطعة 2/ 1 ـ 6 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).

(2) الحماسة الشجريّة 254.

(3) الجمل 243.

(4) المقاصد النحويّة 2/ 339.

(5) الكتاب 1/ 319، والمؤتلف والمختلف 45، ومعجم الشعراء 26 و472، وجمهرة الأمثال 1/ 424، والأزهيّة 185، وفرحة الأديب 54، والتنبيه والإيضاح 2/ 268، ومعجم البلدان 1/ 98، والحماسة

ثمّ شاركه في روايتها شعراء آخرون، هم: رجل من مَذْحِج[1] وآخر من بني عبدمناف[2] وثالث من بني عبدمَناة بن كنانة[3] وهَمّام بن مُرّة الشَّيْبانيّ[4] وعمرو بن الغوث بن طيّىء[5] وضَمْرة بن ضَمْرة النَّهْشَليّ[6] والفرعل الطائيّ[7] وزُرافة الباهليّ[8] وعامر بن جُوَين الطائيّ[9] ومنقذ بن مُرّة الكنانيّ[10]، وعمرو بن الحارث الكنانيّ[11] ورؤبة[12] وعنترة[13]، وحيال هذا الاضطراب الواسع بين الرواة في نسبة هذه القصيدة وقف ناقد بارز، هو المَرْزُبانيّ، ينبّه على روايتها لهُنَيّ بن أحمر الكنانيّ، ويقول: «رُويت هذه الأبيات لغيره، والثبت أنّها لهُنَيّ»[14].

البصريّة 1/ 13، ونشوة الطرب 382، واللسان (حيس)، وخزانة الأدب 1/ 242، والتاج (حيس).

(1) الكتاب 2/ 292، وفصل المقال 419، وشرح المفصّل 2/ 110، والمقاصد النحويّة 2/ 339، وخزانة الأدب 1/ 242.

(2) المقاصد النحويّة 2/ 339.

(3) سمط اللآلئ 288.

(4) شرح ديوان الحماسة للتبريزيّ 2/ 198، والحماسة الشجريّة 254، والمقاصد النحويّة 2/ 339، وخزانة الأدب 1/ 242.

(5) فرحة الأديب 54 و56، ومعجم البلدان 1/ 98، وخزانة الأدب 1/ 242، والتاج (جدب)، وجامع الشواهد 2/ 84 و3/ 292.

(6) مجالس ثعلب 480، والمقاصد النحويّة 2/ 339، وخزانة الأدب 1/ 242، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 7/ 257.

(7) الحماسة البصريّة 1/ 13.

(8) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ 1/ 231، والتنبيه والإيضاح 2/ 268، واللسان (حيس)، وخزانة الأدب 1/ 242، والتاج (حيس).

(9) حماسة البحتريّ 109.

(10) حماسة البحتريّ 109.

(11) معجم الشعراء 26.

(12) شرح الممفصّل 1/ 114.

(13) حول (ضمرة بن ضمرة النهشليّ) للدكتور صلاح كزّارة في مجلّة (المورد): ص180، ع4، مج11، 1402 هـ/ 1982 م.

(14) معجم الشعراء 472.

ومن هذا النوع من الأشعار المضطربة التي يتنازعها الرواة بين ابن أحمر وغيره ممّن سمّي باسمه يمكن أن نذكر شعراً اضطربت نسبته بين ابن أحمر وابن حمراء، فقد جعل الدكتور عطوان ما رواه ياقوت لابن حمراء في الصحيح من شعره[1]، وكأنّ تشابه الأسماء قد أوقعه في الوهم، لأنّ عبارة ياقوت صريحة واضحة في نسبة الشعر إلى ابن حمراء، إذ قال: «قال ابن حمراء:

أَبا الشَّبْعانِ، بَعْدَكَ حَرَّ نَجْدٌ وأَبْطَحُ بَطْنِ مَكَّةَ حَيْثُ غارا
سَلوا قَحْطانَ: أَيُّ ابْنَي نِزارٍ أَتى قَحْطانَ يَلْتَمِسُ الجِوارا
فحالَفَهُمْ، وخالَفَ عَنْ مَعَدٍّ ونارُ الحَرْبِ تَسْتَعِرُ اسْتِعارا»[2].

وهذا ما يبتّ بنسبة هذه الأبيات إلى بدر بن حمراء الضَّبِّيّ ـ وهو شاعر مقلّ لم ترو له المصادر سوى بضعة أبيات ـ أو إلى ابن حمراء العِجَان، وهو البعيث المُجاشعيّ الذي ذكره ابن سلاّم، فقال: «كانت أمّ البعيث أَمَة سِجِستانيّة، تسمّى فَرْتَنى، فكان يقال له: ابن حمراء العجان»[3] إلاّ أنّنا نرجّح نسبتها إلى ابن حمراء الضَّبِّيّ، لأنّ رواة الشعر لم يذكروا المجاشعيّ باسمه، وإنّما كانوا يذكرونه بلقبه.

ومن هذا النوع أيضاً يمكن أن نذكر رجزاً، اضطربت نسبته بين أحمر وخلف الأحمر، إذ رواه السهيليّ في (الروض الأنف) لابن أحمر، وقال: «وقال ابن أحمر:

قَدْ طَرَّقَتْ بِبِكْرِها أُمُّ طَبَقْ

(1) انظر: شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 73.
(2) معجم البلدان 3/ 321، وانظر: القطعة 24/ 1 ـ 3 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(3) طبقات فحول الشعراء 386.

فَــدَبَّـــروهُ خَــبَـراً ضَــخْــمَ الــعُــنُــقْ
مَــوْتُ الإمــام فِـلْـقَـةٌ مِــنَ الـفِـلَـقْ»[1].

ولعلّ ثمّة سهواً أو تحريفاً، أصاب عبارة السهيليّ، فعُدل بها من (خلف الأحمر) إلى (ابن أحمر)، لأنّ الأبيات مشهورة لخلف الأحمر في نعي المنصور، وأنشدها لخلف كلّ من: الجاحظ والأزهريّ وابن منظور والبغداديّ[2]، ويروي الجاحظ ذلك، فيقول: «قال أبو الحسن: جاء خلف الأحمر إلى حلقة يونس حين مات أبو جعفر، فقال: قَدْ طَرَّقَتْ... (الأبيات)»[3].

وهنالك أمثلة أخرى، تتنازعها بعض المصادر بين ابن أحمر و(الأحمر)، ففي موضع من (خزانة الأدب) يروي البغداديّ بيتاً لابن أحمر، ويقول: «قال ابن أحمر:

نَــوِّلــي قَــبْــلَ نَــأْيِ داري جُــمَــانــا وصِـلـيـنـا كـمـا زَعَـمْـتِ تَـلانـا»[4].

وفي موضع آخر منه ينسب البيت نفسه إلى الأحمر، ويقول: «قال الأحمر: نَوِّلي... (البيت)»[5]. وإزاء هذا الاضطراب نرجّح أن تكون العبارة الأولى «قال ابن أحمر» تحريفاً للعبارة الأخرى «قال الأحمر»، لأنّنا نجد ابن سيده يروي البيت ذاته للأحمر، ويقول: «أنشد الأحمر: نَوِّلي... (البيت)»[6].

(1) الروض الأنف 3/ 305، وانظر: القطعة 32/ 1 ـ 3 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(2) البيان والتبيين 4/ 97، وتهذيب اللغة 9/ 5، واللسان (طبق)، وشرح شواهد الشافية، وشرح شواهد المغني 6/ 160.
(3) البيان والتبيين 4/ 97.
(4) خزانة الأدب 2/ 149، وانظر: القطعة 51/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(5) خزانة الأدب 2/ 147.
(6) المخصّص 16/ 119.

وممّا يدفع البيت أيضاً عن ابن أحمر أنّ ابن منظور عزاه إلى جميل بن مَعْمَر[1]، فنقل عنه إلى ديوانه [2]، فالذي يبدو من هذا العرض أنّ البيت ممّا أنشده الأحمر لابن مَعْمَر.

ومن الطريف والغريب معاً أن يصل الاضطراب بين عمرو بن أحمر الباهليّ وخلف الأحمر إلى أن يُنحت من اسميهما علم، تنوس دلالته بينهما، وهو خلف بن أحمر، فقد روى العينيّ لابن مقبل قوله: «أَلا يا دِيارَ الحَيِّ بالسَّبُعانِ... (الأبيات)»، ثمّ أضاف: «قائله هو تميم بن أُبَيّ بن مقبل، شاعر مجيد فائق، ونسبه ابن هشام إلى خلف بن أحمر، وهو غير صحيح»[3]. وأمّا مصادر هذا الشعر، فما وجدت فيها إلاّ السهيليّ[4] ينسبه إلى ابن أحمر، ثمّ وجدت صاحب (معجم البلدان)[5] ينشده لابن أحمر وابن مقبل معاً، ورأيت نحو (28) مصدراً[6]، تتّفق على روايته لابن مقبل، وممّا يؤكّد نسبته إلى مقبل أنّ هذه الأبيات جزء من قصيدة لابن مقبل في أصل ديوانه[7].

وثمّة صورة أخرى من صور الاضطراب في رواية شعر ابن أحمر، فقد رأينا شيئاً من هذا بينه وبين أفراد أسرته ممّن عرف بقول الشعر بين الرواة، ومن ذلك رجز متنازع بينه وبين ابن عمّه تميم بن العَمَرَّد، وأوّله[8]:

أَبـي الَّـذي أَخْـنَـبَ رِجْـلَ ابْـنِ الـصَّـعِـقْ

(1) اللسان (تلن).
(2) ديوان جميل بن معمر 229.
(3) المقاصد النحويّة 4/ 542، وانظر: القطعة 47/ 1 ـ 3 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(4) الروض الأنف 1/ 38.
(5) معجم البلدان 3/ 185.
(6) انظر: تخريج القطعة السّابعة والأربعين في آخر شعر ابن أحمر.
(7) ديوان ابن مقبل 335.
(8) انظر: القطعة 33/ 1 ـ 3 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).

وهذا الرجز أورده لابن أحمر اليزيديّ والأزهريّ والجوهريّ وابن برّيّ[1]، ثمّ نبّه التَّبْريزيّ على أنّه لابن العَمَرَّد، وينقل ابن برّيّ هذا التنبيه، ويقول: «هذا البيت لتميم بن العَمَرَّد بن عامر بن عبدشمس، وكان العَمَرَّد طعن يزيد بن الصَّعِق، فأعرجه. قال الشيخ: وقد وجدته أنا أيضاً في شعر ابن أحمر الباهليّ»[2]، ثمّ ينبّه ابن برّيّ نفسه على ذلك، فقد أنشد هذا الرجز، وقال: «هو لتميم بن العَمَرَّد»[3]، وهذا ممّا يرجّح نسبته إلى ابن العَمَرَّد الذي كان شاعراً، روى له الطَّيَالِسيّ هجاءً في أعشى بني بَيْبَة[4].

ومن ذلك أيضاً ما اضطربت نسبته بينه وبين ابن عمّه الأزرق بن طرفة بن العَمَرَّد، وهو[5]:

رَمـانـي بـأَمْـرٍ كُـنْـتُ مِـنْـهُ ووالِـدي بَـرِيّـاً، ومِـنْ جُـولِ الـطَّـوِيِّ رَمـانـي
دَعـانِيَ لِـصّـاً في لُـصـوصٍ، ومـا دَعـا بِـهـا والـدي فـيـمـا مَـضـى رَجُـلان

وهذا الشعر أوّل ما جاء في (الكتاب)[6] لابن أحمر، ثمّ نبّه ابن السيرافيّ في (شرحه أبيات سيبويه) على أنّه لابن طرفة، فقال: «وجدت الشعر في الكتاب منسوباً إلى ابن أحمر، والذي روت الرواة أنّه تنازع ناس من بني باهلة من بني فَرّاص وناس من بني قُرّة بن هبيرة بن سَلَمة بن قُشَير حتّى صاروا إلى السلطان، فقال بعض القُشَيريّين للسلطان: إنّ الأزرق بن طرفة ـ وهو من بني باهلة ـ لصّ

(1) الأمالي 139، وتهذيب اللغة 7/ 444، والصحاح 123، والتنبيه والإيضاح 1/ 73.
(2) التنبيه والإيضاح 1/ 73. وعنه في اللسان، والتاج (خنب).
(3) التاج (صعق).
(4) انظر: المكاثرة 29.
(5) القطعة 48/ 1 ـ 2 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(6) الكتاب 1/ 75. وقال البغداديّ: «إنّ سيبويه إذا استشهد ببيت لم يذكر ناظمه، وأمّا الأبيات المنسوبة في كتابه إلى قائليها، فالنسبة حادثة بعده، اعتنى بنسبتها أبو عمرو الجرميّ» خزانة الأدب 1/ 178.

بن لصّ، ليُغروه به، فقال قصيدةً، فيها: رَماني بأَمْرٍ... (البيتان)»[1]، ومن الرواة من نسبه إلى ابن أحمر كالبَطَلْيَوْسيّ وياقوت[2]، ومنهم من عزاه إلى الأزرق بن طرفة كالزَّبيديّ[3]، ومنهم من أورد الروايتين معاً كابن منظور الذي نقل عن ابن برّيّ قوله: «البيت لابن أحمر، قال: وقيل: هو للأزرق بن طرفة بن العَمَرَّد الفَرّاصيّ»[4]، وهؤلاء الرواة لم يشيروا البتّة إلى تنبيه ابن السيرافيّ الذي مال بهذا الشعر إلى ابن طرفة، فجعلنا نرجّح أنّه ليس لابن أحمر.

ويمكن أن يضاف إلى هذه الصورة من الاضطراب ما ترجّحت نسبته بين ابن أحمر و(الباهليّ)، ومن هذا ما رواه صاحب (مجموعة المعاني)[5] للباهليّ، فقال[6]:

لَأَشْكُرَنَّكَ مَعْروفاً، هَمَمْتَ بِهِ إِنَّ اهْتِمامَكَ بالمَعْروفِ مَعْروفُ
ولا أَلومُكَ إِذْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ والشَّيْءُ بالقَدَرِ المَحْتومِ مَصْروفُ

ولذلك وهم محقّق المجموعة، فنسب هذا الشعر إلى ابن أحمر بلا سند[7]، ولم أجده له فيما بين يديّ من المصادر، وإنّما هو لعمرو بن مبارك الباهليّ[8].

وثمّة صورة ثالثة من الاضطراب في رواية شعره، مصدرها التحريف بين

(1) شرح أبيات سيبويه 1/ 248.
(2) الإنصاف 77، ومعجم البلدان 1/ 390.
(3) التاج (جول).
(4) اللسان (جول).
(5) مجموعة المعاني 245.
(6) القطعة 30/ 1 ـ 2 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(7) مجموعة المعاني: فهرس الأعلام 609.
(8) الدرّ الفريد 5/ 440.

اسمه وأسماء شعراء آخرين، توشك أسماؤهم جميعاً أن تتشابه في الرسم، فالتبس الأمر على بعض الرواة أو النسّاخ، واختلط شعر هؤلاء بشعر ابن أحمر. فقد وجدت تداخلاً واسعاً بين ابن أحمر ومُزاحم العُقَيْليّ، ثمّ رأيت أنّ من المحتمل جدّاً أن يَحرِف الرواة أو النسّاخ اسم الشاعر العُقَيْليّ عن (مزاحم) إلى (ابن أحمر)، أو أن يحرفوا اسم شاعرنا الباهليّ عن (ابن أحمر) إلى (مزاحم)، فمن أمثلة النوع الأوّل ما روي في (المحكم) و(اللسان)[1] لابن أحمر[2]:

فلَمَّا تَجَلّى ما تَجَلَّى مِنَ الدُّجى وشَمَّرَ صَعْلٌ كالخَيالِ المُخَيَّلِ

فابن سيده عزاه إلى ابن أحمر، ثمّ تبعه في هذا ابن منظور، لأنّ (المحكم) أحد مصادره، فنسبه إلى ابن أحمر أيضاً، وليس هذا بصحيح، لأنّ البيت لمزاحم العُقَيْليّ في شعره من قصيدة[3]، عدّتها (113) بيتاً، وإزاء هذا الاضطراب نرى أنّ ثمّة وهماً، عطف بعبارة ابن سيده من (مزاحم) إلى (ابن أحمر)، لأنّ البيت متمكّن من موضعه في قصيدة العُقَيليّ.

ومن أمثلة النوع الثاني ما جاء في تهذيب اللغة[4] لمزاحم، فنقله عنه محقّق شعره إلى ديوانه[5] [6]:

كبَيْضَةِ أُدْحِيٍّ بوَعْسِ خَميلَةٍ يُهَفْهِفُها هَيْقٌ بجُؤْشُوشِهِ صَعْلُ

وهذا البيت لابن أحمر في (العباب) و(اللسان)[7]، فروايته في مصدرين

(1) المحكم 5/ 159، واللسان (خيل).
(2) القطعة 36/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(3) شعر مزاحم العقيليّ 119.
(4) تهذيب اللغة 5/ 378.
(5) شعر مزاحم العقيليّ 113.
(6) القصيدة 44/ 3.
(7) العباب/ الفاء 658، واللسان (هفف).

لابن أحمر أرجح من روايته في مصدر واحد لمزاحم العُقيليّ، فلعلّ وهماً، مال بعبارة الأزهريّ من «قال ابن أحمر» إلى «قال مزاحم».

ومن الوهم الغريب بين هذين الشاعرين أن يُنحت من اسميهما علم واحد، تنوس دلالته بينهما، وهو مزاحم بن أحمر، فقد ذكر الأستاذ محمّد أبو الفضل إبراهيم في تحقيقه (أمالي) الشريف المرتضى أنّ في أحد أصوله بيتاً لمزاحم بن أحمر، وأنّه في أصوله الأخرى لابن أحمر، فرأى أن يثبت الرواية الأخرى، وهي: «قال ابن أحمر:

إذا عَصَفَتْ رَسْماً، فلَيْسَ بدائِمٍ بِهِ وَتِدٌ إلاّ تَحِلَّةَ مُقْسِمِ»[1].

وحسناً فعل، إذ روى البيت له، فقد وجدت الأزهريّ[2] يعزوه إليه في قطعة من قصيدة، ثمّ يتبعه ابن منظور[3] في ذلك، ومن الأعجب أن يُنقل البيت عن تلك (الأمالي) إلى شعر العُقيليّ[4] دون أن يتثبّت محقّقه من هذا الخلط الواضح.

ولم يكن مزاحم العُقيليّ هو الشاعر الوحيد الذي اختلط شعره بشعر ابن أحمر لمجرّد وهم، وقع بين اسميهما، وإنّما نجد شعراء آخرين، نذكر منهم أيضاً: ابن مقبل، إذ رأينا تداخلاً واسعاً بينهما، لا مردّ له غير الوهم والتحريف وما أشبه ذلك، ومن أمثلته ما رواه البديعيّ[5] لابن أحمر[6]:

إنّي أُقَيِّدُ بالمَأْثورِ راحِلَتي ولا أُبالي، وإنْ كُنّا عَلى سَفَر

(1) الأمالي 2/ 50، وانظر: القصيدة 49/ 10.
(2) تهذيب اللغة 15/ 262.
(3) اللسان (أبر).
(4) شعر مزاحم العقيليّ 128.
(5) الصبح المنبيّ 104.
(6) القطعة 13/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).

وليس هذا غير وهم، لأنّ عدداً من الرواة اتّفقوا على روايته لابن مقبل كابن قتيبة والتَّبْريزيّ والبَطَلْيَوْسيّ والخوارزميّ وياقوت والصَّغَانيّ وابن منظور والزَّبيديّ[1]، ثمّ كان البيت متمكّناً في موضعه من قصيدة في أصل ديوانه[2].

ومثله أيضاً ما رواه الزَّمَخْشريّ[3] لابن أحمر[4]:

كَـريـمُ الـنِّـجَـارِ حَـمـى ظَـهْـرَهُ فـلَـمْ يَـرْتَـزِىْء بـرُكـوبٍ زُبـالا

وليس هذا صحيحاً، لأنّ البيت لابن مقبل من قصيدة في أصل ديوانه[5]، وروايته له في غير مصدر تؤكّد ذلك[6].

ومثله ما رواه ابن فارس لابن مقبل[7]، فجعله محقّق شعره في ذيل ديوانه[8] [9]:

ولا تَـقـولُـنَّ زَهْـواً مـا تُـخَـبِّـرُنـي لَمْ يَتْرُكِ الشَّيْبُ لي زَهْواً ولا العَوَرُ

وهذا البيت ألصق بابن أحمر وعلّته، فقد رأينا في دراستنا عوره أنّه كان الأكثر إحساساً بعوره بين عوران قيس الخمسة، ومنهم ابن مقبل نفسه، ثمّ وجدنا البيت نفسه متمكّناً في موضعه من مشوبة ابن أحمر التي اختارها من شعره

(1) المعاني الكبير 1079، وشروح سقط الزند 3/ 1170 و1171، ومعجم البلدان 2/ 70، والتكملة 1/ 406، واللسان، والتاج (أثر).
(2) ديوان ابن مقبل 78.
(3) أساس البلاغة (زبل).
(4) القطعة 42/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(5) ديوان ابن مقبل 237.
(6) الحيوان 4/ 12، وجمهرة اللغة 1/ 282، وديوان الأدب 1/ 466، وتهذيب اللغة 13/ 216، والصحاح 1715، والتنبيه والإيضاح 1/ 18، والعباب/ الهمزة 101، واللسان، والتاج (رزأ) و(زبل).
(7) مقاييس اللغة 3/ 30.
(8) ديوان ابن مقبل 364.
(9) القصيدة 18/ 51.

أبو زيد القرشيّ في (جمهرة أشعار العرب)[1] كما وجدنا من الرواة من عزاه إلى ابن أحمر كابن دريد والأزهريّ والجوهريّ والصَّغَانيّ وابن منظور والزَّبيديّ[2]، فترجّحت نسبته إلى ابن أحمر.

ومثله ما رواه الأزهريّ[3] لابن مقبل مرّةً ثمّ لابن أحمر مرّةً أخرى[4]:

مِـنْ دونِـهِـمْ إِنْ جِـئْـتَـهُـمْ سَـمَـراً حَـيٌّ حِـلالٌ لَـمْـلَـمٌ عَـكْـرُ

فكأنّ الأزهريّ قد تنبّه على روايته، فعزاه إلى صاحبه ابن أحمر، وممّن عزاه إليه أيضاً أبو عبيدة وابن قتيبة والأزهريّ وابن مطرف والصَّغَانيّ وابن منظور والزَّبيديّ[5]، فالأرجح أنّ البيت لابن أحمر، وليس لابن مقبل الذي خلا ديوانه منه ومن نظائر له في شعره.

ومن الطريف أن يتنازع ابن أحمر وابن مقبل بيتاً واحداً، فينسب الزَّمَخْشَريّ صدره إلى الأوّل، ويعزو عجزه إلى الآخر، ويقول: «قال ابن أحمر:

مـا أُمُّ غُـفْـرٍ عَـلـى دَعْـجـاءِ ذي عَـلَـقٍ

وقال ابن مقبل:

يَـنْـفـي الـقَـراميـدُ مِـنْـهـا الأَعْـصَـمُ الـوَقِـلُ»[6].

(1) جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 305 و(ط. البجاويّ) 852.

(2) جمهرة اللغة 3/ 22، وتهذيب اللغة 6/ 372، والصحاح 2371، والتكملة 6/ 432، واللسان، والتاج (زهو).

(3) تهذيب اللّغة 12/ 419 لابن مقبل، و15/ 348 لابن أحمر.

(4) القصيدة 20/ 31.

(5) مجاز القرآن 2/ 60، وتفسير غريب القرآن 298، وتهذيب اللغة 15/ 348، وكتاب القرطين 2/ 34، والتكملة 3/ 35، واللسان، والتاج (سمر) و(لمم).

(6) الجبال 98، وانظر: القصيدة 46/ 4، ولم يورده محقّق ديوان ابن مقبل في ذيل الديوان.

والظاهر أنّ ثمّة تزيّداً، أصاب رواية الزَّمَخْشَريّ، فزجّ عبارة «وقال ابن مقبل» بين صدر البيت وعجزه، لأنّ مصادر البيت أنشدته لابن أحمر في (18) موضعاً منها[1]، أوردها رواة من أمثال أبي عبيدة وابن قتيبة وابن دريد وأبي بكر الزُّبيديّ وغيرهم، فالأرجح أنّ البيت لابن أحمر لا لابن مقبل.

وثمّة صور أخرى من الاضطراب بين ابن أحمر وشعراء آخرين، لم نجد ما يجمع بينها سوى وهم الرواة وخلطهم، وأغلب هذا الاضطراب لا يعدو أن يكون في أبيات فرادى، رأينا لبعضها نظائر في شعر ابن أحمر، فألحقناه بالصحيح منه بعد أن أجمع غير مصدر على نسبته إليه، ورأينا بعضها الآخر متمكّناً في موضعه من شعر غيره، فدفعناه إلى صاحبه بعد أن أكّد ذلك غير مصدر.

وأمّا ما رجح لدينا أنّه لابن أحمر دون غيره من الشعراء، فمن أمثلته ما جاء في أصول (التكملة)[2] لابن أحمر وجرير[3]:

أَلَمْ تَسْأَلْ بفاضِجَةَ الدِّيارا مَتى حَلَّ الجَميعُ بِها وسارا

فهذا البيت وجده محقّق (التكملة) في أصل منه لابن أحمر وفي أصل آخر لجرير، ثمّ جعله للأوّل، فلعلّه رأى الصغانيّ في موضع آخر[4] من الكتاب ذاته يعزوه إليه، ومثله في ذلك الأزهريّ وابن سيده والبكريّ وابن منظور والزَّبيديّ[5]، فالبيت ليس لجرير، ولا هو في ديوانه، فيبقى لابن أحمر مطلعاً لإحدى قصائده.

(1) انظر: تخريج البيت الرابع من القصيدة السادسة والأربعين في آخر شعر ابن أحمر.
(2) التكملة 1/ 480.
(3) القصيدة 32/ 1.
(4) التكملة 2/ 77.
(5) تهذيب اللغة 10/ 559، والمحكم 3/ 96، ومعجم ما استعجم 1013، واللسان، والتاج (فضج).

ومنه ما رواه صاحب (المقرّب)[1] للأعشى[2]:

مَـدَّتْ عَـلَـيْـهِ الـمُـلْـكَ أَطْـنـابَـهـا كَـأْسٌ رَنَـوْنَـاةٌ وطِـرْفٌ طِـمِـرْ

ولكنّ البيت أحد شوارد ابن أحمر، فقد كان شاهد أهل اللغة على حرف، لم يُسمع إلاّ في شعره، وهو رَنَوْنَاة، أي: دائمة، وروي له في نحو (27) موضعاً من مصادر[3]، أذكر من أصحابها: الأصمعيّ وابن قتيبة وابن دريد والأنباريّ والأزهريّ وابن جنّيّ وابن فارس والجوهريّ والمعرّيّ وابن سيده.. حتّى إنّ بعضهم قد روى البيت في قطعة، فبتّ بذلك أدنى شكّ في نسبته إلى ابن أحمر.

ومنه ما اضطربت عدّة مصادر في روايته لحميد والطِّرِمّاح والفرزدق وابن أحمر، وهو[4]:

وإن قـالَ غـاوٍ مِـنْ تَـنـوخَ قَـصـيـدَةً بِـهـا جَـرَبٌ عُـدَّتْ عَـلَـيَّ بـزَوْبَـرا
ويَـنْـطِـقُـهـا غَـيْـري، وأَكْـلَـفُ حَـمْـلَـهـا فـهَـذا قَـضـاءٌ حَـقُّـه أَنْ يُـغَـيَّـرا

فقد أنشد هذا الشعر البصريّ[5] لحميد، ولكنّه لم يرد في ديوانه، وليس له نظائر في شعره، ورواه للفرزدق أبو عبيدة والأزهريّ والأنباريّ والعكبريّ والبغداديّ[6]، وعزاه التبريزيّ[7] إلى ابن أحمر والفرزدق معاً، وأورد الأوّل

(1) المقرّب 1/ 162، ولم أجد البيت في ديوان الأعشى.
(2) القصيدة 35/ 9.
(3) انظر: تخريج البيت التاسع من القصيدة الخامسة والثلاثين في آخر شعر ابن أحمر.
(4) القصيدة 28/ 15 ـ 16.
(5) الحماسة البصريّة 2/ 13.
(6) شرح النقائض 215، وتهذيب اللغة 3/ 375 و13/ 198، والإنصاف في مسائل الخلاف 495، والتبيان 1/ 278، وخزانة الأدب 4/ 379.
(7) كنز الحفّاظ 503.

منهما ابن يعيش[1] للطِّرِمّاح، فنقل عنه إلى ذيل ديوانه[2]. وأمّا في روايته لابن أحمر، فقد اتّفق في ذلك كلّ من: ابن قتيبة وابن دريد والقاليّ وابن فارس والجوهريّ والبكريّ وابن برّيّ والصَّغَانيّ وابن منظور والبغداديّ والزَّبيديّ[3] إلاّ أنّ الصَّغَانيّ والزَّبيديّ تفرّدا بالتنبيه على أنّ الفرزدق تنحّل بيت ابن أحمر:

وإِنْ قالَ غاوٍ مِنْ تَنوخَ قَصيدَةً بِها جَرَبٌ عُدَّتْ عَلَيَّ بزَوْبَرا

فقال:

إِذا قالَ غاوٍ مِنْ مَعَدٍ قَصيدَةً بِها جَرَبٌ كانَتْ عَلَيَّ بزَوْبَرا

فالفرزدق تنحّل البيتين السابقين معاً حتّى إنّه أمعن في الإغارة عليهما، فوقعا في ديوانه ضمن قصيدتين[4]، وليس هذا بغريب عن الفرزدق الذي كان يغير على شعر غيره من الشعراء، ويسرق أفذاذ أبياتهم[5] حتّى إنّ الأصمعيّ قال: «تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة، وكان يكابر»[6]، وإذا كنّا نرى للبيتين نظائر في شعر ابن أحمر، فإنّنا نرجّح بعد هذا كلّه أن يكونا لابن أحمر، وليس للفرزدق أو لحميد أو للطرمّاح مدخل فيهما سوى وهم الرواة وخلطهم بين الأشعار.

ومنه ما أنشد في عدّة مصادر لذي الرُّمَّة[7]:

(1) شرح المفصّل 1/ 38.
(2) ديوان الطرمّاح 574.
(3) المعاني الكبير 1178، والاشتقاق 48، والأمالي 1/ 249، ومجمل اللغة 447، ومقاييس اللغة 3/ 44، والصحاح 667، وسمط اللآلئ 554، والتنبيه والإيضاح 2/ 127، والتكملة 3/ 3، واللسان (زبر)، وخزانة الأدب 11، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 133، والتاج (زبر2).
(4) ديوان الفرزدق 206 و296.
(5) انظر: الموشّح 171، والممتع 234، والعمدة 2/ 285، وخزانة الأدب 1/ 78.
(6) مراتب النحويين 49.
(7) القصيدة 48/ 7.

وَقَفْنَ عَلى العَجَالِزِ نِصْفَ يَوْمٍ وأَدَّيْنَ الأَواصِرَ والخِلالا

فأبو الطيّب اللغويّ والأزهريّ وياقوت وابن منظور والزَّبيديّ[1] رووه لذي الرُّمَّة، فنقل عنهم إلى ذيل ديوانه[2]، ولكنّ الصَّغَانيّ نبّه على روايته لابن أحمر، فقال: «لم أجد البيت في شعر ذي الرُّمَّة في قصيدته التي أوّلها[3]:

أَراحَ فَريقُ جيرَتِكِ الجِمالا كَأَنَّهُمُ يُريدونَ احْتِمالا

في نسختي من ديوانه التي قابلتها، وصحّحتها باليمن والعراق، ولكنّه يقطُر منه قطرات عذوبة أنفاسه وسلاسة ألفاظه، وإنّما هو لابن أحمر»[4]، والبكريّ يرويه لابن أحمر في قطعة[5]، لها نظائر في شعره، وهذا ما يرجّح نسبته إليه دون ذي الرُّمَّة.

ومنه شطر رواه ابن منظور لأوس بن حَجَر[6]، ثمّ تبعه الزَّبيديّ في روايته هذه[7]، فنقل عنهما دون صدر إلى شعر ابن حجر[8]:

أَهابِيُّ سَفْسافٍ مِنَ التُّرْبِ تَوْأَمِ

وهذا الشطر عجز بيت لابن أحمر، رواه ابن منظور نفسه في موضع آخر من (اللسان)، ثمّ تبعه في ذلك الزَّبيديّ، فقالا: «قال ابن أحمر يصف الريح:

لَها مُنْخُلٌ تُذري إِذا عَصَفَتْ بِهِ أَهابيَّ سَفْساف مِنَ التُّرْبِ تَوْأَمِ»[9].

(1) المثنّى 74، وتهذيب اللغة 3/ 314، ومعجم البلدان 4/ 86، واللسان، والتاج (عجلز).
(2) ديوان ذي الرُّمَّة 1899.
(3) انظر: القصيدة الواحدة والخمسين من ديوان ذي الرُّمَّة 1506.
(4) التكملة 3/ 280.
(5) معجم ما استعجم 1086.
(6) اللسان (هبي).
(7) التاج (هبي).
(8) شعر أوس بن حجر 124.
(9) اللسان، والتاج (ذرا)، وانظر: القصيدة 49/ 13.

وأنشد البيت لابن أحمر أيضاً القاليّ والبكريّ والبَطَلْيَوْسيّ[1] إلاّ أنّ البكريّ تفرّد بروايته في قطعة، لها نظائر في شعر ابن أحمر، فلعلّ وهماً عدل بعبارة ابن منظور من (ابن أحمر) إلى (ابن حجر).

ومنه ما جاء في (التاج)[2] لأبي النجم[3]:

أُراقِبُ النَّجْمَ، كَأَنِّي مولَعٌ بحَيْث يَجْري النَّجْمُ حَتّى يَقْتَحِمْ

ولكنّ البيت لابن أحمر في المادّة ذاتها من (تهذيب اللغة) و(اللسان)[4] اللذين نقل عنهما الزَّبيديّ، وكانا من أهمّ مصادره[5]، فلا ريب في أنّ ثمّة وهماً في روايته لأبي النجم، لا مصدر له إلاّ عبارة «أراقب النجم» في البيت ذاته.

وهكذا رأينا أنّ ثمّة أدلّةً، هيّأتها لنا المصادر، فجعلتنا نميل بهذا البيت أو ذاك إلى ابن أحمر دون غيره من الشعراء، وأمثال هذه الأدلّة تبعد عن ابن أحمر ما هو دخيل على شعره، فإذا وجدنا شعراً، تمكّن في موضعه من شعر غيره، دفعناه إلى صاحبه بعد أن أجمع غير مصدر على نسبته إليه، وهذا الشعر الذي رجح لدينا أنّه ليس لابن أحمر لم يكن الاضطراب في روايته وقفاً على القدماء، وإنّما تعدّاه إلى المحدثين.

وأمّا ما وقعت عليه لدى بعض المحدثين الذين عملوا بصورة أو بأخرى في شعر ابن أحمر، فلم يكن كثيراً، إذا ما قورن بما وقفنا عليه لدى القدماء، ومن أمثلته ما وهم الدكتور حسين عطوان في روايته لابن أحمر، فجعله في

(1) الأمالي 1/ 204، وسمط اللآلئ 481، وذكر الفرق 112.
(2) التاج (قحم)، ولم يورده محقّق ديوان أبي النجم في شعره.
(3) القصيدة 54/ 4.
(4) تهذيب اللغة 4/ 79، واللسان (قحم).
(5) انظر: مقدّمة التاج (ط. الكويت) 1/ 5.

الصحيح من شعره، لأنّه كان يظنّ أنّ أمثال هذه العبارة في المعجمات «ومثله قوله» بعد بيت لابن أحمر تعني أنّ الشاعر ذاته قد قال البيت الآتي أيضاً إلاّ أنّ هذه العبارة لا تعني البتّة سوى قول قائل على عادة كتب اللغة، ومثل هذا بيت رواه الدكتور عطوان[1] عن (اللسان)[2]:

كَـأَنْ لَـمْ يَـكُـنْ مِـنَّـا الـفِـراضُ مَـظِـنَّـةً ولَـمْ يُـمْـسِ يَـوْمـاً مِـلْـكُـهـا بـيَـمـيـنـي

وابن منظور أورده بلا عزو، فقال بعد بيت لابن أحمر: «وأمّا قوله أنشده ابن الأعرابيّ: كَأَنْ... (البيت)»[3]، ثمّ تبعه الزَّبيديّ[4]، ورواه بلا نسبة أيضاً، فالبيت لم يعز إلى ابن أحمر في (اللسان)، وإنّما هو لأبي شافع العامريّ من قصيدة، رواها ياقوت في (معجمه)[5].

ومثله أيضاً بيت رواه[6] من (اللسان)[7]:

إِذا نَـزَلَ الـشِّـتـاءُ بـدارِ قَـوْمٍ تَـجَـنَّـبَ دارَ بَـيْـتِـهُـمُ الـشِّـتـاءُ

ولكنّ ابن منظور في هذا الموضع لم ينسبه، وإنّما قال بعد بيت لابن أحمر: «مثله قوله: إِذا نَزَلَ... (البيت)»[8]، أي: قول قائل، ثمّ رواه في موضعين آخرين من المعجم ذاته للحطيئة، فقال في أحدهما: «قال للحطيئة، وجعل الشتاء قحطاً: إِذا نَزَلَ... (البيت)»[9]، وقال في الآخر: «ومنه قول

(1) شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 166.
(2) القطعة 49/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(3) اللسان (فرض).
(4) التاج (فرض).
(5) معجم البلدان 4/ 244.
(6) شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 39.
(7) القطعة 1 / 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(8) اللسان (قفا).
(9) اللسان (شتا).

الحطيئة: إِذا نَزَلَ... (البيت)»[1]. وأنشده للحطيئة ابن قتيبة والمبرّد والرازي وابن طباطبا والأنباريّ والأزهريّ وأبي هلال العسكريّ والمعريّ وابن سيده والصَّغَانيّ والبغداديّ والزَّبيديّ[2]، وهو من قصيدة في أصل ديوانه[3]، فالبيت للحطيئة لا لابن أحمر.

ومثله شطر رواه[4] بلا مصراع من (الأزمنة والأمكنة)[5]:

ومـالَ لِـقِـنْـوانٍ مِـنَ الـبُـسْـرِ أَحْـمَـرا

ولكنّ المرزوقيّ أورده دون نسبة، فقال بعد بيت لابن أحمر: «ومثله من الحال قوله: ومالَ... (البيت)»[6]، أي قول قائل من الشعراء، وهو هنا امرؤ القيس، فقد كان عجز بيت من قصيدة في أصل ديوانه[7]، وأنشده له الرازيّ والأزهريّ والزَّمَخْشَريّ وابن منظور والزَّبيديّ[8]، وهذا ممّا لا يدع مجالاً للشكّ في أنّ البيت لامرئ القيس لا لابن أحمر.

ومثله بيت رواه[9] عن (رسالة الغفران)[10]:

---

(1) اللسان (عضب).

(2) غريب الحديث 1/ 466، والكامل 2/ 192، والزّينة 2/ 130، وعيار الشعر 110، والأضداد 167، وتهذيب اللغة 11/ 396، والصناعتين 402، والصاهل والشاحج 587، والمخصّص 16/ 29، والتكملة 6/ 7، وخزانة الأدب 3/ 307، والتاج (شتا) و(عضب).

(3) ديوان الحطيئة 102.

(4) شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 81.

(5) القطعة 23/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).

(6) الأزمنة والأمكنة 1/ 297.

(7) ديوان امرئ القيس 57.

(8) الزينة 2/ 81، وتهذيب اللغة 14/ 229، وأساس البلاغة، واللسان، والتاج (أيد).

(9) شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 123.

(10) القطعة 31/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).

خُذا وَجْهَ هَرْشى أَوْ قَفاها، فإِنَّهُ كِلا جانِبي هَرْشى لَهُنَّ طَريقُ

ولكنّ المعريّ لم يعزه إلى ابن أحمر، وإنّما جعله يتمثّل به، لأنّ عجزه مَثَل سائر عند العرب[1]، وقال: «يقول عمرو متمثّلاً: خُذا وَجْهَ... (البيت)»[2]، فظنّ الدكتور عطوان أنّ البيت له، وجعله في الصحيح من شعره، وهو في غير مصدر لعقيل بن عُلَّفة المُرِّيّ، فلا مدخل لابن أحمر فيه.

وهكذا نرى أنّ الدكتور عطوان وهم في روايته عدّة أبيات لابن أحمر، ولم يكن هنالك سبب له إلاّ أمثال تلك العبارات التي ترد في معجماتنا، لتعني قول قائل من الشعراء. وثمّة صورة أخرى من صور الاضطراب نراها لدى محقّقين، نسبوا أبياتاً إلى ابن أحمر دون أن يصرّحوا بمصادرهم، ومن هذا ما رواه البطليوسيّ[3] بلا عزو[4]:

فلَوْ كانَ في لَيْلى شَذاً مِنْ خُصومَةٍ لَلَوَّيْتُ أَعْناقَ الخُصومِ المَلاوِيا

ولكنّ محقّقه يعزوه إلى ابن أحمر، ويقول: «البيت لابن أحمر في ديوانه الذي صنعته، وحقّقته، وأعددته للطبع»[5]، فربّما كان لديه مصادر، لم يتهيّأ لنا أن نقف عليها إلاّ أنّ ذلك يبدو الآن غير صحيح حتّى نقع على ما يخالفه، لأنّ صاحب (اللسان)[6] أورده لمجنون بني عامر، فنقله عنه محقّق شعره إلى ديوانه[7].

(1) انظر: جمهرة الأمثال 2/ 418، وفصل المقال 348، ومجمع الأمثال 2/ 148، والمستقصى 2/ 221، ونشوة الطرب 735، وتمثال الأمثال 511.
(2) رسالة الغفران 240.
(3) الاسم والمسمّى 340.
(4) القطعة 53/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(5) الاسم والمسمّى 343.
(6) اللسان (لوي).
(7) ديوان قيس بن الملوّح 313.

ومثله ما رواه الأنباريّ[1] دون نسبة[2]:

وإِذا الــضَّــيْــفُ أَتــانــا طــارِقــاً كــانَ بُــعْــدُ الــنّــارِ لــلــضَّــيْــف أُنُــرْ

فقال محقّقه: «لم أهتد إلى قائله أو مظانّه»، ولكنّه في فهرس الأشعار ينسبه إلى ابن أحمر[3]، فلعلّه وقع في سهو أو خطأ، واحتمال هذا وارد حتّى تقوم البيّنة والدليل.

وهكذا نجد أنّ الاضطراب في رواية شعر ابن أحمر كان واسعاً، شاع في مصادره، ودعا إليه غير سبب، فتنوّعت صوره، واختلفت أشكاله. ولعلّ مناقشة كلّ ذلك جعلنا على بيّنة ممّا لابن أحمر وممّا ليس له، فأصبح من اليسير أن نتّجه من خلال شعره الموثّق إلى دراسة موضوعات شعره وخصائصه الفنّيّة.

(1) المذكّر والمؤنّث 408.
(2) القطعة 25/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(3) المذكّر والمؤنّث 818.

الفصل الخامس
موضوعات شعره

إنّ شهرة ابن أحمر لم تكن تقوم على موضوع محدّد من الموضوعات، يسهر على تجويده، ويجعله رئيساً بين أغراض شعره المختلفة، فيميّزه من سائر الشعراء المخضرمين، بل قامت هذه الشهرة بوجه خاصّ على فصاحة كلامه وكثرة غريبه، لأنّه ذكر حروفاً من الغريب، لا يُعلم أحد أتى بها من قبلُ. وقد طرق معظم موضوعات الشعر القديم، فأورده المفضِّل بين «فحول أهل نجد الذين ذمّوا، ومدحوا، وذهبوا في الشعر كلّ مذهب»[1]، وحَسْبُ ابن أحمر فضلاً أنّه أضفى على فنّه شيئاً من ذاته، ومضى يصدر في أشعاره عن خُلُق كريم حتّى إذا ما هجا لم يقذع، وإذا ما تغزّل لم يُسفّ، وإذا ما مدح لم يتكسّب.

1 ـ الغزل:

أخذ الغزل بمقدّمة القصيدة الجاهليّة، فكان الشاعر الجاهليّ يبدأ أشعاره بالحديث عن ديار الحبيبة وأطلالها وما يتّصل بهذا النهج التقليديّ من بكاء وحنين

(1) جمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 107 و(ط. صادر) 81.

وذكرى، وربّما عرض غزله في ثنايا قصيدته، يعبّر عن مغامرة أو تجربة، ملأت جوارحه، فعانى تباريح الهوى ولواعج الشوق. وقد حرص ابن أحمر على هذه الحدود الفنّيّة للقصيدة، فلم يخرج عن سننها كما احتفظ لنا بصور، تصف ذكريات شباب، يظلّ حسرةً لا تبرح، وتفيض بتباريح هوى، يبقى لوعةً لا تريم، وإذا كان ابن أحمر قد أشار إلى شيء من اللهو والمجون، فإنّ ذلك ما كان ليبلغ حدّ صراحة سافرة، لأنّه لم يكن أسير طبع، يعطف به إلى اللذات، وكلّ ما تنقله المصادر من غزله يبدو كأنّه قد طُبع بالمدرسة النَّجْديّة أجمل طبع وأرقّه.

فإذا وقف بديار، عدت عليها يد الدهر، وسَفَتها الرياح الهُوج، كان لا بدّ أن يتذكّر امرأةً، يرسمها في خياله لا في قلبه، فيراها تُمسي كألواح السلاح، وتُصبح كالمهاة[1]:

حَيِّ الدِّيارَ بسَيْلَ فالقَهْرِ فجُبَابَةٍ فحِقاءَ فالوَجْرِ
حالَتْ، وحِيلَ بِها، وغَيَّرَها سَهْكُ المَلا وتَقادُمُ الدَّهْرِ
وازْدادَتِ الأَشْباحُ أَخْيِلَةً وتَعَلَّلَ الحِرْباءُ بالثَّغْرِ
لَيْسَتْ بشَوْشاةِ الحَديثِ ولا فُتُقٍ مُغالِبَةٍ عَلى الأَمْرِ
تُمْسي كأَلْواحِ السِّلاحِ، وتُضْـ ـحي كالمَهاةِ صَبيحَةَ القَطْرِ

وأمثال هذه الأوصاف المتداولة بين الشعراء لا تحمل نبضةً من قلبه أو خلجةً من روحه، لأنّها لا تصدر عن تجربة شعوريّة واقعيّة، وإنّما تأتي لتكون جزءاً من المقدّمة الطلليّة للقصيد العربيّ، فهي مجرّد أوصاف، لا أثر فيها لعاطفة ولا تجربة، فكان إذا استفتح بها يمرّ عجلاً، لا يتشكّى صبابةً، ولا يبثّ وجداً، وهو في هذا لا يختلف عن أضرابه من شعراء النسيب الذين يتّكئون على

(1) القصيدة 25/ 1، 3 ـ 6.

الأوصاف الحسيّة، فيعنون بوصف المحاسن الظاهرة، وقلّما يحفلون بتصوير ما يختلج في النفوس وما لا تراه العين من محاسن المرأة وأوصافها. وما اجتمع لدينا من غزله ليس إلاّ تمهيداً لقصائد، سار بها ابن أحمر على المنهج التقليديّ، فوقف بالمنزل، وذكر الحبيب، ومن هذه البقايا التي نلمح فيها أثر ذلك قوله(1):

مَنازِلاً مِنْ ذاتِ خَلْقٍ عَبْهَرٍ ... تُصْبي أَخا الحِلْمِ بأُنْسٍ وكَرَمْ
وجيدِ أَدْماءَ وعَيْنَيْ جُؤْذَرٍ ... لَبَّ بأَرْضٍ، لَمْ تَوَطَّأْها الغَنَمْ
وحاجِبٍ كالنُّونِ فيهِ بَسْطَةٌ ... أَجادَهُ الكاتِبُ خَطّاً بالقَلَمْ

ففي أمثال هذه الأبيات يستمرّ ابن أحمر في نهجه، فتارةً يرسم لامرأته صوراً مختلفةً، لا تحرّك في النفس عاطفةً، بل تعكس ذوق ابن أحمر ومعاصريه فيما يرونه مثلاً أعلى لجمال المرأة، فهي ذات خَلْق جميل، يسفر عن وجه ظبية وجيدها وعن عيني ولد بقرة وحشيّة وعن حاجب كالنون، وتارةً أخرى يضيق بهذا الجانب من النسيب، فيذكر المرأة مجرّدةً من الأوصاف، ويؤثر أن يسرع إلى غرضه، فلا وصف لمحاسنها، ولا تصوير لصلته بها، ففي إحدى لاميّاته ذكر جدوى، وقال(2):

شَطَّ المَزارُ بجَدْوى، وانْتَهى الأَمَلُ ... فلا خَيالٌ ولا عَهْدٌ ولا طَلَلُ
إلاَ رَجاءٌ فما نَدْري أَنُدْرِكُهُ ... أَمْ يَسْتَمِرُّ، فيَأْتي دونَهُ الأَجَلُ
شَيْخٌ شَآمٍ وأَفْنونٌ يَمانِيَةٌ ... مِنْ دونِها الهَوْلُ والمَوْماةُ والعِلَلُ

ثمّ خلص بُعيد هذا إلى مدح النعمان بن بشير الأنصاريّ في القصيدة ذاتها، فلا ريب في أنّ ابن أحمر لم يذكر جدوى وأطلالها على هذه الصورة إلاّ استجابةً للأعراف السائدة في القصيد العربيّ منذ أيّام الجاهليّة، ولو أنّ ثمّة

(1) القصيدة 54/ 1 ـ 3.
(2) القصيدة 46/ 1 ـ 3.

تجربةً شعوريّةً، ترتبط بديارها المقفرة، لاقتضته أن يصوّر بعض جوانب الماضي وذكرياته.

وابن أحمر في نسيبه لم يكن دؤوباً على الوقوف بالأطلال في أغلب قصائده، وإنّما كان يجعل من حسرته على شبابه وقوفاً مألوفاً لدى كثير من الشعراء القدماء، بل توشك لوعته هذه أن تكون توطئةً لأغلب أغراضه، فإذا ما شكا ظلم السُّعاة، فليس ثمّة تمهيد لشكواه إلاّ أن يندب شبابه[1]:

بانَ الشَّبابُ، وأَفْنى ضِعْفَهُ العُمُرُ لِلّهِ دَرُّكَ، أَيَّ العَيْشِ تَنْتَظِرُ

وإذا ما كان بين يدي ممدوحه، لم يجد مدخلاً إلى غايته سوى ذلك العهد الماضي[2]:

دَعْ ما تَقادَمَ مِنْ عَهْدِ الشَّبابِ، فقَدْ وَلَّى الشَّبابُ، وزادَ الشَّيْبُ والزَّعَرُ

وإذا ما ذكر مجلساً، حدّثنا عمّا فيه من سفه الصِّبا، فأوّل ما يأسى له شبابه الذي ولّى[3]:

بانَ الشَّبابُ، وأَخْلَفَ العُمْرُ وتَنَكَّرَ الإِخْوانُ والدَّهْرُ

فابن أحمر أسهم في الخروج على النهج المألوف حين وضع لهذه القصائد نظاماً خاصّاً، يتنكّب عن السبيل التقليديّ، وينمّ على أصالة شعريّة، ويظهر انسجاماً متيناً مع تجربته الذاتيّة، وليس ببعيد أن يكون ابن أحمر رائداً من روّاد هذه الظاهرة، شقّ طريقها، وعبّد سبيلها، فتتبّع خطواته كثير من الشعراء القدماء، إذ إنّنا نرى هذه التكأة الفنّيّة لدى سَلامة بن جَنْدَل وابن مقبل وعديّ بن زيد وكعب بن زهير وغيرهم، وكأنّ هذا الاستهلال بذكر الشيب والشباب قد

(1) القصيدة 18/ 1.
(2) القصيدة 19/ 1.
(3) القصيدة 20/ 1.

غدا مقدّمةً فنّيّةً واسعة المدى، نلقاها لدى شعراء الجاهليّة والإسلام معاً.

وأمّا غزله الذي يعرض في ثنايا أشعاره، فقد تلوّن بتجارب شخصيّة، وفاض بعواطف جيّاشة، فهو غزل وجدانيّ، يتحدّث عن حبّ حقيقيّ أو تجربة شعوريّة، كان ابن أحمر يخصّها بشيء من نفثات روحه، فيصوّر ما يتذكّره من ذكريات الشباب وما يعانيه من لواعج الهوى.. وما وصل إلينا من هذا الجانب لا يعدو أن يكون أشتاتاً، تناثرت في أضعاف المصادر، فلا تكاد الصور تبين، فإذا ما عثرنا على جانب غابت عنّا جوانب، وإذا ما أمسكنا بطرف منه أفلتت منّا أطراف. ففي هذه الأشتات نرى ابن أحمر يوادع من يحبّ، وينازعها بالرفق في سِرارها كلاماً، يشبّهه بقُضُب من الريحان، يفوح ريّاه، فهو كالروض، باكره مطر الربيع، ثمّ طالعه الشروق، فجفّت أعاليه، وتندّت أسافله:[1]

نـازَعْـتُـهـا بـالـهَـيْـنَـمـانِ، وغَـرَّهـا قِيْلي: ومَنْ لَكِ بالنَّصيحِ المُجْهِدِ
قُضُباً مِنَ الرَّيْحانِ غَلَّسَها النَّدى مـالَـتْ جَـنـاجِـنُـهُ، وأَسْـفَـلُـهُ نَـدِي

وربّما يتعلّل منها بشيء نَزْر، لا يبلغ بعض ما في نفسه من المراد إلاّ أنّه لا يتذلّل لرغائبه، ولا يستجيب لنوازعه، وقد غدا شيخاً، يرضى منها بحديث، يجعل الليل ناضراً[2]:

تَـغَـمَّـرْتُ مِـنْـهـا بَـعْـدَ مـا نَـفِـدَ الـصِّـبـا ولَـمْ يَـرْوَ مِـنْ ذي حـاجَـةٍ مَـنْ تَـغَـمَّـرا
فـبِـتُّ أُعـاطـيـهـا الـحَـديـثَ بـمُـسْـنَـفٍ مِـنَ الَّـلـيْـلِ أَبْـقَـتْـهُ الأَحـاديـثُ أَخْـضَـرا

وقد يميل إلى شيء من العبث، لم يكن ليبلغ حدّ ما نراه من فحش وفجور عند طرفة بن العبد وامرئ القيس والأعشى في الجاهليّة أو عند عمر بن أبي ربيعة والفرزدق في الإسلام، بل كان يجعل ذلك ذكرى عهد غابر، فلا

(1) القصيدة 14/ 16 ـ 17.
(2) القصيدة 28/ 24 ـ 25.

يفصّل، ولا يستقصي. ومن هذا قوله في حارثيّة، نأت عنه، فكانت تذكّره بغَيّ، رَشَدَت بفضله[1]:

أَزْرى بـوَصْـلِ الـحـارِثِـيَّـةِ أَنَّـهـا تَنْأَى، ويَحْدُثُ بَعْضُ ما لَمْ نَعْهَدِ
قـالَـتْ لَـنـا يَـوْمـاً بـبَـطْـنِ سَـبـوحَـةٍ فـي مَـوْكِـبٍ زَجِـلِ الـهَـواجِـرِ مُـبْـرِدِ
يـا جَـلَّ مـا بَـعُـدَتْ عَـلَـيْـكَ بِـلادُنـا وطِـلابُـنـا، فـابـرُقْ بـأَرْضِـكَ، وارْعُـدِ
ولَـرُبَّ مِـثْـلَـكَ قَـدْ رَشَـدْتُ بـغَـيِّـهِ وإِخـالُ صـاحِـبَ غَـيِّـهِ لَـمْ يَـرْشُـدِ

وربّما استتر ابن أحمر وراء تجارب الآخرين من الشعراء، فرأى في لهو امرئ القيس ومجونه رمزاً، لقي في نفسه استجابةً، فلمّح إلى مدلوله، وقال[2]:

إِنَّ امْـرَأَ الـقَـيْـسِ عَـلـى عَـهْـدِهِ فـي إِرْثِ مـا كـانَ أَبـوهُ حُـجُـرْ
بَـنَّـتْ عَـلَـيْـهِ الـمُـلْـكَ أَطْـنـابَـهـا كَـأْسٌ رَنَـوْنـاةٌ وطِـرْفٌ طِـمِـرْ
يَـلْـهـو بـهِـنْـدٍ فَـوْقَ أَنْـمـاطِـهـا وفَـرْتَـنـى تَـعْـدو إِلَـيْـهِ وهِـرّ
حَـتّـى أَتَـتْـهُ فَـيْـلَـقٌ طـافِـحٌ لا تَـتَّـقـي الـزَّجْـرَ، ولا تَـنْـزَجِـرْ
لَـمَّـا رَأَى يَـوْمـاً لَـهُ هَـبْـوَةٌ مُـرَّاً عَـبـوسـاً، شَـرُّهُ مُـقْـمَـطِـرْ
أَدّى إِلـى هِـنْـدٍ تَـحِـيّـاتِـهـا وقـالَ: هَـذا مِـنْ وَداعـي دُبُـرْ

وتلك اللمحات في غزل ابن أحمر لا تجعله معشوقاً، نسلكه في مدرسة ابن أبي ربيعة، وإنّما يبدو أنّه كان عاشقاً، يسعى ـ كما رأينا ـ إلى النساء في أشدّ الأماكن ازدحاماً وإحراجاً، ويؤثر أن يصرّح بذكرهنّ في شعره، فتراءت لنا في نسيبه بعض الغواني، عرفنا منهنّ جَدْوى وخنساء وحارثيّة وميّ وليلى وكنانيّة[3]، ولا ندري من أمرهنّ شيئاً غير هذه الأسماء التي قد تكون لامرأة

(1) القصيدة 14/ 9 ـ 12.
(2) القصيدة 35/ 8 ـ 13.
(3) انظر: القصيدة 46/ 1، و15/ 1، و14/ 9، و27/ 1، و35/ 22، و11/ 1.

واحدة، يُكنّي بها عن اسمها الحقيقيّ الذي يريده، فيجري في ذلك على سنّتهم في الغزل منذ عصر ما قبل الإسلام، وقد تكون لعدّة نساء، عبرن أفق حياته، ولكنّ هذه الأسماء لن ترتدّ في كلّ الأحوال إلى زوجه غنيّة التي فارقته، ونبذته، و«أمست تَخيّرُ في الأشياع أيَّهمُ ترضى»[1] سواه. فقد عرفنا من خلال دراستنا أسرةَ ابن أحمر أنّ العلاقة بينه وبينها كانت غير ودّيّة، وذلك ممّا رواه الأنباريّ، فقال: «قال ابن أحمر يذكر امرأته:

رَمَتْني بهَوْراتِ الذُّنوبِ، وباعَدَتْ فِراشي، فيا لَلنَّاس ماذا يُليقُها»[2].

ويبدو أنّ هذه العلاقة قد انتهت بالطلاق، فأمست تتخيّر غيره في الطوائف، ولا شكّ في أنّه ليس من الممكن بعد هذا كلّه أن ترتدّ الأسماء إلى زوجه التي لم نجد لابن أحمر فيها سوى الشكوى والعتاب، فقد رأينا أنّها تركت في نفسه مرارةً، لم ينس غُصصها، وغرست في روحه آلاماً، لا تكاد تبرح، وهو «شيخٌ هِمّةٌ»[3]، تستخفّ به، وتمعن في مواجهته[4]:

زَعَمَتْ غَنِيَّةُ أَنَّ أَكْثَرَ لِمَّتي شَيْبٌ، وهانَ بذاكَ ما لَمْ تَزْدَدِ
لَمّا رَأَتْ غَرْباً هجائِنَ وَسْطَها مَرِحَتْ، وجالَتْ في الصِّراحِ الأَبْعَدِ

وهكذا نرى أنّ ابن أحمر قد عانى الغزل، ولكنّه لم يكن ليحتفل له، فيخصّه بقصيدة، وإنّما كان هذا الغرض في موضعه التقليديّ من منهج القصيدة العربيّة، ولم تكن معاناته من الاتّساع والوضوح بما يسمح لنا أن نقف على غور عواطفه، وأن نعرف مدى مقدرته على هذا الفنّ.

(1) القصيدة 16/ 7.
(2) الأضداد 263.
(3) القصيدة 14/ 14.
(4) القصيدة 14/ 2 ـ 3.

2 ـ المديح:

نشأ ابن أحمر في «أناس أهل سائمة»[1] أعرابيّاً، يكدّ في طلب الرعي، وكان له من الرِّكاب ما ينأى به عن السؤال، فلم يكن يمدح الرجل إلاّ بما فيه من الفضائل غير آمل بكسب ولا طامع بعطاء، ولم يكن يفد على أحد من خلفاء عصره وأمرائه بمِدْحَة، تجري عليه رزقاً، فلا نجد في شعره ما نراه لدى النابغة الذبيانيّ والحطيئة والأعشى وحسّان بن ثابت وأمثالهم ممّن سأل، فألحّ في سؤاله، واستجدى، فألحف في استجدائه حتّى اتّخذ من الشعر حِرْفةً، تكفل الرزق، ولكنّها تشين الأنفس، وتوضع الأحساب. فالنابغة الذي كان أشرف بني ذبيان وأمجدهم «خضع للنعمان بن المنذر، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسّان، فسقطت منزلته، وتكسّب مالاً جسيماً حتّى كان أكله وشربه في صِحاف الذهب والفضّة»[2]، وأمّا الأعشى، فقد «جعل الشعر مَتجراً، يتّجر به نحو البلدان، وقصد حتّى مَلِك العجم، فأثابه، وأجزل عطيّته علماً بقدر ما يقول عند العرب واقتداءً بهم فيه على أنّ شعره لم يَحْسُن عنده حين فُسّر له، بل استهجنه، واستخفّ به، لكن احتذى فعل الملوك ملوك العرب، وأكثر العلماء يقولون: إنّه أوّل من سأل بشعره»[3]، وأمّا الحطيئة، فقد «أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمّة فيه والإلحاف حتّى مُقت، وذلّ أهله»[4].

---

(1) القصيدة 18/ 45.

(2) العمدة 1/ 80.

(3) العمدة 1/ 81، ومقولة العلماء لابن سلاّم الجمحيّ، فقد ذكر أنّ الأعشى «كان أوّل من سأل بشعره» طبقات فحول الشعراء 65، وعلّق الدكتور عبد الحفيظ السَّطْلي على هذه المقولة، فقال: «ممّا لا ريب فيه أنّ شعراء كثيرين قد تقدّموا على الأعشى، وتكسّبوا، أمثال: علقمة الفحل والنابغة الذبيانيّ والمُنَخَّل اليَشْكريّ وسواهم» ديوان أميّة بن أبي الصَّلْت 252.

(4) العمدة 1/ 81.

وإذا كنّا الآن لسنا في صدد مناقشة هذه الآراء، فإنّ ما يهمّنا ههنا أنّ ابن أحمر كان شاعراً أنوفاً، لا يريق ماء وجهه لممدوح كما كان شاعراً أصيلاً، لا يخرج عن سنّتهم في قصيدة المدح منذ عصر ما قبل الإسلام. ولعلّ من غرر مدائحه قصيدة لاميّة في النعمان بن بشير الأنصاريّ، يوطّئ لها بما تعارف عليه مقصّدو المديح من وقوف بالأطلال وتشبيب بالحبيبة، ليصرفوا إليهم الوجوه، ويميلوا نحوهم القلوب[1]، فيقف ابن أحمر بأطلال جَدْوى، ويصف الظُّعُن، ويشكو شدّة وجده، فإذا استوثق من الإصغاء إليه، أخذ في مدح النعمان، فما كان يخرج عن معانيهم المألوفة من عفّة وعدل وشجاعة وفضل[2] إلاّ أنّه كان يجعل هذه الفضائل في لَبوس إسلاميّ، يضفيه على ممدوحه الذي كان من أبرز رجالات الإسلام، ثمّ يلصق به من السجايا ما يتّصل بحسبه ونسبه ودينه، فكأنّه يرى فيه مثالاً عظيماً، يجمع فضائل جمّة، ليس يفوتنا ما فيها من معان إسلاميّة واضحة[3]:

الـخَـزْرَجِـيُّ الـهِـجـانُ الـفَـرْعُ لا تَـرِعٌ ضَـيْـقُ الـمَـجَـمِّ ولا جـافٍ ولا تَـفِـلُ
الزَّاجِرُ العِيْسَ في الإِمْلِيس أَعْيُنُها مِثْلُ الوَقائِعِ في أَنْصافِها السَّمَلُ
يَهْدي الجُيوشَ، ويَهْدي اللّهُ شِيْمَتَهُ في طِرْمِسِ البيدِ سامي الطَّرْفِ مُعْتَدِلُ
كـالـكَـوْكَـبِ الأَزْهَـرِ انْـشَـقَّـتْ دُجُـنَّـتُـهُ في النّاسِ، لا رَهَـقٌ فيهِ، ولا بَـخَـلُ
هـادٍ ضِـيـاءٌ مُـنـيـر فـاصِـلٌ فَـلِـجٌ قَـضـاؤُهُ سُـنَّـةٌ، وقَـوْلُـهُ مَـثَـلُ
مُـسْـتَـبْـشِـرُ الـوَجْـهِ بـالأَضْـيـافِ مُـقْـتَـبِـلٌ لا هَـيَّـبـانُ ولا فـي رَأْيِـهِ زَلَـلُ
هَـذا الـثَّـنـاءُ، وأَجْـدِرْ أَنْ أُصـاحِـبَـهُ وقَـدْ يُـدوِّمُ رِيْـقَ الـطَّـامِـعِ الأَمَـلُ

(1) انظر: الشعر والشعراء 75.
(2) انظر: العمدة 2/ 131 وما بعدها.
(3) القصيدة 46/ 10 ـ 16.

وإذا كان البيت الأخير من هذه المقطوعة يثير شيئاً من الريبة بـ «الأمل» الذي كان ابن أحمر يرجوه لدى النعمان، فإنّ ثمّة سؤالاً، لا بدّ أن يطرح نفسه، وهو: هل كان ابن أحمر يسأل النعمان كسباً أو عطاءً؟ إنّ المصادر لتضنّ بخبر واحد عن صلة له بالنعمان، وكلّ ما وقعت عليه من هذه الصلة هو أنّ ابن أحمر مدح النعمان بتك القصيدة، فقد نوّه أبو عليّ القاليّ بذلك، وقال: «حدّثني أبو عبداللّه عند قراءتي عليه قصيدة ابن أحمر: شَطَّ المَزارُ بجَدْوى وانْتَهى الأَمَلُ، قال: مدح بهذه القصيدة النعمان بن بشير الأنصاريّ»[1]، وأشار ابن برّيّ إليه في شرحه البيت نفسه، وقال: «يقول: هذا ثنائي على النعمان بن بشير، وأجدرْ أن أصاحبه، ولا أفارقه، وأملي له يُبقي ثنائي عليه، ويُدوّم ريقي في فمي بالثناء عليه»[2]، ولا شكّ في أنّ ابن أحمر قد قال في النعمان هذه المِدْحَة، وهو قائد «يَهدي الجيوشَ»[3]، وهو راعٍ «قضاؤه سنّة وقوله مَثَلُ»[4]، وكتب التاريخ تذكر أنّ النعمان قد ولّي اليمن لمعاوية والكوفة ليزيد وحِمْص لابن الزُّبَير[5]، فإذا كان ما وصلنا من أخبار ابن أحمر وأشعاره يبيّن أنّه لم يرتحل من منشئه بنجد إلاّ إلى الحجاز والجزيرة، فإنّنا نستطيع أن نزعم أنّ ابن أحمر لم يأت النعمان، وربّما لم يلتق به إلاّ في انحيازه إلى المطالبين بدم عثمان، رضي اللّه عنه[6]. ويبدو أنّ ابن أحمر كان يأمل أن يقرّبه النعمان إليه، أو كان يرغب أن يرحل إليه، فقال: «وأجدرْ أن أصاحبه»[7]، إذ رأى نفسه جديراً بهذه

(1) ذيل الأمالي 8، وانظر: سمط اللآلئ 398.

(2) اللسان، والتاج (دوم).

(3) القصيدة 46/ 12.

(4) القصيدة 46/ 14.

(5) جمهرة أنساب العرب 364، والإصابة 3/ 559، وانظر: ترجمة النعمان وأخباره في المعارف 294، وتاريخ الطبريّ 2/ 401 و5/ 133 و462 و481 و531 و539.

(6) انظر: (نشأته وصلاته) في الفصل الثاني

(7) القصيدة 46/ 16.

الصحبة إلاّ أنّ هذا الرجاء ظلّ في ذمّة الدهر، لا ندري من أمره شيئاً. ومن هنا يجب أن نفهم الأمل الذي كان يراود مخيّلة ابن أحمر، فيدفعه للثناء على النعمان رغبةً بصحبته، فابن أحمر لم يكن يسأله كسباً أو عطاءً، بل كان يرجو لديه أملاً، يُدوّم ريقه في فمه بالثناء عليه بما هو جدير به وأهل له، ولعلّ ابن أحمر لا يريد بذلك الأمل إلاّ غرضاً سياسيّاً، يهدف إلى شيء من الأمر لنفسه أو لقومه عند النعمان.

وانتهت إلينا من مدائح ابن أحمر مِدْحَـة أخرى، لم تكن خالصـةً لهذا الغرض، بل كانت احتجاجاً على ظلم السُّعاة لقومه، وهي المشوبة التي اختارها القرشيّ من شعره، وجعلها في (جمهرته)[1]، فحفظها من يد الحدثان. وقد مدح ابن أحمر في هذه المشوبة يحيى بن الحكم بن أبي العاص والي المدينة لعبدالملك بن مروان[2]، وشكا إليه ظلم عمّال الصدقات، فإذا مديحه تصوير حيّ للرعية فيما تعانيه من البؤس والعُسْر، وشكوى مرّة من الظلم والاضطهاد، واحتجاج عنيف ضدّ هؤلاء العمّال وتصرّفاتهم، وتهديد صراح بالنقمة والتمرّد.. ولم يكن مدحه هذا الوالي إلاّ تمهيداً لعرض هذه الأفكار، فأمن لنفسه من البطش، وبعث ممدوحه على الإصغاء إليه، وهزّه لرفع الظلم ونصرة الحقّ.

وامتاز ابن أحمر بقدرة فائقة على عرض مِدْحَته هذه، فوطّأ لها بالحسرة على شبابه والشكوى من العيش، ولَمَح إلى وِتْر ليس يدركه وإلى حاجة ليس ينساها، فأجاد اللمح، وأحسن التمهيد، ثمّ ذكر الظُّعُن، ورسم صورة بقرة وحشيّة، كانت ترعى ابنها حيناً، وتغفـل عنه حيناً آخر، فيتربّص به ذئب لَحِم، ثمّ ينقضّ عليه، فلا يدعه إلاّ أشلاء ممزّقةً، وكأنّ ابن أحمر كان يرمز بأسلوب بارع إلى قبيلته التي وقعت فريسة عمّال الدولة وسُعاتها، ليلفت الممدوح إلى

(1) انظر: جمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 842 و(ط. صادر) 301.
(2) تاريخ الطبريّ 6/ 202.

مرماه، ويستدعي به أن يتهيّأ للإصغاء إليه، فيحرص ابن أحمر على أن يوفّر لمقدّمتها أغراضها الموضوعيّة ومقوّماتها الفنّيّة، ويلخّص الوقف تلخيصاً دقيقاً ومؤثّراً.

ثمّ يمضي في عرض موضوعه، فيجعل ناقته تحنّ إلى ولدها، وتخُبّ في طريق محفوفة بالمهالك والأخطار، وتسعى إلى «يحيى غياث الناس والعُصُر»[1]، فإذا ما استقامت له تقاليد الرحيل الذي كان أصلاً ثابتاً من أصول منهج المديح، راح يباشر قضيّته بنداء صراح واستغاثة صارخة، ويقول[2]:

يا يَحْيَ، يا بْنَ إِمامِ النّاسِ، أَهْلَكَنا ضَرْبُ الجُنودِ وعُسْرُ المالِ والحَسَرُ
إِنْ قُمْتَ ـ يا بْنَ أَبي العاصي ـ بحاجَتِنا فما لحاجَتِنا وِرْدٌ ولا صَدَرُ
ما تَرْضَ نَرْضَ، وإِنْ كَلَّفْتَنا شَطَطاً وما كَرِهْتَ، فكُرْهٌ عِنْدَنا قَذَرُ
نَحْنُ الَّذينَ إِذا ما شِئْتَ أَسْمَعَنا داعٍ، فجِئْنا لِأَيِّ الأَمْرِ نَأْتَمِرُ

ويخرج من هذا المديح الوجيز إلى الشكوى من المظالم والاحتجاج على السُّعاة والوعيد بالثأر، فيبدو موقف ابن أحمر أكثر حزماً، لا يعادله البتّة موقف الراعي النُّمَيريّ من السُّعاة أنفسهم ومن الوالي ذاته[3]، ولكنّه يتّفق معه في الغرض والغاية، وديوان العرب سيظلّ يحفظ لأمثال هذين الشاعرين موقفاً تاريخيّاً فذّاً في وجه المضطهِدين الذين أهلكت سياطهم الناس ذلاً وجوراً.

وأمّا مدائحه الأخرى، فقد كانت خالصةً لبعض الخلفاء الذين أدركهم، ولكنّها صارت إلى أطلال، عفتها يد الحَدَثان، وذرتها الرياح الهوج بيتاً أو بيتين

(1) القصيدة 18/ 26.

(2) القصيدة 18/ 27 ـ 30.

(3) انظر: ديوان الراعي النميري 54 و213 و230، وأخصّ بالإشارة هنا الأبيات الأخيرة من القصيدة الثانية.

لا أكثر، فلا ندري من منهجها شيئاً، والأصفهانيّ يذكر أنّ ابن أحمر «قال في الجاهليّة والإسلام شعراً كثيراً، و(مدح)[1] الخلفاء الذين أدركهم: عمرَ بن الخطّاب، فمن دونه إلى عبدالملك بن مروان»، ويروي أنّه «قال في عمر بن الخطّاب ـ رضي اللّه عنه ـ قصيدةً طويلةً جيّدةً:

أَدْرَكْتُ آلَ أَبي حَفْصٍ وأُسْرَتَهُ وقَبْلَ ذاكَ ودَهْراً بَعْدَهُ كَلِبا
قَدْ تَرْتَمي بقَوافٍ بَيْنَنا دُوَلٌ بَيْنَ الهَنَاتَيْنِ لا جِدّاً ولا لَعِبا
اللّهُ يَعْلَمُ ما قَوْلي وقَوْلُهُمُ إِذْ يَرْكَبونَ جَناناً مُسْهَباً وَرِبا»[2].

ولعلّ هذه المِدْحَة كانت على درجة فائقة من اللطف والعذوبة والرقّة حتّى إذا سمعتها المغنّية جميلة، جعلت تقول: «واللّه، لأعملنّ فيها لحناً، لا يسمعه أحد أبداً إلاّ بكى، قال إبراهيم: وصدقت، واللّه ما سمعته قطّ إلاّ أبكاني، لأنّي أجد حين أسمعه شيئاً، يضغط قلبي، ويحرقه، فلا أملك عينيّ، وما رأيت أحداً قطّ سمعه إلاّ كانت هذه حاله»[3].

والأصفهانيّ ينشد لابن أحمر شعراً في الخليفة الراشديّ الثالث، ويقول: «قال في عثمان بن عفّان، رضي اللّه عنه:

حُثّي، فليس إلى عثمانَ مُرتجَعٌ إلاّ العَداءُ وإلاّ مُكْنِعٌ ضَرَرُ
إخالها سمعتْ عزفاً، فتحسَبه إهابةَ القَسْر ليلاً حين تنتشرُ»[4].

ولكنّ نظرةً شاملةً إلى مشوبة ابن أحمر وإلى موضع هذين البيتين منها

(1) أورد ابن حجر والبغداديّ ما قاله الأصفهانيّ، فرأيت أن أروي عنهما هذه الكلمة، وقد سقطت من مطبوع الأغاني 2980، وانظر: (ط. دار الكتب) 8/ 234 منه، وقارن بالإصابة 3/ 112، وخزانة الأدب 3/ 38.
(2) الأغاني 2980.
(3) الأغاني 2981.
(4) الأغاني 2980.

تجعلنا نرتاب فيما يرويه أبو الفرج، لأنّ زمن القصيدة ـ وهو خلافة عبدالملك بن مروان (73 ـ 86هـ)[1] ـ يبعد دهراً عن عهد عثمان، رضي اللّه عنه، ولأنّ غرضها ليس في ابن عثمان، وإنّما في يحيى بن الحكم بن أبي العاص الذي ولّي المدينة لابن مروان سنة خمس وسبعين للهجرة[2]، فلعلّ المقصود ههنا أحد عمّال الصدقات الذين شكا ابن أحمر إلى ابن أبي العاص ظلمهم وعسفهم.

ويتابع الأصفهانيّ رواية مدائح ابن أحمر في الخلفاء الذين أدركهم، فيذكر أنّه «قال في عليّ بن أبي طالب، رضي اللّه عنه:

مَنْ مُبْلِغٌ مَأْلُكاً عَنِّي أَبا حَسَنٍ فارْتَحْ لخَصْمٍ ـ هَداكَ اللهُ ـ مَظْلومِ»[3].

ويبدو هذا البيت جزءاً من اعتذاريّة، راح ابن أحمر يتشفّع بها في أمر، جعله ندّاً لعليّ بن أبي طالب، كرّم اللّه وجهه، فحاول أن يدفع عن نفسه تهمةً، ويتبرّأ من ذنب، فالتمس لذلك سبيل الاعتذار، وإذا سألنا عن ذاك الأمر، فلن نجد كبير عناء في تقصّي الجواب، فقد بات معروفاً أنّ المجتمع الإسلاميّ عصرئذٍ كان يمرّ بفترة عصبيّة، اضطربت فيها أحوال المسلمين، ففرّقتهم الأحزاب، وتنازعتهم الأهواء، فمنهم من تشيّع لابن أبي طالب، ووقف إلى جانبه في أيّام مشهودة، ومنهم من انتصر لابن عفّان، فعادى عليّاً، ونادى بدم عثمان. وفي غمرة هذه الفتنة يبدو أنّ ابن أحمر قد انحاز إلى الفريق الثاني، فكان عثمانيّ الهوى، ولعلّ أوضح إشارة إلى هذا مديحه النعمان بن بشير الأنصاريّ أحد أشهر من مال إلى معاوية بن أبي سفيان ضدّ عليّ بن أبي طالب[4]، وربّما شارك في شؤون أخرى، تقع في دائرة الخلاف ذاته، ثمّ عاد عنها، وراح يعتذر لأبي الحسن.

(1) تاريخ الخلفاء 422، وتاريخ الطبريّ 6/ 431.
(2) تاريخ الطبريّ 6/ 202.
(3) الأغاني 2980.
(4) تاريخ الطبريّ 5/ 131.

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه المدائح جميعاً تصدر عن روح إسلاميّة خالصة، وتفيض بفضائل جمّة، يضفيها ابن أحمر على ممدوحه، فيراه مثالاً من القيم والسجايا، وربّما وجدناه في مدحه النعمان أو ابن أبي العاص يتّكئ على شيء من قيم الجاهليّة، ولكنّه يعرضها في إطار من المعاني الإسلاميّة، لا يغاير تلك الروح. وإذا ما بحثنا عن مدائح جاهليّة، قالها ابن أحمر في حياته الأولى، فلن نجد أثراً لها البتّة.

والواضح أنّ ابن أحمر لم يحاول التأنّق ولا الابتكار في مدائحه على نحو ما نجده لدى محترفي المديح من أمثال حسّان بن ثابت والنابغة الذبيانيّ والأعشى والحطيئة، وإنّما كان يدع نفسه على سجيّتها، لتعبّر عن شعوره إزاء الممدوح بأسلوب، يتجنّب فيه الإغراب والغلوّ، ويجنح فيه إلى البساطة والسهولة، لأنّه لم يكن يتوخّى من وراء مديحه كسباً ولا جاهاً.

إنّ ابن أحمر قد جرى على سنّة القدماء في قصيدة المدح، وأسهم في تأصيلها وتطويرها، فقد رأينا أنّه سار على النهج المتعارف لهذا الفنّ، وهيّأ لأغراضه ما يلائمها من المعاني والألفاظ. وإذا خرج إلى غرضه الرئيس، تجنّب ما يضجر ممدوحه، ويسئمه من التقصير أو التطويل ومن التصاغر أو التفاخر، وأملى على خصائص مدحه ما في طبعه من ألفة وأنفة ومروءة، ثمّ حاول أن يصيب جديداً في التوطئة لغرضه وفي تصوير انفعالاته وأحاسيسه.

3 ـ الفخر:

نشأ ابن أحمر في قبيلة، ليس لحياتها الأولى من المفاخر ما تشمخ به الرؤوس، وتقرّ به الأعين، فلقيت من صوائب الشعراء ما لقيت، وهجيت باللؤم أشدّ الهجاء وأمضّه[1]، فإذا شبّ لم يتهيّأ له من المناقب ما يحفز همّته لمفاخرة،

(1) انظر: (منزلة باهلة) في الفصل الأوّل.

أو يستنهض شكيمته لمهاجاة. وكانت علاقته بقومه غير ودّيّة، لا تمدّه بكبير نصيب من الاعتزاز بما لهم من فضل ومجد، ولهذا لا نجد في شعره فخراً خالصاً لقبيلته إلاّ أبياتاً فرادى، لا تجود على باهلة بثوب فخار، يحفظ شيئاً من منزلتها بين القبائل، فقد رأينا في فصل سابق أنّ الصلة بينه وبين عشيرته قد انقطعت[1]، وربّما أوشكت أن تصل في بعض فصولها إلى حدّ خلعه وهدر دمه، ويذكر هذا على لسان زوجه، ويقول[2]:

تَـقـولُ حَـلـيـلَـتـي بـشَـراءَ: إِنَّـا نَـأَيْـنـا أَنْ نَـزورَ، وأَنْ نُـزارا
عَـلَـيْـكَ الـجـانِـبَ الـوَحْـشِـيَّ، إِنِّـي سَـمِـعْـتُ لـقَـوْمِـنـا حَـلِـفـاً حَـرارا
لَـئِـنْ وَرَدَ الـسُّـمـارَ، لـنَـقْـتُـلَـنْـهُ فـلا ـ وأَبـيـكَ ـ لا أَرِدُ الـسُّـمـارا
أَخـافُ بَـوائِـقـاً، تَـسْـري إِلَـيْـنـا مِـنَ الأَشْـيـاعِ سِـرّاً أَوْ جَـهـارا
جَـنـانُ الـمُـسْـلِـمـيـنَ أَوَدُّ مَـسّـاً وإِنْ جـاوَرْتَ أَسْـلَـمَ أَوْ غِـفـارا

فهذا الحَلِف الشديد أرهق ابن أحمر، وربّما جعله يعزف عن مناقب باهلة ومآثرها، ويميل إلى نفسه، يدافع عن عرضه، ويفخر بسجاياه من إقدام وشجاعة ومن عرض وشرف[3]:

ولَـسْـتُ بـهَـيْـرَعٍ خَـفِـقٍ حَـشـاهُ إِذا مـا طَـيَّـرَتْـهُ الـرِّيْـحُ طـارا
ولَـسْـتُ بـعِـرْنَـةٍ عَـرِكٍ سِـلاحـي عَـصـاً مَـثْـقـوبَـةً تَـقِـصُ الـجِـمـارا
ولا يُـنْـسـيـنِـيَ الـحَـدَثـانُ عِـرْضـي ولا أُلْـقـي مِـنَ الـفَـرِحِ الإِزارا

ومن الطبيعيّ أنّ شأن ابن أحمر لا يختلف كثيراً عن شأن أولئك الشعراء

(1) انظر: (نشأته وصلاته) في الفصل الثاني.
(2) القصيدة 32/ 12 ـ 16.
(3) القصيدة 32/ 19 ـ 21.

الذين خلعتهم عشائرهم لسبب أو لآخر، فأخذوا يشكون الظلم والعَسْف، ويتعالون بالشجاعة والكرم، فكانت جلّ أشعارهم تمتاز بالطابع الفرديّ. ومن هنا كان لابدّ للنزعة الفرديّة أن تبرز بوضوح في فخر ابن أحمر، وتصادف هوى في نفسه، ولكنّه هوى ضعيف، لا يتيح لشاعرنا أن يشمخ بنسب أصيل، أو يفخر بشرف رفيع، لأنّ نسبه الباهليّ كان يقصره عن مفاخر، ليس كلّ باهليّ بأهل لها. فإذا ما كان بين يدي يحيى بن الحكم بن أبي العاص، يشكو إليه ظلم السُّعاة وعسفهم، لا تبلغ غايته حدّ التعالي، ولا يوفّر لفخره سوى بيت واحد من قصيدة، عدّتها اثنان وخمسون بيتاً، ولا يبعد كثيراً حين يرى نفسه زكيّ الفؤاد متوقّد النَّفْس محكم الخُلق، فيقول[1]:

شَيْخٌ شَموسٌ إِذا ما عَزَّ صاحِبُهُ شَهْمٌ وأَسْمَرُ مَحْبوكٌ لَهُ عُذُرُ

وإذا ما تذكّر لهو الشباب وعبثه، اعتزّ بكرمه وحذره، وافتخر بشدّة تبصّره ورباطة جأشه، وقال[2]:

هَلْ يُهْلِكَنِّي بَسْطُ ما في يَدي أَوْ يُخْلِدَنِّي مَنْعُ ما أَدَّخِرْ
أَوْ يَنْسَأَنْ يَوْمي إِلى غَيْرِهِ أَنِّي حَوالِيٌّ، وأَنِّي حَذِرْ
ولَنْ تَرى مِثْلِيَ ذا شَيْبَةٍ أَعْلَمُ ما يَنْفَعُ مِمّا يَضُرّ
أَرْبَطُ جَأْشاً عَنْ ذَرى قَوْمِهِ إِذْ قَلَّصَتْ عَمَّا تُواري الأُزُرْ

ولعلّ ما جُبل عليه ابن أحمر من حماسة وخير وسخاء كان يدفعه إلى فعال كريمة، فكان يرى بيته بحراً خضمّاً من الكرم والجود[3]:

رَوافِدُهُ أَكْرَمُ الرَّافِداتْ بَخٍ لَكَ بَخٍّ لِبَحْرٍ خِضَمّ

(1) القصيدة 18/ 21.
(2) القصيدة 35/ 17، 19 ـ 21.
(3) القصيدة 55/ 1.

فإن استنجد به أصحاب الرِّكاب، واستغاثوا، لم يثنه حسبه وماله عن النجدة والغيث[1]:

لَوْ بي تَحَمَّسَتِ الرِّكابُ إِذاً ما خانَني حَسَبي ولا وَفْري

وإن دُعي للجهاد، لبّى بنفس أبيّة وقلب صارم[2]:

إِذا قالَ سَيْفُ اللّهِ: كُرُّوا عَلَيْهِمُ كَرَرْتُ بقَلْبٍ رابِطِ الجَأْشِ صارِمِ

فالفخر الفرديّ في شعر ابن أحمر لا يبلغ عنفوان الكِبْر، فلا نجد في معانيه شيئاً، لا يتلاءم مع طبعه وهواه. وأمّا فخره القبليّ، فلا يبدو أنّه صُراح بباهلة إلاّ في قصيدة، لم أجد منها سوى أبيات، تفخر بيوم سِلّى إلاّ أنّ ثمّة شطراً واحداً منها، يجعلنا نتحفّظ في القول قليلاً، فلا نزعم أنّ القصيدة كانت خالصةً للفخر بذاك اليوم، ما دامت أغلب أبياتها في ذمّة الدهر، لأنّ الشطر نفسه يدلّ على صلة مفقودة، ويوحي بانتقال مقتضب من تعريض إلى افتخار على عادتهم بالخروج من الهجاء إلى الفخر، وكأنّ سَوْرة الشاعر لا تهدأ حتّى يبلغ عنفوان الكبر، ويتعالى على خصومه بما لقبيلته من مجد وفضل. فابن أحمر عرّض بمن كان يأمل أن يوقع المنايا بفرسان قومه، ثمّ مضى يزهو بفرسان باهلة وأشرافها، ويقول[3]:

مُنى لَكَ أَنْ تَلْقى ابْنَ هِنْدٍ مَنِيَّةٌ وفارِسَ مَيّاسٍ إِذا ما تَلَبَّبا

وجَحْلاً أَبا عَمْرٍو وقُرَّةَ ذا النَّدى وزُهْراً وغَلاَّقاً، ويالَكَ مِقْنَبا

عَرانينُ مِنْ عَبْدِ بْنِ غَنْمٍ أَبوهُمُ هِجانٌ، فسامى في الهِجانِ، وأَنْجَبا

فَوارِسُ سِلَّى يَوْمَ سِلَّى وساجِرٍ إِذا هَرَّتِ الخَيْلُ الحَديدَ المُذَرَّبا

(1) القصيدة 25/ 20.

(2) القصيدة 50/ 2.

(3) القصيدة 7/ 1 ـ 4.

ثمّ يصف بأسهم وحربهم، فلا يرى غارةً أشدّ من غارتهم، ويقول[1]:

لَـدُنْ غُـدْوَةً حَـتّـى كَـرَزْنَ عَـشِـيَّـةً وقَـرَّبْـنَ حَـتّـى مـا يَـجِـدْنَ مُـقَـرَّبـا
تَـدارَكْـنَ حَـيّـاً مِـنْ نُـمَـيْـرِ بْـنِ عـامِـرٍ أُسـارى تُـسـامُ الـذّلَّ قَـتْـلاً ومَـحْـرَبـا
فـلَـمْ أَرَ يَـوْمـاً كـانَ أَكْـثَـرَ غـارَةً وشَـمْـسـاً أَبَـتْ أَطْـنـابُـهـا أَنْ تَـقَـضَّـبـا

وهذه القصيدة أوضح ما نجده من فخره القبليّ، لأنّ الأبيات الأخرى لا تعدو أن تكون اعتزازاً بـ «جماعة من قومه، لحقوا بالشام، فصار يراهم إذا أتى أوّل الليل»[2]، أو تكون افتخاراً برفقة، شاركهم الشراب في مجلس لهو وغناء، أو نزل معهم جزيرة الشام. وهذه الأبيات لا تخرج عن المعاني الشائعة للفخر الإسلاميّ من نصرة الحقّ وشجاعة فائقة وسخاء فيّاض، ولا تتجاوز هذا إلى ما كان يفاخر به الشاعر الجاهليّ من موضوعات، فإذا أرّقته ذكرى رفقة، نزلوا الشام، وجد في فعالهم المألوفة فخر المُفاخر[3]:

أَراهُـمْ رِفْـقَـتـي حَـتّـى إِذا مـا تَـجـافـى الَّـلـيْـلُ، وانْـخَـزَلَ انْـخِـزالا
إِذا أَنـا كـالَّـذي أَجْـرى لـوِرْدٍ إِلـى آلٍ، فـلَـمْ يُـدْرِكْ بِـلالا
أَرى ذا شَـيْـبَـةٍ حَـمَّـالَ ثِـقْـلٍ وأَبْـيَـضَ مِـثْـلَ صَـدْرِ الـسَّـيْـفِ نـالا
غَـطـارِفُ لا يَـصُـدُّ الـضَّـيْـفُ عَـنْـهُـمْ إِذا مـا طَـلَّـقَ الـبَـرَمُ الـعِـيـالا
بـهِـمْ فَـخْـرُ الـمُـفـاخِـرِ يَـوْمَ حَـفْـلٍ إِذا مـا عَـدَّ بَـأْسـاً أَوْ فَـعـالا
وبـيـضٍ لَـمْ يُـخـالِـطْـهُـنَّ فُـحْـشٌ نَـسِـيـنَ وصـالَـنـا إِلاَ سُـؤَالا
وجُـرْدٍ يَـعْـلَـهُ الـدَّاعـي إِلَـيْـهـا مَـتـى رَكِـبَ الـفَـوارِسُ، أَوْ مَـتـالا
فَـوارِسُـهُـنَّ لا كُـشُـفٌ خِـفـافٌ ولا مِـيـلٌ إِذا الـعُـرْضِـيُّ مـالا

(1) القصيدة 7/ 5 ـ 7.
(2) المقاصد النحويّة 2/ 422.
(3) القصيدة 48/ 23 ـ 30.

ثمّ يعود إلى الفخر بهم في قصيدة أخرى، فيتمنّى أن تحمل الرياح أخبارهم، ويراهم خير سند[1]:

أَلا لَـيْـتَ الـرِّيـاحَ رَسـولُ قَـوْمٍ بـمَـرْجِ صُـراعَ أَوْ بـالأَثْـدَريـنـا
هُـمُ كـانـوا اليَـدَ اليُـمْـنـى، وكـانـوا قِـوامَ الـظَّـهْـرِ والـدِّرْعِ الـحَـصـيـنـا

وبهذا نجد أنّ الفخر في شعر ابن أحمر لم يكن إلاّ موضوعاً جانبيّاً من موضوعاته، بل كان يزجيه في تضاعيف أغراضه الأخرى، ويرسله دون أن يوفّر له أدنى نصيب من نفسه وفنّه، فكأنّ علاقته غير الودّيّة بقومه وأصله الباهليّ غير الرفيع جعلاه يحسّ إحساساً عميقاً أنّه دون هذا الغرض حسباً ونسباً، فلم تضطرب فيما وصلنا من أشعاره مشاعر الزهوّ وأحاسيس الخيلاء، ولكنّه ظلّ وفيّاً لما جبل عليه من خير وسماحة وفضل.

4 ـ الهجاء:

كان الأصمعيّ يجد أنّ ابن أحمر أضرب عن الهجاء، ويقول: «ابن أحمر لم يهاجِ أحداً»[2]، فيذكّرنا بشعراء آخرين، لم يكن لهم طبيعة في الهجاء، ومن هؤلاء: ذو الرُّمَّة وحاتم الطائيّ وعَبَدَة بن الطبيب وسواهم. والنقّاد القدامى يتّفقون على أنّ هذه المسألة ترتدّ إلى اختلاف الطبع عند الشعراء، فابن قتيبة يرى ذلك، ويقول: «الشعراء أيضاً في الطبع مختلفون، منهم من يسهل عليه المديح، ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من يتيسّر له المراثي، ويتعذّر عليه الغزل.. فهذا ذو الرُّمَّة أحسن الناس تشبيهاً وأجودهم تشبيباً وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وقُراد وحيّة، فإذا صار إلى المديح والهجاء، خانه الطبع، وذاك أخّره عن الفحول»[3].

(1) القصيدة 58/ 5 ـ 6.
(2) فحولة الشعراء 17.
(3) الشعر والشعراء 93.

والجاحظ يعرض لذلك، ويقول: «هذه الحجج التي ذكروها عن نُصيب والكُميت والعجّاج ورؤبة إنّما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم، وهذا منهم جهل، إن كانت هذه الأخبار صادقةً، وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب، وليس له طبيعة في الكلام، وتكون له طبيعة في التجارة، وليس له طبيعة في الفلاحة»[1].

وابن رشيق أقرّ ابن قتيبة والجاحظ على قولهما، وقال: «معنى الجاحظ وابن قتيبة واحد، وإن اختلف اللفظان، والصواب ما قالا إلاّ أن يُعرف من الشاعر أَنَف عن قدرة لا تدفع وبُعْد تجربة لا تستراب، فحينئذٍ»[2]، ويجد ابن رشيق «من الشعراء من يتزيّا بالكِبْر، ويظهر الأَنَفة في الجواب عن هجاء من هو مثله أو فوقه خوفاً من الزِّرَاية على نفسه.. ومنهم من لا يهجو كفءاً ولا غيره، لما في الهجوّ من سوء الأثر وقبح السمعة كالذي يحكى عن العجّاج أنّه قيل له: لم لا تهجو؟ فقال: ولم أهجو؟! إنّ لنا أحساباً تمنعنا من أن نُظلم وأحلاماً تمنعنا من أن نَظلم.. وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يَهدم؟»[3].

ولا شكّ في أنّ ما جُبل عليه ابن أحمر من أنفة وألفة كان ينأى به عن الهجاء، ويمنعه من أن يدخل في نَفْرة، لا طائل منها إلاّ سوء الأثر وقبح السمعة، وربّما كان ابن أحمر يخشى أن يُهجى بأبيات فاحشة، يصبّها عليه شاعر هجّاء من معاصريه، أمثال: حسّان بن ثابت والحطيئة والأعشى، أو أن يجرّ على قبيلته مزيداً من وبال، يَشُقّ على كلّ باهليّ، فلا يقوى أن يتعالى بحسب ونسب. فإذا ما ضُيّق عليه، لم يكن مستعدّاً لمخاصمة، تهلك حيّاً ذا قَدْر ورِكاب، بل كان صبوراً على الظلم والأذى[4]:

(1) البيان والتبيين 1/ 207.
(2) العمدة 1/ 112.
(3) العمدة 1/ 111، وانظر: العجّاج: حياته ورجزه 277 وما بعدها.
(4) القصيدة 47/ 1 ـ 4.

تَقَلَّدْتَ إِبْريقاً، وعَلَّقْتَ جَعْبَةً لتُهْلِكَ حَيَّاً ذا زُهاءٍ وجامِلِ
فلا تَحْسَبَنِّي مُسْتَعِدّاً لنَفْرَةٍ وإِنْ كُنْتُ نَطّاطاً كَثيرَ المَجاهِلِ
وإِنَّ امْرَأً أَمْسَيْتَ تَخْتِلُ ظُلْمَهُ حَبِيلُ بَراحٍ غَيْرُ أَحْرَجَ جافِلِ
فسِرْ قَصْدَ سَيْري ـ يا بْنَ سَمْراءَ ـ إِنَّني صَبورٌ عَلى تِلْكَ الرُّقى والهَتامِلِ

فالهجاء لم يلق هوىً في نفس ابن أحمر، ولم يستجب له طبعه الذي كان يميل إلى الحِلْم والصبر، وإنّما تصرّف فيه على نحو، يتّفق مع ذاته وخُلقه، فأتى بأخّفه وطأةً، وتحلّى بالأناة في التلويح والتعريض، فلا يعدو أن يكون هجاؤه تهكّماً موجعاً أو سخريةً لاذعةً. ففي هجائه يزيدَ بن معاوية نرى أنّ ابن أحمر يتهكّم بالخليفة، ويتكبّر على الخلافة، ويَشُقّ عصا الطاعة، فلا يسعى وقومه بالولاء ليزيد، شأنهم في ذلك شأن أهل الحجاز الذين أخذوا البيعة بالخلافة لعبداللّه بن الزبير سنة أربع وستّين للهجرة[1]، ثمّ يستخفّ ابن أحمر بسلطته، ويقول[2]:

أَبا خالِدٍ، هَدِّبْ خَميلَكَ لَنْ تَرى بعَيْنَيْك وَفْداً آخِرَ الدَّهْرِ جائِيا
ولا طاعَةً حَتّى تُشاجِرَ بالقَنا قَناً ورِجالاً عاقِدينَ النَّواصِيا
فلا يَأْتِنا مِنْكُمْ كِتابٌ بِرَوْعَةٍ فلَنْ تَعْدَموا مِنْ سائِرِ النّاسِ راعِيا

والمصادر تذكر أنّ يزيد بن معاوية بلغه هجاء ابن أحمر، فطلبه، ففرّ[3]، ويبدو أنّ يزيد جدّ في طلبه، وربّما هدر دمه، فصدّ عنه ابن أحمر، وتبرّأ من هجائه، وقال[4]:

(1) تاريخ الخلفاء 422.
(2) القصيدة 60/ 31 ـ 33.
(3) انظر: تهذيب إصلاح المنطق 500، وكنز الحفّاظ 410 و504، والاقتضاب 319 و402، والمشوف المعلم 65، وخزانة الأدب 3/ 38، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 130.
(4) القصيدة 28/ 15 ـ 16، 27.

وإِنْ قالَ غاوٍ مِنْ تَنوخَ قَصيدَةً بها جَرَبٌ، عُدَّتْ عَلَيَّ بزَوْبَرا
ويَنْطِقُها غَيْري، وأَكْلَفُ حَمْلَها فهَذا قَضاءٌ حَقُّهُ أَنْ يُغَيَّرا
صَدَدْتُ صُدوداً عَنْ جَبابِرِ حاطِبٍ صُدودَ ابْنِ كِسْرى عَنْ صُدودِ ابْنِ قَيْصرا

ثمّ هرب إلى قومه بالأُبُلَّة[1]، ينتصر بهم، فخلطوه بالنفوس، وأشفقوا عليه، وردّوا عنه سطوة أمير متكبّر[2]:

جَزى اللّهُ قَوْمي بالأُبُلَّةِ نُصْرَةً وبَذْواً لهُمْ حَوْلَ الفِراضِ وحُضَّرا
هُمُ خَلَطوني بالنُّفوسِ، وأَشْفَقوا عَلَيَّ، ورَدُّوا البُخْتريَّ المُؤَمَّرا

ولم يلبث ابن أحمر أن انتهى إلى بلاد اليمامة، فجعل وادي السرّ بينه وبين يزيد، واطمأنّ إلى أنّ الخليفة لن يناله، فقال[3]:

إِذا ما جَعَلْتُ السِّرَّ بَيْني وبَيْنَهُ فلَيْسَ عَلى قَتْلي يَزيدُ بقادِرِ

فالدافع السياسيّ إذاً جعل ابن أحمر يتعرّض ليزيد، ويتهكّم به، ويأنف أن تبايعه باهلة بالعنف والقوّة، ويأبى أن يخضع لسلطة «بَخْتَرِيّ» متكبّر متبختر إلاّ أنّ هذا الهجاء لم يكن ليبلغ حدّ الشتم الفاحش أو الاتّهام الباطل، وأمّا إذا كان الدافع ذاتيّاً محضاً، فإنّ ابن أحمر يبلغ ذروة الحِلْم والصبر في أقسى الملمّات، فالرواة يذكرون أنّ رجلاً، يقال له: مَخْشِيّ، رماه بسهم فذهبت عينه[4]، وينشدون ما قاله في هجائه، فنجد أنّ هذه الرمية قد تركت في نفسه جرحاً غائراً، ما كان يستنهض همّته إلى خصام وهجاء، وكأنّ حِلْمه وصبره كانا يمنعانه

(1) الأُبُلّة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة.
(2) القصيدة 28/ 29 ـ 30.
(3) القصيدة 24/ 1.
(4) الشعر والشعراء 356، والاقتضاب 434، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134، وشرح شواهد الشافية للبغداديّ 4/ 354.

من أن يثأر لألمه وكبريائه بغير ضربة سيف، سدّدها إلى رأس عدوّه، ثمّ راح يصوّر ما أصابه، ويدعو عليه بالشلل[1]:

ضُمّا وِسادي، فإِنَّ اللَّيْل قَدْ بَرَدا ... وإنَّ مَنْ كانَ يَرْجو النَّوْمَ قَدْ هَجَدا
فما عَلى الجانِبِ الوَحْشِيِّ مُرْتفَقٌ ... ولا عَلى الظَّهْرِ ما لَمْ تَجْعَلا سَنَدا
شَلَّتْ أَنامِلُ مَخْشِيٍّ، فلا اجْتَبَرَتْ ... ولا اسْتَعانَ بِضاحي كَفِّه أَبَدا
أَصارَني سَهْمُهُ أَعْشى، وغادَرَهُ ... سَيْفُ ابْنِ أَحْمَرَ يَشْكو الرَّأْسَ والكَبِدا
أَهْوى لها مِشْقَصاً حَشْراً، فشَبْرَقَها ... وكُنْتُ أَدْعو قَذاها الإثْمِدَ القَرِدا
أَعْشو بعَيْنٍ، وأُخْرى قَدْ أَضَرَّ بها ... رَيْبُ الزَّمانِ، فأَمْسى ضَوُؤها خَمِدا

وابن أحمر ليس هِداناً ولا جباناً، بل كان حليماً صبوراً، إذا ما وقع في حبائل الأمور، وكان ينذر بالشدائد، ويوعد بالثأر والقصاص، ولو عدنا إلى ما تناثر في أضعاف المصادر من أهاجي ابن أحمر الأخرى، لرأينا أنّها لا تخرج عن طبعه وخُلُقه، فليس لديه اتّهام ظالم ولا قذف مقذع ولا شتم فاحش، فإذا ما ذمّ قريباً له، شبّهه بداء البطن، وحمّقه، وقال[2]:

أُرانا لا يَزال لَنا حَميمٌ ... كداءِ البَطْنِ سِلاًّ أو صُفارا
يُعالِجُ عاقِراً أَعْيَتْ عَلَيْهِ ... لِيُلْقِحُها، فيُنْتِجَها حُوارا
يُدَنِّس عِرْضَهُ، ليَنالَ عِرْضي ... أَبا دَغْفاءَ، وَلِّدْها فَقارا

ولعلّ أشدّ أهاجيه وطأةً ما تعرّض به لبني أَعْيا في رواية أو لبني سَهْم في رواية أخرى، فقد وصفهم باللؤم، ورماهم بالهُجْنة، فوجدهم كالعنز «ترتضع

(1) القصيدة 16/ 1 ـ 6.
(2) القصيدة 32/ 5 ـ 7.

من خِلْفها، وهي مُحَفَّلَة حتّى تأتي على أقصى لبنها»[1]، ثمّ رآهم هجناء، أمّهم أَمَة عشواء عرجاء، وقال[2]:

إِنِّي وَجَدْتُ بَنِي أَعْيا وجامِلَهُمْ كالعَنْزِ تَعْطِفُ رَوْقَيْها، فتَرْتَضِعُ
كَمْ فيهِمْ مِنْ هَجينٍ، أُمُّهُ أَمَةٌ في عَيْنِها قَدَعٌ، في رِجْلِها فَدَعُ

وهذا النوع من التعريض كان مألوفاً في الهجاء الإسلاميّ، وغدا يلفت الدارسين والباحثين، وإلى ذلك يشير الدكتور شاكر الفحّام، فيقول: «كثرَ في أهاجي الإسلاميّين رمي الناس بالهُجنة والعبوديّة، وكان من قبلُ نَزْراً في أهاجي الجاهليّين، ولعلّه أثر لهذه الظاهرة التي بدت في المجتمع العربيّ حين كثر السراري والهجناء»[3]. وأمّا ذاك الوصف الطريف للؤم، فقد استمدّه ابن أحمر من بيئته البدويّة، وأمثال هذه الصورة شائع في شعره، لا يعرفها إلاّ من تبدّى، أو اختلف زمناً إلى البادية.

وتبقى السخرية في هجائه أسلوباً بارعاً، يصيب الغرض، ويستعيض به عن مقذع القول وفاحشه، وأجوده ما كان هزلاً وضِحْكاً، فيشُقّ على النفس، ويسير بين الناس، وقد أوصى جرير بنيه بهذا، فقال: «إذا هجوتَ، فأَضحكْ»[4]، ورأى صاحب الوساطة الشيء ذاته، فقال: «فأمّا الهجوّ، فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قرُبت معانيه وسهُل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس»[5]. فإذا كان ابن أحمر والأعشى والحطيئة وغيرهم قد رأوا في السخرية أسلوباً مؤثّراً من أساليب

(1) الحيوان 5/ 469. والخِلْف: الضرع. والمحفّلة: التي ترك حلبها أيّاماً حتّى يجتمع لبنها.
(2) القصيدة 38/ 1 ـ 2.
(3) الفرزدق 333.
(4) العمدة 2/ 172.
(5) الوساطة 24، وعنه في العمدة 2/ 171.

الهجاء، فإنّ هذا الأسلوب قد اتّسع في العصر الأمويّ، ثمّ بلغ الهجاء الساخر شأوه في العصر العبّاسيّ.

فإذا «عرّض برجلٍ، كان يشتمه، ويعيبه، يقال له: سفيان»[1]، هزئ به أشدّ الهزء، وسخر منه أقسى السخرية، وجعل فداءه كلّ ضئيل ذليل، ثمّ أمعن في السخرية منه، وجعل الجواري تُهدي إليه ذراع الجدي تحقيراً وتصغيراً، لأنّ «الذراع لا تهدى إلاّ لمَهين ساقط لقلّتها وحقارتها»[2] [3]:

نُبِّئْتُ سُفْيانَ يَلْحانا، ويَشْتِمُنا والـلّـهُ يَـدْفَـعُ عَـنَّـا شَـرَّ سُـفْـيـانـا
فِداكَ كُلُّ ضَئيلِ الجِسْمِ مُخْتَشِعٌ وَسْطَ المَقامَةِ يَرْعى الضَّأْنَ أَحْيانا
تُـهْـدي إِلَـيْـهِ ذِراعَ الـجَـدْيِ تَـكْـرِمَـةً إِمَّـا ذَبـيـحـاً، وإِمَّـا كـانَ حُـلاّنـا
عِيطٌ عَطابِيلُ لُثْنَ الرَّيَّ، وابْتَذَلَتْ مَـعـاطـفـاً سـابِـريَّـاتٍ وكَـتّـانـا

وإذا رثى حال أمير بائس، تمنّى أن يكون أميرهم مخضّبة الأنامل ناهدة الثديين، وقال[4]:

نَـزورُ أَمـيـرنـا خُـبْـزاً بـسَـمْـنٍ ونَـنْـظُـرُ كَـيْـفَ حـادَثَـتِ الـرَّبـابُ
فـلَـيْـتَ أَمـيـرنـا وعُـزِلْـتَ عَـنّـا مُـخَـضَّـبَـةٌ أَنـامِـلُـهـا كَـعـابُ

ولا شكّ في أنّ هذه الأهاجي ليست إلاّ تعريضاً بأشخاص، لا يبلغ حدّاً بعيداً، كما أنّه لا يتعرّض لأحد من الشعراء. ومن هنا ندرك معنى ما أراده الأصمعيّ بقوله: «ابن أحمر لم يهاجِ أحداً»[5]، فقد رأينا أنّه كان يتهكّم تهكّماً موجعاً، ويسخر سخريةً لاذعةً، ويقف عند هذه المعاني، فلا يتجاوزها إلى

(1) التنبيه والإيضاح 1/ 235، وعنه في اللسان (ذبح).
(2) اللسان (حلن).
(3) القصيدة 57/ 1 ـ 4.
(4) القصيدة 3/ 1 ـ 2.
(5) فحولة الشعراء 17.

اتّهام ظالم أو شتم مقذع أو قذف فاحش، فكأنّه كان وثيق الصلة بطباعه وأخلاقه.

5 ـ الحكمة:

إنّ هذا الموضوع لدى أمثال ابن أحمر من الشعراء المخضرمين ليس موضوعاً مستقلاّ، يأخذ بجوامع القصيدة وأركانها على نحو ما نجده عند بعض شعراء الزهد في العصر الأمويّ كأبي الأسود الدُّؤَليّ وسابق البربريّ، أو عند بعضهم في العصر العباسيّ كأبي العتاهية وعبداللّه بن المبارك ومحمود الورّاق وسواهم، وإنّما كان الشاعر منهم يزجي الحكمة في أضعاف أغراضه المختلفة تعقيباً على تجربة أو تأمّلاً في حدث أو تلخيصاً لرأي.. وهي تتّصل بطبيعة تفكيرهم واتّجاه حياتهم، ولا تنمّ على فكر مستقرّ، ولا تصدر عن تأمّل عميق، فالأعشى ما كان لانفعال مديحه أن ينتهي إلاّ إلى حكم وخطرات، وما كان لسّوْرة هجائه أن تهدأ إلاّ بعبر ومواعظ[1]، فقصيدة الأعشى ليست خالصةً لفنّ الحكمة، وأمثال هذا الأسلوب مألوف في شعر الجاهليّة وصدر الإسلام، لأنّ غرض الشاعر عصرئذٍ لم يكن غرض المتأمّل المفكّر، إذا لم نضع في الحسبان جماعة الشعراء الحنفاء الذين اجتمعت في حكمتهم روافد التجربة والثقافة معاً[2]، وكانوا ظاهرةً متفرّدةً.

ولا ريب في أنّ ابن أحمر لم يكن ليختلف عن سائر شعراء طبقته، فقد كان يرسل حكمه في ثنايا أغراضه، ويجمع فيها آراءه في تجارب حياته

(1) انظر: ديوان الأعشى 9 و23 و35 و49 و125 و136 و217.

(2) يرى الدكتور عبد الحفيظ السَّطْلي أنّ «حكمة أميّة تختلف عن أمثال زهير، وتلتقي بحكمة عديّ بن زيد وورقة بن نوفل وأمثالهما، وذلك حين تعتمد على ولوع أميّة بالدين وقراءة الكتب واتّصاله بأخبار الأديان والأمم الغابرة، ولذلك كانت حكمة أميّة أصيلةً غنيّةً، تجتمع فيها روافد التجربة والثقافة معاً» ديوان أميّة بن أبي الصَّلْت 249.

وأحداثها، فتزدان بها معانيه، وترفل بها أبياته إلاّ أنّ ممّا لاشكّ فيه أنّ هذا الغرض لم يستأثر بنفسه وفنّه، وإنّما كان يصدر عن إحساس بالمعاناة، ويرتبط بتجارب ذاتيّة، تركت أعمق الأثر في نفسه، فإذا ما عاتب زوجه من بعد خلاف قاطع، أخذ يتحدّث بلغة الواعظ، ويَرْغَب بها عن كلّ مسترخ مستكين، ويحبّب إليها كلّ أريحيّ شجاع[1]:

فلا تَصِلي بمَطْروقٍ، إذا ما سَرى في الرَّكْبِ أَصْبَحَ مُسْتَكينا
مُطيعٌ لا يُطاعُ، ولا يُبالي أَغَثّاً كانَ حالُكِ أَمْ سَمينا
يَظَلُّ أَمامَ بَيْتِكِ مُجْرَعِبّاً كما أَلْقَيْتِ بالمَتْنِ الوَضينا
إذا شَرِبَ المُرِضَّةَ قالَ: أَوْكي عَلى ما في سِقائِكِ قَدْ رَوينا
إذا اشْتَدَّ الزَّمانُ أَكَبَّ لَغْياً فلا قِدْحاً يُدِرُّ ولا لَبونا
وكوني إنْ هَلَكْتُ لِأَرْيَحِيٍّ مِنَ الفِتْيانِ، لا يُضْحي بَطينا
فما كَلَّفْتُكِ القَدَرَ المُغَبَّى ولا الطَّيْرَ الَّذي لا تَعْبُرينا

وإذا ما «سُقي بطنه»[2] من بعد أن «جرّب تسعين حِجّةً»[3]، عاذ باللّه من هذا الداء، ورجاه أن يجعل «البرء نعمةً»[4] أو الموت قضاءً، فلقاؤه «خيرٌ من ضَمان وفتنة»[5]، ورأى في الموت قدراً عامّاً، لابدّ منه، وقال[6]:

أَلا لا أَرى هَذا المُسَرِّعَ سابِقاً ولا أَحَداً يَرْجو البَقِيَّةَ باقِيا

(1) القصيدة 58/ 25 ـ 30، 34.
(2) أدب الكاتب 119، والشعر والشعراء 356، والمعاني الكبير 1220، وسمط اللآلئ 778، والاقتضاب 342، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134.
(3) القصيدة 60/ 10.
(4) القصيدة 60/ 7.
(5) القصيدة 60.
(6) القصيدة 60/ 2 ـ 3.

رَأَيْتُ الـمَـنـايـا طَـبَّـقَـتْ كُـلَّ مَـرْصَـدٍ يَـقُـدْنَ قِـيـاداً، أَوْ يُـجَـرِّدْنَ حـادِيـا

وحكمة ابن أحمر تجري على سننهم في التعقيب على موضوع من الموضوعات بحكم أو عبرة، فهو يتذكّر مثلاً عهد امرئ القيس، ويقف على لهوه ومجونه، ثمّ يخلص إلى أحكام، ليست إلاّ عبراً لذلك العهد، ويقول[1]:

إِنَّ الـفَـتـى يُـقْـتِـرُ بَـعْـدَ الـغِـنـى ويَـغْـتَـنـي مِـنْ بَـعْـدِ مـا يَـفْـتَـقِـرْ
والـحَـيُّ كـالـمَـيْـتِ، ويَـبْـقـى الـفَـتـى والـعَـيْـشُ فَـنَّـانِ، فـحُـلْـوٌ ومُـرّ
إِمّـا عَـلـى نَـفْـسـي، وإِمّـا لَـهُ فـعـايِـشِ الـنَّـفْـسَ، وفـيـهـا وَقَـرْ

فكانت هذه الحكم وليدة ما تأصّل في نفسه من ثقافته، وما مرّ به من تجارب في آنٍ معاً، فهي عميقة الجذور في ذاته، وليست مجرّد أمثال عابرة ومواعظ عامّة. ولابن أحمر حكم أخرى، لم نقف على شيء من صلتها، فتظلّ خطرات، تجيء عفويّةً، لا تكلّف فيها ولا تصنّع، وتشهد له بالفطنة والحكمة، ومنها قوله في البخل والمعروف والعِرْض[2]:

إِذا أَنْـتَ راوَدْتَ الـبَـخـيـلَ رَدَدْتَـهُ إِلى البُخْلِ، واسْتَمْطَرْتَ غَيْرَ مَطيرِ
مَتى تَطْلُبِ الـمَعْروفَ في غَيْرِ أَهْلِهِ تَجِدْ مَطْلَبَ الـمَعْروفِ غَيْرِ يَسيرِ
إِذا أَنْتَ لَمْ تَجْعَلْ لِعِرْضِكَ جُنَّةً مِـنَ الـذَّمِّ سـارَ الـذَّمُّ كُـلَّ مَـسـيـرِ

وهذا النُّثار من الحكم في شعر ابن أحمر لا يخرج عن حكمتهم منذ عصر ما قبل الإسلام، إذ إنّنا نجد أنّ معانيه قد سُبق إليها في شعر الجاهليّة، وتكرّرت في شعر الإسلام، ثمّ نرى أنّ الحكمة لديه كانت ترد في أثناء أغراضه المختلفة أو تعقّب عليها بموعظة حسنة أو مثل عابر.

(1) القصيدة 35/ 14 ـ 16.
(2) القصيدة 23/ 2 ـ 4.

6 ـ الوصف:

برع ابن أحمر في الوصف، وحرص على أن يوفّر لفنّه أسباب الجودة، فازدانت شتّى موضوعاته بألوان من جمال البادية وروعة الصحراء، وتنوّعت في شعره صور الطبيعة والحيوان حتّى إنّها استقلّت بأكثر أبيات القصيدة، فلم يكن ابن أحمر بعيداً عن سنّتهم في فنّ الوصف، إذ كان يغلب على أغراضهم، ويأخذ أشعارهم. ولهذا قال ابن رشيق: «الشعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه»[1].

وكان ابن أحمر صاحب إبل، يعرف أحوالها وهيئاتها، وكانت نشأته بنجد أعرابيّةً، جعلته يألف الصحراء في وعرها ووعثها وصحوها وغيثها، ويصوّر ما تقع عليه عينه من جوانب الطبيعة وأنواع الحيوان، فجاء بلوحات حيّة لبقر الوحش والحِرْباء والخيل والثعلب والوعل والمُكّاء والقطاة والذئب والثور والنعام، وأتى بمشاهد رائعة للفلاة والسراب والرياح والسحاب.. ولا يقف ابن أحمر عند هذه الأوصاف، بل يتّجه بعينه إلى جوانب أخرى من الحياة، فيصوّر المنازل وظعائنها، ويصف الخمرة ومجالسها، وقد نجده يتغزّل بالمرأة، فيصف محاسنها، أو قد نراه ينزل مكاناً، فيصوّر أشجان الغربة وأهوال الطريق، وربّما كان لمروره بالبصرة أثر واضح في وصف دُرّة وسفينة.

وهذه الصور تراها عين ابن أحمر، فتتّصف بالموضوعيّة، وقد تملك نفسه، فيتعاطف معها، ويضفي عليها شيئاً من مشاعره وشيئاً آخر من خياله، فتتميّز بالذاتيّة، وهي تتنوّع، فلا تقف عند ناحية دون أخرى، وتتلوّن، فلا تخلو من هدأة الطبيعة وسَورتها أو من صمت الحياة وحركتها.

ولعلّ أهمّ ما يختصّ به ابن أحمر هو وصف الرياح، وربّما تميّز من سائر

(1) العمدة 2/ 294.

شعراء طبقته بهذا الغرض، إذ إنّنا لا نقع في الشعر الجاهليّ والإسلاميّ معاً على وصف للرياح، يفوق اهتمام شاعرنا به، فهو دائب الإشارة إليها، شغوف بالحديث عنها، لا يفتأ يذكر أنواعها وأحوالها، ويقف على صور الغبار وألوانه، ويوفّر لهذا كلّه اللفظة المعبّرة والمجاز المصوّر، فكأنّه قد وجد في هذا الغرض ضالّته الفنّيّة، فعمد إلى تجويده بأسباب الفنّ وإلى تزيينه بألوان الروعة.

فللرياح في شعره مهبّ ومقيل، فإذا وقف بأطلال داثرة أو ظُعُن راحلة، جعل من أوصافها جزءاً مهمّاً من المقدّمة الطلليّة، وشاء ألاّ تمرّ الريح عليها مروراً لطيفاً عابراً، بل دقّق في وصفها، وجعل هبوبها شديداً، فكأنّ بها هَوَجاً، أي: جنوناً وحمقاً حتّى إنّها تركب رأسها، فلا تثني عن وجهها، ويخز مرّها الأرض وخزاً، فلا ترأف بفصيل من بقر، وتستمرّ في الليل، فلا تسكن، ولا تهدأ، فالشاعر يصوّر ثورة الريح، فيقول[1]:

مَعارِفُ تُلْوي بالفُؤادِ، وإِنْ تَقُلْ ... لَها بَيِّني لي حاجَةً لَمْ تَكَلَّمِ
أَرَبَّتْ عَلَيْها كُلُّ هَوْجاءَ سَهْوةٍ ... زَفوفِ التَّوالي رَحْبَةِ المُتَنَسَّمِ
إِبَارِيَّةٍ هَوْجاءَ، مَوْعِدُها الضُّحى ... إِذا أَرْزَمَتْ جاءَتْ بوِرْدٍ غَشَمْشَمِ
زَفوفٍ نِيافٍ هَيْرَعٍ عَجْرَفِيَّةٍ ... تَرى البيدَ مِنْ إِعْصافِها الجَرْيَ تَرْتَمي
تَحِنُّ، ولَمْ تَرْأَمْ فَصيلاً، وإِنْ تَجِدْ ... فَيافِيَ غِيطانٍ تَهَدَّجْ، وتَرْأَمِ
إِذا عَصَّبَتْ رَسْماً، فلَيْسَ بدائِمٍ ... بِهِ وَتِدٌ إِلاّ تَحِلَّةَ مُقْسِمِ
تَهُبُّ مِنَ الغَوْرِ اليَماني، وتَنْتَهي ... إِلى هَدَبِ الحُوّارِ، يا بُعْدَ مَسْعَمِ
تَبيتُ، ولَمْ تَهْجَعْ، فيُصْبِحُ ذَيْلُها ... لَهُ ثائِبٌ يَشْقى بِهِ كُلُّ مَخْرِمِ
لَها مُنْخُلٌ، تُذْري إِذا عَصَفَتْ بِهِ ... أَهابِيَّ سَفْسافٍ مِنَ التُّرْبِ تَوْأَمِ

(1) القصيدة 49/ 5 ـ 15.

يَـمـانِـيَـةٌ مُـرَّانُ شَـبْـوَةَ دونَـهـا وشَـيْـخٌ شَـآمٌ هَـلْ يَـمـانٍ بـمُـشْـئِـمِ
فـلـلّـهِ مَـنْ يَـسْـري، ونَـجْـرانُ دونَـهُ إِلى دَيْرِ حِسْمى أَوْ إِلى دَيْرِ ضَـمْـضَـمِ

وهذا النصّ يرسم صورةً رائعةً للريح، تظهر مدى عناية ابن أحمر بفنّه وصلته بنفسه، فقد وقف بآثار، تعطف بالقلب، فـ «أوجز، وأبان عن شديد تشوّق وعظيم تحسّر»[1] على غير عادتهم، وكأنّه قد اتّخذ ذاك الوقوف الوجيز وسيلةً موضوعيّةً لوصف الريح الذي وفّر له ما يلائمه من ألفاظ غريبة، لا تتضّح معانيها إلاّ بعد عناء وريث، ثمّ هيّأ شيئاً من الصوت واللون والحركة، ووضع الصورة في إطارها الزمانيّ والمكانيّ، فكان موعدها الضحى، وكان مهبّها (الغَوْر اليمانيّ) ومقيلها (هَدَب الحُوّار) حتّى أمكن له أن يحيي مشهداً رائعاً أمام أعيننا بكلّ ما فيه من خطوط وألوان وحركات. وربّما اضطرب الوصف في تلك القصيدة، وخفت شيء من بريقه، لأنّ أغلب أبياته فرادى، ألفّتُ ما تناثر منها في مصادر شتّى، فلا ريب في أنّ ثمّة جوانب قد برزت، وجوانب أخرى قد خفيت إلاّ أنّ براعته الفنّيّة لا تخفى في مثل هذا النُّثار من الأوصاف.

ويبدو أنّ ابن أحمر قد دأب على هذا الأسلوب الفنّيّ في قصائده الأخرى، فجاء بصور حيّة للرياح في مقدّمته الطلليّة، وأسهب في تصويره أحوالها وأشكالها، ففي إحدى رائيّاته وقف بمنازل مقفرة، وراح يرسم للريح مشهداً، لا يقلّ روعةً وبراعةً عن المشهد السابق، فهي هوجاء، لا مُسْكة في عقلها، فتظلّ تمرّ في كلّ شّقّ، كأنّها والهة ثكلى، تحنّ إلى ولد، فقدته، وهي عشواء، لا تبصر ما أمامها، فتبلي الجبال، وتفني القفار، وتعفو الرسوم[2]:

خَـلَـدَ الـجُـبَـيْـبُ، وبـادَ حـاضِـرُهُ إِلاّ مَـنـازِلَ كُـلُّـهـا قَـفْـرُ

(1) نقد الشعر 124.

(2) القصيدة 20/ 4 ـ 7، 12 ـ 13. وفي البيت الخامس من النصّ إقواء.

وَلَـهَـتْ عَـلَـيْـهـا كُـلُّ مُـعْـصِـفَـةٍ هَـوْجـاءُ لَـيْـسَ لِـلُـبِّـهـا زَبْـرُ
عَـشْـواءُ رَعْـبَـلَـةُ الـرَّواحِ خَـجَـوْ جـاةُ الـغُـدُوِّ، رَواحـهـا شَـهْـرُ
خَـرْقـاءُ تَـلْـتَـهِـمُ الـجِـبـالَ وأَجْـ ـوازَ الـفَـلاةِ، وبَـطْـنُـهـا صِـفْـرُ
لِـعِـبَـتْ بِـهـا هُـوجٌ يَـمـانِـيَـةٌ فـتَـرى مَـعـارِفَـهـا، ولا تَـدْري
إِنْ تَـغْـدُ مِـنْ عَـدَنٍ فـأَبْـيَـنَـهُ فـمَـقـيـلُـهـا الـحُـوَّارُ والـبِـشْـرُ

وهذا النصّ الآخر يوضّح الصورة عينها لوصف الرياح، فابن أحمر لا يخرج البتّة عن أسلوبه الفنّيّ في التصوير، وربّما عاد، فكرّر الأوصاف نفسها في الإطار الموضوعيّ ذاته. وابن أحمر عالم بأنواع الرياح وأحوالها، يعرف مهبّها ومقيلها وأوصافها ومعانيها حتّى إنّه يروعك بهذا الوفر من الصور والمفردات والألوان، فهو يذكر من أنواعها الشمال والدَّبور والثائب والصَّبا والجنوب والجِرْبِياء، ويقف على أحوالها، فلا يفوته شأن من شؤونها، إذا هبّت وصوّتت، وكأنّها تملك نفسه، وتخطر بباله، فلا تبارح خياله إن تذكّر قوماً، لحقوا بالجزيرة، فصار يتمنّى أن تكون الرياح رسولهم، ويقول[1]:

أَلا لَـيْـتَ الـرِّيـاحَ رَسـولُ قَـوْمٍ بِـمَـرْجِ صُـراعَ أَوْ بـالأَثْـدَريـنـا

وإنّ مدح النعمان بن بشير الأنصاريّ، راح يثني على قومه الخزرج، ويجدهم أولي نجدة وبأس، إذا ريح الصَّبا أتت بالمطر[2]:

الـمُـطْـعِـمونَ إِذا ريـحُ الـصَّـبـا اشْـتَـكَـرَتْ والـطَّـاعِـنـونَ إِذا مـا اسْـتُـلْـحِـمَ الـثَّـقَـلُ

فهو يزجي صور الرياح في أثناء أغراضه المختلفة، ويكاد يهجس بالحديث عنها، وأمّا الغبار، فله صلة موضوعيّة بوصف الرياح كما أنّ له في نفس ابن أحمر دافعاً ذاتيّاً، يجيش في خاطره، فللشدائد من الأيّام غَبَرَة، تبعث

(1) القصيدة 58/ 5.
(2) القصيدة 46/ 8.

الحركة والبأس في الصورة، فإذا ذكر يوماً مرّاً، رأى له غباراً، وقال[1]:

لَـمّـا رَأَى يَـوْمـاً لَـهُ هَـبْـوَةٌ مُـرّاً عَـبـوسـاً شَـرُّهُ مُـقْـمَـطِـرْ
أَدّى إِلـى هِـنْـدٍ تَـحِـيَّـاتِـهـا وقـالَ: هَـذا مِـنْ وَداعـي دُبُـرْ

وقال أيضاً[2]:

ويَـوْمٍ قَـتَـامٍ مُـزْمَـهِـرٍّ وهَـبْـوةٍ جَـلَـوْتُ بـمِـرْبـاعٍ تَـزِيـنُ الـمَـتـالِـيـا

فالغبار يرتبط لديه بالبؤس، وربّما أتى في إطاره الواقعيّ من الصورة، فإذا ذكر خيلاً أثار العجيج من حولها، وقال[3]:

عَـجـيـجُ الـمُـذكِّـي شَـدَّهُ بَـعْـدَ هَـدْأَةٍ مُـجَـحْـدِلُ آفـاقٍ بَـعـيـدُ الـمَـذاهِـبِ

وإذا وقف بظُعُن، عرض لهنّ الغبارَ، وقال[4]:

وَقَـفْـنَ عَـلـى الـعَـجـالِـزِ نِـصْـفَ يَـوْمٍ وأَدَّيْـنَ الأَواصِـرَ والـخِـلالا
وصَـدَّتْ عَـنْ نَـواظِـرَ، واسْـتَـعَـنَّـتْ قَـتَـامـاً هـاجَ صَـيْـفِـيّـاً وآلا

فابن أحمر يبرع بوصف الريح، ويخلص لفنّه، ولعلّه يتفرّد بذلك عن سائر شعراء طبقته، فإذا كان ابن رشيق[5] قد جعل لكلّ شاعر وصّاف مزيّةً على غيره من الشعراء، فإنّ من واجب البحث علينا أن نخصّ ابن أحمر بوصف الرياح، فلا نرى لسواه اهتماماً، يفوق اهتمامه.

وابن أحمر أتى بلوحات أخرى من التصوير الموضوعيّ، ولا سيّما ما نقف عليه من وصف للحيوان والطبيعة، فما كان يُغفل شيئاً، يمكن أن تقع عليه

(1) القصيدة 35/ 12 ـ 13.
(2) القصيدة 60/ 36.
(3) القصيدة 4/ 2.
(4) القصيدة 48/ 7 ـ 8.
(5) انظر: العمدة 2/ 296.

عينه في بيدائه إلاّ أنّ ذلك لم يكن ليحظى بوافر نصيب من فنّه، أو يرقى إلى ما جاء به الفحول من الوصّافين، فكأنّ وصف الرياح قد ذهب بجلّ اهتمامه.

فإذا ذكر الإبل، وهو صاحب الرِّكاب، عرض لوصفها في إطارها الموضوعيّ من القصيدة، ولم يدقّق النظر في أوصافها على نحو ما تفرّد به طَرَفة في معلّقته إلاّ أنّه أجاد تصويرها كغيره من القدماء الذين كانت الإبل مراكبهم أو رِعاءهم، فأتى بصور مألوفة لسرعتها ونشاطها وهيئتها وحنينها، وشبّهها بحيوانات أخرى، فهي «فَرْخ الصَّعْوِ في العامِ الجَديبِ»[1]، و«قَطا الحَزْنِ قَدْ كانَتْ فِراخاً بُيوضُها»[2]، و«ثَوْر العَدَابِ الفَرْدِ يَضْرِبُهُ النَّدى»[3]، ففي كلّ تشبيه من هذه التشبيهات صوّر حالاً من أحوالها أوصفةً من صفاتها، فاتّخذ من ذكر الإبل وسيلةً لوصف حيوانات أخرى، ولكنّه وصف مبتور، لا يفصّل في قصّة حيوان منها على نحو ما نراه لدى شعراء هذيل أو لدى امرئ القيس والأعشى ولبيد وزهير والنابغة وسواهم.

ولا شكّ في أنّ ابن أحمر لم يخرج عن عادة هؤلاء الشعراء في مثل هذه القصص، إذ كان الواحد منهم يشبّه الناقة بالبقرة الوحشيّة أو الثور أو الحمار أو الأتان أو الظليم.. ثمّ يسرد قصّة الحيوان المشبّه به وما يلقاه من الصائد وكلابه، فإذا ما انتهت القصّة، عاد إلى وصف ناقته. وأمّا قصص ابن أحمر، فلم يصلنا منها غير شواهد مبتورة وأوصاف مجزّأة، ومن ذلك ما رواه ابن قتيبة[4] له في بقرة وحشيّة ثكلى، يترصّدها صائد، فقال[5]:

(1) القصيدة 5/ 3.
(2) القصيدة 36/ 4.
(3) القصيدة 28/ 21.
(4) المعاني الكبير 712.
(5) القصيدة 8/ 1 ـ 3.

ثَـكْـلـى عَـوانٍ بـدُوّارٍ مُـؤَلَّـفَـةٌ   هاجَ القَنيصُ عَلَيْها بَعْدَما اقْتَرَبا
ظَلَّتْ بِجَوٍّ رُؤافٍ، وَهْيَ مُجْمِرَةٌ   تَعْتادُ مَكْراً لُعَاعاً، نَبْتُهُ رُطُبا
عَنْ واضِحِ الَّلوْنِ كالدِّيْنارِ مُنْجَدِلٍ   لَمْ تَخْشَ إِنْساً، ولَمْ تَتْرُكْ بِهِ وَصَبا

ثمّ وجدت ابن أحمر يخلص إلى وصف ناقة، ويقول[1]:

تَعْدو بِنا شَطْرَ جَمْعٍ، وَهْيَ عاقِدَةٌ   قَدْ كارَبَ العَقْدُ مِنْ إِيفادِها الحَقَبا
كَأَنَّها وبَنو النَّجّارِ رُفْقَتُها   وقَدْ عَلَوْنَ بِنا بَوْباتِها الصَّبَبا

ولعلّ ابن أحمر كان دؤوباً على هذا الأسلوب من التصوير الفنّيّ، وربّما وضعه في خدمة غرضه الموضوعيّ، فقد شبّه راحلته إلى يحيى بن الحكم بن أبي العاص بالبقرة الوحشيّة، وجعل من قصّتها مع ذئب لحم موعظةً حسنةً بين يدي والي المدينة وإشارةً مؤثّرةً إلى ظلم السُّعاة قومَه، وهذه القصّة لوحة حيّة لبقرة، تغفل عن ولدها، فيتربّص به ذئب لَحِم، ينقضّ عليه، ويمزّقه إِرْباً إِرْباً، فيثكل أمّه، ويضنيها. والغريبُ في هذه الصورة أنّ ابن أحمر لا يحرّك في أبياته بعض المشاعر الذاتيّة، فيأتي بصور نفسيّة لهذه البقرة، بل يصرّ دائماً على الوصف الخارجيّ للمشاهد، فإذا عادت البقرة إلى ولدها، وقد غدا أشلاء ممزّقةً، لم يصوّر خلجات نفسها، وإنّما راح يصف الطلّ الّذي تطايرت قطراته، وتناثرت على ظهرها، ويقول[2]:

طافَتْ، وسافَتْ قَليلاً حَوْلَ مَرْتَعِهِ   حَتّى انْقَضى مِنْ تَوالي إِلْفِها الوَطَرُ
فلَمْ تَجِدْ في سَوادِ الَّليْلِ رائِحةً   إلاّ سَماحِيقَ مِمَّا أَحْرَزَ العَفَرُ
ثُمَّ ارْعَوَتْ في سَوادِ الَّليْلِ، وادَّكَرَتْ   وقَدْ تَمَزَّعَ صادٍ، لَحْمُهُ دَفِرُ
ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ كبَرْقِ الَّليْلِ، وانْحَسَرَتْ   عَنْها الشَّقائِقُ مِنْ نَبْهانَ والظَّفَرُ

(1) القصيدة 8/ 7 ـ 8.
(2) القصيدة 18/ 13 ـ 17.

تَطايَحَ الطَّلُّ مِنْ أَرْدافِها صُعُداً كما تَطايَحَ مِنْ ماموسَةَ الشَّرَرُ

وإذا حنّت ناقته إلى ولدها، فهو يمرّ بحنينها مروراً عابراً، ويجعله مدخلاً موضوعيّاً لغرضه الرئيس، ويقول[1]:

حَنَّتْ قَلوصي إِلى بابوسِها جَزَعاً فما حَنينُكَ أَمْ ما أَنْتَ والذِّكَرُ
إِخالُها سَمِعَتْ عَزْفاً، فتَحْسَبَهُ إِهابَةَ القَسْرِ لَيْلاً حينَ تَنْتَشِرُ
خُبِّي، فلَيْسَ إِلى عُثْمانَ مُرْتَجَعٌ إِلاّ العَداءُ وإِلاّ مَكْنَعٌ ضَرَرُ
وانْجي، فإِنِّي إِخال النّاسَ في نَكَصٍ وأَنَّ يَحْيى غِياثُ النّاسِ والعُصُرِ

فابن أحمر لا يخرج عن الإطار الفنّيّ الشائع لوصف الإبل، ويوشك ألاّ يخرج أيضاً عن التصوير الموضوعيّ حتّى إنّه في أكثر المواقف إحساساً وشعوراً بالهلع لا يجد وسيلةً إلى نفس بعيره، فيحاوره، ويناجيه، فإذا طلبه يزيد بن معاوية في هجاء، فزع إلى ناقته القصواء، والذعر يرعده، وأسرع بها، فرآها كالثور الوحشيّ، ثمّ دقّق في وصف الثور، فاختار له أن يألف اللين من الرمل، فلا يقدر الصائد عليه، ثمّ جعلها تسأل: «أيسقى ابن أحمر، فلا يروى منّي؟»، فكأنّه يكتفي بهذه الصورة الذاتيّة، ولا يبثّها أشجانه وأحزانه، ولا يكشف عمّا يختلج في نفسه من مشاعر الخوف، وما يعتلج في خياله من صور ذاتيّة، ويقول[2]:

فَزِعْتُ إِلى القَصْواءِ، وَهْيَ مُعَدَّةٌ لِأَمْثالِها عِنْدي، إِذا كُنْتُ أَوْجَرا
كثَوْرِ العَدابِ الفَرْدِ يَضْرِبُهُ النَّدى تَعَلَّى النَّدى في مَتْنِه، وتَحَدَّرا
تَقولُ، وقَدْ عالَيْتُ بالكُورِ فَوْقَها أَيُسْقى، فلا يَرْوَى إِلَيَّ ابْنُ أَحْمَرا

ومن الصور التي لا تخرج في شعره عن المألوف أنّ الناقة سريعة خفيفة،

(1) القصيدة 18/ 23 ـ 26.
(2) القصيدة 28/ 20 ـ 22.

كشف خشب الرحل عن لحمها المهزول بعد أن قطعت الفيافي، وجابت الفلوات[1]:

تَماثيلُ قِرْطاسٍ عَلى هَبْهَبِيَّةٍ نَضا الكُورُ عَنْ لَحْمٍ لَها مُتَخَدِّدِ

وهي طاوية البطن، أذهب شحمها السير، وأذابه الجهد[2]:

كَأَنَّها بِنَقا العَزَّافِ طاوِيَةٌ لَمّا انْطَوى نَيُّها، واخْرَوَّطَ السَّفَرُ

وربّما جاء بشيء من غريب الصور في وصفه الإبل، لا يعرفه إلاّ من تبدّى، أو اختلف زمناً إلى البادية، فقد صوّر بعيراً، ألقي على ناقة مِقْلات[3]، فتدرّ عليه[4]:

فَصَدِّقْ ما أَقولُ بِحَبْحَبِيٍّ كَفَرْخِ الصَّعْوِ في العامِ الجَديبِ
تَلَسَّنَ أَهْلُهُ زَمَناً عَلَيْهِ رِماثاً تَحْتَ مِقْلاتٍ نَيوبِ

فنوّه به ابن السِّكِّيت، ونقل عنه ثعلب وابن منظور قوله، فقال الأوّل: «قال يعقوب: هذا غريب، والمعنى فيه أنّهم أقاموا للناقة فصيلاً، ليستدرّ لبنها»[5]، وقال الآخر: «قال يعقوب: هذا معنى غريب، قلّ من يعرفه»[6]، وليس ببعيد أمثال هذا الغريب عن ابن أحمر، فقد فاض شعره بالغريب من المعاني والألفاظ.

(1) القصيدة 12/ 2.
(2) القصيدة 18/ 7.
(3) قال ابن منظور: «المِقْلات: التي لا يعيش لها ولد، وقد أَقْلَتَتْ، وقيل: هي التي تلد واحداً، ثمّ لا تلد بعد ذلك» اللسان (قلت).
(4) القصيدة 5/ 3 ـ 4.
(5) مجالس ثعلب 320.
(6) اللسان (لسن)، ومثله في التاج (لسن).

فابن أحمر لا يعنى إلاّ بالتصوير الموضوعيّ للإبل، فيصف سرعتها ونشاطها وهيئتها وحنينها وصفاً خارجيّاً، لا يمسّ مشاعره، ومثل هذا التصوير نراه أيضاً في وصفه الخيل، يقف على جريه ومظهره وقفةً طويلةً متأنّيةً، يدقّق في أوصافه، ويختار لفرسه أن يكون مثالاً رائعاً من النشاط والجمال، وربّما هيّأ له من عناصر التصوير ما يجعله في غاية الإتقان، فأتى بلوحات خالصة لوصفه، احتفظ لنا أبو عبيدة بواحدة منها بينما ظلّت اللوحات الأخرى نُثاراً من الأبيات في شتّى المصادر. وما تفرّد أبو عبيدة بروايته يأخذ بوصف دقيق لذلك المثال الرائع، فهو طويل القوائم منضمّ البطن ذو متن عريض أملس، يزجّ بقوائم صلبة الحوافر، لا تتهيّب حُزونة الأرض، وهو ضامر البطن خافق الفؤاد وافر النشاط ذو منكب منتفخ وأضلاع صلبة وعُنُق طويل ومظهر مشرف وأعجاز ممتلئة[1]:

ولَقَدْ عَذَوْتُ، وأَيَّ أَفْنُنِ دَهْرِهِ ... يَرْجو الفَتى في العَيْشِ ما لَمْ يَفْتَدِ
بمُقَلِّصٍ دَرْكِ الطَّريدَةِ مَتْنُهُ ... كصَفا الخَليقَةِ بالفَضاء المُلْبِدِ
يَخْدي بأَوْظِفَةٍ شَديدٍ أَسْرُها ... شُمِّ السَّنابِكِ، لا تَقي بالجَدْجَدِ
إِذْ صَبَّحَتْهُ طاوِياً ذا شِرَّةٍ ... وفُؤَادُهُ زَجِلٌ كعَزْفِ الهُدْهُدِ
ذي مَنْكِبٍ رَهِلٍ وقُصْرى جَأْبَةٍ ... وصَليفِ أَرْعَنَ يافِعِ المُتَلَدَّدِ
لَحِقَتْ قُصَيراهُ وسونِدَ صَدْرُهُ ... وإِذا تَدافَعَ خِلْتَهُ لَمْ يُسْنَدِ
حُدِيَتْ بحارِكِهِ قَطاةٌ فَعْمَةٌ ... في صَنْدَلٍ لَهِزٍ وهادٍ مُوْفِدِ

ويبدو أنّ ابن أحمر لم يكتف بهذه الأوصاف التي رواها أبو عبيدة[2]، فقد وقفنا في بعض المصادر على صلة لها، ألّفت ما تفرّق منها حتّى تتمّ اللوحة،

(1) القصيدة 14/ 19 ـ 25.

(2) الأبيات رواها أبو عبيدة في كتاب الخيل 165 ما عدا الرابع منها، فقد أضفته بترتيبه من الحيوان 3 / 523.

وتبرز قدرة شاعرنا على هذا الفنّ، فالفرس نشيط مرهف، يتعهّده في الشتاء، ويقوم عليه، ويشبّهه لبياضه بنجم ولنشاطه بثور، ينهلّ المطر عليه بغزارة، فيلتجئ إلى قطعة من الرمل متهدّمة، ثمّ يسهب في قصّة هذا الثور على عادتهم في الوصف، ويقول[1]:

هَـمِـعٌ إذا رَشَـحَ الـعِـذارُ بـلِـيـتِـهِ وكَـفَـتْ خَـصـائِـلُـهُ وَكِـيـفَ الـفَـرْقَـدِ
وحَـبَـتْ لَـهُ أُذُنٌ يُـراقِـبُ سَـمْـعَـهـا بَـصَـرٌ كـنـاصِـبَـةِ الـشُّـجـاعِ الأَصْـيَـدِ
لَـمْ يَـدْرِ مـا حَـدَبُ الـشِّـتـاءِ ونَـقْـصُـهُ ومَـضَـتْ صَـنـابِـرُهُ، ولَـمْ يَـتَـخَـدَّدِ
حَـرِجـاً تَـرِقُّ بُـروقُـهُ يَـقِـيـانِـهـا وشَـفـيـفُـهـا عَـنْ مَـتْـنِـهِ الـمُـتَـأَوِّدِ
لَـمّـا انْـجَـلى غَـلَـسُ الـظَّـلامِ صَـبَـحْـتُـهُ ذا مَـيْـعَـةٍ خَـرِصـاً كـلَـوْنِ الـفَـرْقَـدِ
بـاتَـتْ عَـلَـيْـهِ لَـيْـلَـةٌ عَـرْشِـيّـةٌ شَـرِيَـتْ، وبـاتَ عَـلـى نَـقـاً مُـتَـهَـدِّدِ
فـغَـدا بـشِـرَّتِـهِ يَـلـوحُ قَـمـيـصُـهُ بَـيْـنَ الـشَّـقـائِـقِ والـفَـضـاءِ الأَجْـرَدِ
فـبَـدَرْتُـهُ عَـيْـنـاً، ولَّـجَّ بـطَـرْفِـهِ عَـنِّـي لُـعَـاعَـةُ لَـغْـوَسٍ مُـتَـرَنِّـدِ
فـانْـقَـضَّ مُـنْـسَـدِراً، كَـأَنَّ إرانَـهُ قَـبَـسٌ تَـقَـطَّـعَ دونَ كَـفِّ الـمُـوْقِـدِ
نَـبَـذَ الـجُـؤَارَ، وضَـلَّ هِـدْيَـةَ رَوْقِـهِ لَـمّـا اخْـتَـلَـلْـتُ فُـؤَادَهُ بـالـمِـطْـرَدِ

فابن أحمر في هذه اللوحة مصوّر بارع، يحيط بأقصى أبعاد اللوحة، ويتّجه إلى أدقّ أجزائها، ولعلّ لوحته من خير ما وصفت به خيل، وأمّا اللوحات الأخرى، فهي نُثار من الأبيات، لا يكاد يتميّز من اللوحة السابقة في شيء من التصوير الخارجيّ الذي كان غاية ابن أحمر وديدنه في شتّى صوره للقطاة والحِرباء والوعل والمُكّاء والظَّليم.. وأغلب هذه الصور جاء به في أثناء موضوعاته المختلفة، ليصوّر حالاً من الأحوال، أو يوضّح غرضاً من

(1) القصيدة 14/ 26 ـ 35.

الأغراض، فإذا وصف امرأةً، رآها كألواح السلاح وكالمهاة، وجعلها كبيضة الظليم، ثمّ أسهب في وصفه، فقال[1]:

لَـيْـسَـتْ بـشَـوْشـاةِ الـحَـديـثِ ولا فُـتُـقٍ مُـغـالِـبَـةٍ عَـلـى الأَمْـرِ
تُـمْـسـي كـأَلْـواحِ الـسِّـلاحِ، وتُـضْـحـي كـالـمَـهـاةِ صَـبـيـحَـةَ الـقَـطْـرِ
كـوَديـعَـةِ الـهَـجْـهـاجِ بَـوَّأَهـا بـبِـراقِ عـاذِ الـبَـيْـضِ أَوْ ثَـجْـرِ
لـهَـدَجْـدَجٍ جُـرْبٍ مَـسـاعِـرُهُ قَـدْ عـادَهـا شَـهْـراً إِلـى شَـهْـرِ

وكأنّه كان يريد أن يبرز براعته في التصوير ودقّته في الوصف، وما رأيناه في الأوصاف السابقة من براعة ودقّة يمكن أن نراه أيضاً في وصفه الأطلال والظعائن والأصحاب والخمرة والقدور وسوى ذلك ممّا كانت عين ابن أحمر تقع عليه، فتدقّق في أجزائه، وتبرع في أوصافه، فإذا وصف القدور جعلها كالكبار العظام من الإبل، فلم تسكن بالهوينى، والجواري تداريها في النَّصْب والإنزال، ثمّ دقّق في الصورة، فشبّهها بالطويلة أو السريعة من النوق، ونوّه بهذا التَّبْريزيّ، فقال: «لمّا وصف القدور، وجعلها مثل الإبل، حَسُن أن يصف القِدْر بالهِرجاب، لأنّ الهِرْجاب من صفات النوق، وهي الطويلة على وجه الأرض، وقيل: السريعة، وإنّما يريد بها ههنا العظم وسرعة إنضاج اللحم»[2]، ثمّ بعث في الصورة الصوت والحركة، فرآها لِهَمَّة جيّاشة لسعة بطنها وكثرة غَمْرها، فكأنّ مَرَقها ماء عَيْلَم، وكأنّ لَغَطها هَزْمة رعد، ثمّ رسم للصورة إطاراً زمانيّاً وإطاراً مكانيّاً، لتزداد دقّةً وبراعةً، فجعلها تغلي جِنْحَ الظلام بالعشيّ، وهو وقت الضيافة، وتنصب على الأثافي حول البيوت، وهي تغلي، فشبّه «ما يجري من الإهالة في هذه القدور بالسراب، يجري، فيزلّ عن متون الخيل،

(1) القصيدة 25/ 5 ـ 8.
(2) شرح ديوان الحماسة للتَّبْريزيّ 4/ 120.

ويحتمل أن يكون أراد تشبيه ما يرتفع من بخارها حول البيوت بالآل الذي يجري على خيل قيام»[1]، وقال[2]:

ودُهْمٍ تُصاديها الوَلائِدُ جِلَّةٍ إذا جَهِلَتْ أَجْوافُها لَمْ تَحَلَّمِ
تَرى كُلَّ هِرْجابٍ لَجوجٍ لِهَمَّةٍ زَفوفٍ بشِلْوِ النّابِ جَوْفاءَ عَيْلَمِ
لَها زَجَلٌ جِنْحَ الظَّلامِ، كَأَنَّهُ عَجارِفُ غَيْثٍ رائِحٍ مُتَهَزِّمِ
إذا رَكَدَتْ حَوْلَ البُيوتِ، كَأَنَّما تَرى الآلَ يَجْري عَنْ قَنابلَ صُيَّمِ

وإذا وصف ابن أحمر الأطلال أو الظعائن، فهو يجري على أوصافها المألوفة في مقدّماتهم التقليديّة، فالأطلال «مَنازِلُ كُلُّها قَفْرُ»[3]، «لَعِبَتْ بها هُوجٌ يَمانِيَةٌ»[4]، والظعائن «هَجائِنُ مِنْ نِعاجٍ»[5]، و«نَواجٍ يَتَّخِذْنَ اللَّيْلَ سِتْراً»[6] إلاّ أنّ ابن أحمر قد يرى في تلك الظعائن نساء عشيرته البائسات اللائي ظَعنّ من نجد إلى الجزيرة، فيصوّرهنّ أرامل، يسألن الطعام، ويشكون العلل، ويقول[7]:

تُمشِّي بأَكْنافِ البَليخِ نِساؤُنا أَرامِلَ يَسْتَطْعِمنَ بالكَفِّ والفَمِ
نَقائِذَ بِرْسامٍ وحُمّى وحَصْبَةٍ وجوعٍ وطاعونٍ ونَقْرٍ ومَغْرَمِ
لِيَهْنِكُمُ أَنّا نَزَلْنا بِبَلْدَةٍ كِلا مَلَوَيْها مُيْبِسٌ غَيْرُ مُنْعِمِ

فأتى ببيت نادر، علّق عليه ابن قتيبة، فقال: «قالوا: هو أكثر بيت

(1) شرح ديوان الحماسة للتَّبْريزيّ 4/ 121.
(2) القصيدة 49/ 19 ـ 22.
(3) القصيدة 20/ 4.
(4) القصيدة 20/ 12.
(5) القصيدة 58/ 2.
(6) القصيدة 48/ 5.
(7) القصيدة 49/ 27 ـ 29.

آفاتٍ»[1]، وأشار إلى هذا أبو هلال العسكريّ، فقال: «ما جمع أحد من أنواع المكروه في بيت كما جمع ابن أحمر»[2].

ولا يقف ابن أحمر في فنّه عند براعة التصوير ودقّته، وإنّما يعمد إلى توفير ما يريده لصورته من التأثير والوضوح والإبداع، وذلك من خلال عدّة أساليب، لعلّ من أبرزها المفارقات الفنّيّة، فإذا وصف فتىً طويلاً، رسم مفارقةً خاطفةً، فغدا يطول على الرمح الرُّدينيّ من الرماح، ويقصر عنه كلّ مشرف من الأرض[3]:

يَطولُ عَلى الرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ قامَةً ... ويَقْصُرُ عَنْهُ باعُ كُلِّ نِجادِ

وأمّا إذا كان الحدث جللاً، فإنّ ابن أحمر يوفّر لمفارقاته ما يناسبها من المعاني والأفكار، فتأخذ الصورة أبعادها الموضوعيّة، فإن شكا ظلم السُّعاة إلى يحيى بن الحكم بن أبي العاص، جاء بمفارقة فنّيّة مؤثّرة، فرأى قومه في بؤس وضجر من العيش، ووجد قوم ابن الحكم في سعة وغبطة من الأمر، وقال[4]:

مَنْ يُمسِ مِنْ آلِ يَحْيى يُمْسِ مُغْتَبِطاً ... في عِصْمَةِ الأَمْرِ ما لَمْ يَغلِبِ القَدَرُ

وأردف قائلاً:

يَكْسونَهُمْ أَصْبَحِيّاتٍ مُحَدْرَجَةٍ ... إِنَّ الشُّيوخَ إِذا ما أُوْجِعوا ضَجِروا
إِنْ نَحْنُ إِلاّ أُناسٍ أَهْلُ سائِمةٍ ... ما إِنْ لَنا دونَها حَرْثٌ ولا غُرَرُ
مَلُّوا البِلادَ، ومَلَّتْهُمْ، وأَحْرَقَهُمْ ... ظُلْمُ السُّعاةِ، وبادَ الماءُ والشَّجَرُ

(1) الشعر والشعراء 358.
(2) الصناعتين 418.
(3) القصيدة 13/ 1.
(4) القصيدة 18/ 35، 42، 45 ـ 46.

فالمفارقات الفنّيّة كانت من أبرز أساليب ابن أحمر في تحقيق ما يبتغيه لصورته من الوضوح والتأثير، وما يريده لفنّه من الجدّة والإبداع، ولا يقف ابن أحمر عند هذا الأسلوب فحسب، وإنّما يعتمد ـ كما رأينا ـ على التصوير المباشر اعتماداً أساسيّاً، ويتّخذ من التشبيه وسيلةً لتصوير حال من الأحوال أو وصف حيوان من الحيوانات. فناقته «كفَرْخِ الصَّعْوِ»[1] ضآلةً، أو كأنّها «قَطا الحَزْنِ»[2] سرعةً، أو «كثَوْرِ العَدَابِ الفَرْدِ»[3] جرياً، أو «كالثَّعْلَبِ الرَّائِحِ المَمْطورِ صِبْغَتُهُ»[4] نشاطاً، وفرسه «كلَوْنِ الفَرْقَدِ»[5] بياضاً، أو كـ «قَبَسٍ تَقَطَّعَ دونَ كَفِّ المُوقِدِ»[6] نشاطاً.. وأمّا ممدوحه النعمان، فهو «كالْكَوْكَبِ الأَزْهَرِ انْشَقَتْ دُجُنَّتُهُ»[7] عطاءً وسخاءً، وأمّا امرأته، فهي «كبَيْضَةِ أُدْحيٍّ بوَعْثِ خَميلَةٍ»[8] بياضاً وحسداً.. وخصومه «كَأَنَّهُمْ قُرومٌ تَسامى بَيْنَهُنَّ الحَناجِرُ»[9] سموّاً ورفعةً، وكلامه «قُضُبٌ مِنَ الرَّيْحانِ غَلَّسَها النَّدى»[10] نضارةً.. وأغلب هذه التشبيهات وقفنا على مواضعها من أبياته فيما بيّناه من أساليب ابن أحمر في التصوير المباشر، وإذا ما تتبّعنا سائر تشبيهاته الأخرى في شعره كلّه، رأينا أنّ هذا الفنّ قد بلغ شأواً في مختلف أغراضه، فكان ابن أحمر يحرص على أن يخدم التشبيه غايته الموضوعيّة، وأن يأتي مطمئنّاً مستقرّاً في موضعه من الصورة، فلا يشذّ، ولا

(1) القصيدة 5/ 3.
(2) القصيدة 36/ 4.
(3) القصيدة 28/ 21.
(4) القصيدة 38/ 4.
(5) القصيدة 14/ 30.
(6) القصيدة 14/ 34.
(7) القصيدة 46/ 13.
(8) القصيدة 44/ 3.
(9) القصيدة 17/ 2.
(10) القصيدة 14/ 17.

ينبو. وإذا كان الرواة يذكرون لابن أحمر بعض تشبيهات، لم تكن تستقيم له، فإنّ في ذلك حملاً على الاتّساع في اللغة، ومن أمثلتهم ما رواه التَّبْريزيّ[1]:

لَـهـا حَـبَـبٌ تَـرى الـرّاووقَ فـيـهِ كـمـا أَدْمَـيْـتَ فـي الـقَـرْوِ الـغَـزالا

فقال: «أراد أن يقول: كدم الغزال، يعني أنّ لون السُّلافة في حمرته يشبه دم الغزال، فلم يستقم له، فقال: كما أدميتَ الغزال»[2].

ومنه ما أنشده ابن قتيبة[3]:

لَـيْـسَـتْ بـمَـشْـتَـمَـةٍ تُـعَـدُّ، وعَـفْـوُهـا عَـرَقُ الـسِّـقـاءِ عَـلـى الـقَـعـودِ الَّـلاغِـبِ

فقال: «قال الأصمعيّ: العرب تقول: لقيتُ من فلان عرق القِرْبَة، يعنون الشدّة، وقال هذا: عَرَق السِّقاء، أراد: القِرْبَة، فلم يمكّنه الشعر»[4].

وهذه الأمثلة لا تقلّل من شأن التشبيه وغايته في شعره، لأنّ ابن أحمر كان حريصاً على فنّه مخلصاً له، يأتي بأقربه معنىً وأوضحه صورةً وأكثره تأثيراً، وربّما يختار للتشبيه أن يكون ساخراً، يؤدّي الغرض، ويصيب الهدف، فهو يتمنّى أن يكون أميرهم «مُخضّبةً، أناملها كَعابُ»[5]، ويهجو بني سَهْم في رواية أو بني أَعْيا في رواية أخرى، فيراهم «كالعَنْزِ تَعْطِفُ رَوْقَيْها، فتَرْتَضِعُ»[6] لؤماً وخسّةً.

ولم يكن التشبيه وحده عماد تصويره، وإنّما كان للاستعارة أساس بارز في أوصافه «لما فيها من إيجاز لبعض تفصيلات التشبيه وتخفّف من بعض أركانه..

(1) القصيدة 48/ 14.
(2) كنز الحفّاظ 351.
(3) القصيدة 6/ 1.
(4) المعاني الكبير 821.
(5) القصيدة 3/ 2.
(6) القصيدة 38/ 1.

ولا سيّما أنّ الاستعارة في وسعها أن تجمّل المشهد تجميلاً فنّيّاً، لا يقوى عليه التشبيه، لأنّ التّشبيه يوزّع الخيال بين صورتين متقابلتين دون أن يركّز الخيال على الصورة الموصوفة نفسها»[1]. ومن هنا كان للاستعارة في أشعار ابن أحمر نصيب واف، لا يرقى إلى قدر تشبيهاته وكثرتها، ومن أمثلة استعاراته المتلاحقة قوله في وصف الرياح[2]:

خَـلَـدَ الـجُـبَـيْـبُ، وبـادَ حـاضِـرُهُ إِلاّ مَـنـازِلَ، كُـلُّـهـا قَـفْـرُ
وَلَـهَـتْ عَـلَـيْـهِ كُـلُّ مُـعْـصِـفَـةٍ هَـوْجـاءُ، لَـيْـسَ لِـلُـبِّـهـا زَبْـرُ
عَـشْـواءُ رَعْـبَـلَـةُ الـرَّواحِ خَـجَـوْ جـاةُ الـغُـدُوِّ، رَواحُـهـا شَـهْـر
خَـرْقـاءُ تَـلْـتَـهِـمُ الـجِـبـال وأَجْـ وازَ الـفَـلاةِ، وبَـطْـنُـهـا صِـفْـرُ

فابن أحمر يرى الرياح والهةً على المنازل هوجاء لا تبصر أمامها خرقاء تمرّ في كلّ شقّ.. وفي قصيدة أخرى يؤكّد جنونها وحمقها، ويجدها إباريّةً، يخز مرّها الأرض وخزاً، ويجعلها تحنّ، وترأم، ويقول[3]:

أَرَبَّـتْ عَـلَـيْـهـا كُـلُّ هَـوْجـاءَ سَـهْـوةٍ زَفـوفِ الـتَّـوالـي رَحْـبَـةِ الـمُـتَـنَـسَّـمِ
إِبـاريَّـةٍ هَـوْجـاءَ، مَـوْعـدُهـا الـضُّـحـى إِذا أَرْزَمَـتْ جـاءَتْ بـوِرْدٍ غَـشَـمْـشَـمِ
زَفـوفٍ نِـيـافٍ هَـيْـرَعٍ عَـجْـرَفـيَّـةٍ تَرى البيدَ مِنْ إِعْصافها الجَرْيَ تَرْتَمي
تَـحِـنُّ، ولَـمْ تَـرْأَمْ فَـصـيلاً، وإِنْ تَـجِـدْ فَـيـافِـيَ غِـيـطـانٍ تّـهَـدَّجْ، وتَـرْأَمِ

وهكذا نرى أنّ ابن أحمر كان يحرص على أن يوفّر لوصفه كلّ وسائل الجمال وأسباب الجودة، وكان في اختياره الألفاظ الموحية والمعاني المعبّرة موفّقاً، يمتلك أدوات التصوير من ألوان وأصوات وحركات وخطوط، ويحيط

(1) العجّاج: حياته ورجزه 335.
(2) القصيدة 20/ 4 ـ 7.
(3) القصيدة 49/ 6 ـ 9.

بأركان الصورة وأبعـادها إحاطةً تامّةً، فهو يستحضر دقائقها، ويحصر أطرافها، ويستقصي جوانبها في دقّة ومهارة وحذق ورويّة، ولعلّ الوصـف في شعره كان من أوسع أغراضه، إذ غلب على أكثر موضوعاته، واختصّ بأغلب قصائده إلاّ أنّ اهتمام ابن أحمر بفنّه كان يتناول أغراضه الشعريّة جميعاً.

الفصل السادس
الخصائص الفنّيّة

لقد بيّنا في دراستنا موضوعات شعر ابن أحمر كثيراً ممّا طوي عليه فنّه من سمات وملامح، أتاحت له أن يتبوّأ منزلةً رفيعةً بين شعراء طبقته، ولا سيّما حين تناولنا موضوع الوصف، وعرضنا لأسلوبه الفنّيّ في التصوير. وهنا سنحاول أن نفصّل القول في دراسة الخصائص المعنويّة والخصائص اللفظيّة، فلعلّ جُدَد فنّه وطرائفه تتّضح لنا شيئاً فشيئاً.

1 ـ الخصائص المعنويّة:

لفت الإغراب في شعر ابن أحمر العلماء منذ القديم، فرآه غير واحد منهم «كثير الغريب»[1] إلاّ أنّ هذه الكثرة ليست بقَدْر عظيم، يأخذ بوافر نصيب من الغموض، إذا ما قورن مثلاً بأرجاز العجّاج الذي «كان الإغراب من أبرز ما أراده لمدرسة الرجز من خصائص»[2]، فكأنّهم ما كانوا يعتادون أن يغرب الشاعر في

(1) طبقات فحول الشعراء 580، ومعجم الشعراء 24، والإصابة 3/ 112، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134، وانظر: المصون 169.

(2) العجّاج: حياته ورجزه 389.

شيء من كلامه، فيأتي بالوحشيّ منه. فالباحث في معاني ابن أحمر يلاحظ أنّها ناست بين الغموض والوضوح، وربّما أرجح الوضوح كِفّة معانيه حتّى مالت إلى السهولة والبساطة في أغلب الأحيان، وأكثر ما نصادف هذا في غزله أو هجائه أو شكواه، فإذا ذكر خنساء مثلاً، قال[1]:

أَقاتِلَتي خَنْساءُ أَنْ حَلَّ أَهْلُها بتَرْجٍ، وأَنْ جَرَّتْ لِفاعاً ومُجْسَدا
وأَنْ سَفَرَتْ عَنْ وَجْهِ أَدْماءَ باكَرَتْ بهِرْجابَ مُضْحىً مِنْ غَزالٍ ومَرْقَدا
وأَنْ خَضَمَتْ رَيْقَ الشَّبابِ، وصادَفَتْ نَعيماً ومَيْداناً مِنَ العَيْشِ أَغْيَدا

وإذا شكا إلى والي المدينة ظلم السُّعاة، قال[2]:

لَسْنا بأَجْسادِ عادٍ في طَبائِعِها لا نَأْلَمُ الشَّرَّ حَتّى يَأْلَمَ الحَجَرُ
ولا نَصارى عَلَيْنا جِزْيَةٌ نُسُكٌ ولا يَهوداً طَغاماً، دينُهُمْ هَدَرُ
إِنْ نَحْنُ إلاّ أُناسٌ أَهْلُ سائِمةٍ ما إِنْ لَنا دونَها حَرْثٌ ولا غُرَرُ
مَلُّوا البِلادَ، ومَلَّتْهُمْ، وأَحْرَقَهُمْ ظُلْمُ السُّعاةِ، وبادَ الماءُ والشَّجَرُ
إِنْ لا تُدارِكْهُمُ تُصْبِحْ دِيارُهُمُ قَفْراً تَصيحُ عَلى أَرْجائِها الحُمَرُ
أَدْرِكْ نِساءً وشيباً لا قَرارَ لَهُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ فيما قَدْ لَقَوا غِيَرُ

وفي هذه الأبيات لا يغرب ابن أحمر البتّة في معانيه، لأنّه ما كان ليسعى دائماً وراء المعاني الغامضة في أمثال هذه الموضوعات إلاّ أنّه كان يجنح أحياناً إلى شيء من الغريب في بعض أوصافه، وهذا ما يبرز في تصويره الرياح بشكل خاصّ، إذ هيّأ لغرضه ألفاظاً، لا يظهر معناها، فنحتاج في معرفتها إلى أن ننقّر عنها في كتب اللغة ومعاجمها، ومن أمثلة ذلك قوله في الريح[3]:

(1) القصيدة 15/ 1 ـ 3.
(2) القصيدة 18/ 43 ـ 48.
(3) القصيدة 49/ 5 ـ 10.

مَعارِفُ تُلْوي بالفُؤَادِ، وإِنْ تَقُلْ لَها: بَيِّني لي حاجَةً، لَمْ تَكَلَّمِ
أَرَبَّتْ عَلَيْها كُلُّ هَوْجاءَ سَهْوَةٍ زَفوفِ التَّوالي رَحْبَةِ المُتَنَسَّمِ
إِبَارِيَّةٍ هَوْجاءُ، مَوْعِدُها الضُّحى إِذا أَرْزَمَتْ جاءَتْ بوِرْدٍ غَشَمْشَمِ
زَفوفٍ نِيافٍ هَيْرَعٍ عَجْرَفِيَّةٍ تَرى البيدَ مِنْ إِعْصافِها الجَرْيَ تَرْتَمي
تَحِنُّ، ولَمْ تَرْأَمْ فَصيلاً، وإِنْ تَجِدْ فَيافيَ غيطانٍ تَهَدَّجْ، وتَرْأَمِ
إِذا عَصَّبَتْ رَسْماً، فلَيْسَ بدائِمٍ بِهِ وَتِدٌ إِلاَ تَحِلَّةَ مُقْسِمِ

ومهما بلغت هذه الألفاظ من الإغراب، فالمعاني تبدو واضحةً جليّةً بُعيد قليل عناء ورَيث، لأنّ منشأ صاحبها اتّصف ببساطة العيش وسهولة الحياة، فكان من الطبيعيّ أن تتميّز معانيه بالوضوح، وإذا كان ثمّة علماء، يرمون ابن أحمر بكثرة الغريب في شعره، فلا شكّ في أنّهم كانوا يتّجهون بأبصارهم إلى ما أتى به من ألفاظ نادرة، وأمّا ما ذكره الرواة لابن أحمر من معان غريبة، فلا يكاد يخرج في شيء عن لغته وبيئته، ومن تلك المعاني ما رواه ثعلب[1]:

تَلَسَّنَ أَهْلُهُ زَمَناً عَلَيْهِ رِماثاً تَحْتَ مِقْلاتٍ نَيُوبِ

ثمّ قال: «سألني أبو العالية عن هذا، فقال يعقوب: هذا غريب، والمعنى فيه أنّهم أقاموا للناقة فصيلاً، ليستدرّ لبنها»[2]، وأنشده ابن منظور، ثمّ أشار إلى ما ذكره ابن السِّكِّيت، فقال: «قال يعقوب: هذا معنى غريب، قلّ من يعرفه»[3]، فالمعنى في البيت غريب، لا يعرفه إلاّ من تبدّى، أو اختلف زمناً إلى البادية، ولكنّه ليس بغامض ولا بعيد عن بيئتهم.

(1) القصيدة 5/ 4.

(2) مجالس ثعلب 320. وأبو العالية هذا كان ممّن يحضر مع ثعلب مجالس الفرّاء. انظر: فهرست ابن النديم 110.

(3) اللسان (لسن)، ومثله في التاج (لسن).

ومنها أيضاً ما رواه ابن سيده[1]:

لَيْسَتْ بمَشْتَمَةٍ تُعَدُّ، وعَفْوُها عَرَقُ السِّقاءِ عَلى القَعودِ اللَّاغِبِ

ثمّ قال: «ولا يعرف الأصمعيّ أصله»[2]، وأنشده أيضاً ابن قتيبة وابن فارس، ثمّ أشارا إلى ما ذكره الأصمعيّ، فقال الأوّل: «قال الأصمعيّ: العرب تقول: لقيت من فلان عَرَق القِرْبَة، يعنون الشدّة، وقال هذا: عَرَق السِّقاء، أراد القِرْبَة، فلم يمكّنه الشعر»[3]، وقال الآخر: «قال الأصمعيّ: عَرَق القِرْبَة كلمة تدلّ على الشدّة، وما أدري ما أصلها»[4]. فوصفُ ابن أحمر للشدّة بأنّها عَرَق السِّقاء أو القِرْبَة، لم يعرف الأصمعيّ أصل معناه عند العرب، وإذا ما تتبّعنا رواية البيت في مصادره، وجدنا ابن قتيبة يقول في شرحه: «المعنى أنّه يسمع الكلمة تغيظ، وليست بشتم، فيأخذ صاحبها بها، وقد أُبلغت إليه كعَرَق السِّقاء على القَعود اللاغب. وقال أبو عبيدة: وهذا المعنى يشبه ما كان الفرّاء يحكيه أنّهم كانوا يتزوّدون الماء في المفاوز، فيعلّقونه على الإبل يتناوبونه، فكان في ذلك تعب ومشقّة على الظهر، وكان الفرّاء يجعل هذا التفسير في عَرَق القِرْبَة»[5].

ومنها أيضاً ما رواه ابن حمزة[6]:

أَصَمَّ دُعاءُ عاذِلَتي، تَحَجّى بآخِرِنا، وتَنْسى أَوَّلينا

ثمّ قال: «أنشد [أبو عبيدة] لابن أحمر: أَصَمَّ... (البيت)، ثمّ قال: سمعت الأصمعيّ يقول: ألقيتُ البيت على الفرّاء، فلم يعرفه، وسمعت الفرّاء

(1) القصيدة 6/ 1.
(2) المخصّص 12/ 150.
(3) المعاني الكبير 821.
(4) مقاييس اللغة 4/ 284.
(5) المعاني الكبير 821، وانظر: المخصّص 12/ 150، وكنز الحفّاظ 431، واللسان (سبد) و(عرق)، والتاج (عرق).
(6) القصيدة 58/ 35.

يقول: ألقاه عليّ الأصمعيّ، فأصبتُ»[1]، وأنشده السخاويّ، وأشار إلى ما ذكره الأصمعيّ، فقال: «يُروى أنّ الأصمعيّ لقي الفرّاء على الجسر ببغداد، فقال الأصمعيّ: أأسألك؟ فقال الفرّاء: سلْ، يا أبا سعيد، فقال: ما معنى قول الشاعر: أَصَمَّ... (البيت)؟ فقال الفرّاء: صادفت قوماً صُمّاً، قال الشاعر:

فأَصْمَمْتُ عَمْراً، وأَعْمَيْتُهُ عَنِ الجودِ والمَجْدِ يَوْمَ الفَخارِ

أي: صادفته أصمّ أعمى، وقال الكسائيّ: دخلت بلدةً، فأعمرتها، ودخلت بلدةً، فأخربتها، أي: صادفتها كذلك، فقال الأصمعيّ: الفرّاء أعلم الناس، ومضى، ولم يكلّمه بعد»[2].

فابن أحمر أتى بمعان غريبة، قلّ من يعرفها، ويبدو أنّ هناك معاني منها، كانت غير معروفة حتّى للأصمعيّ نفسه، وهذا ما يحدث أيضاً إذا ما جاء بحرف، يحتمل غير وجه واحد، ومن أمثلة ذلك قوله[3]:

واسْلَمْ براووقٍ، حُبيتَ بِهِ وانْعَمْ صَباحاً، أَيُّها الجَبْرُ

فابن أحمر وصف نديماً بأنّه «جَبْر»، فأتى بحرف، لا يعرف في كلام العرب، فكان مثار خلاف بين أهل اللغة، قال ابن جنّيّ: «حدّثني بعض أصحابي عن الأصمعيّ أنّه ذكر حروفاً من الغريب، فقال: لا أعلم أحداً أتى بها إلاّ ابن أحمر، منها: الجبر، وهو المَلِك، وإنّما سمّي بذلك ـ أظنّ ـ لأنّه يجبر بجوده، وهو قوله: واسْلَمْ... (البيت)»[4]، وقال الزَّبيديّ: «لم نسمع الجَبْر بمعنى الرجل إلاّ في شعر ابن أحمر، وهو قوله: واسْلَمْ... (البيت)»[5]،

(1) التنبيهات 86.
(2) سفر السعادة 777.
(3) القصيدة 20/ 25.
(4) الخصائص 2/ 21.
(5) التاج (جبريل).

و«الجَبْر: الغلام، وبه فسّر بعضٌ قول ابن أحمر»[1]، وقال الأنباريّ: «يقال: جَبْر للملك، وجَبْر للعبد»[2].

فالغريب في شعر ابن أحمر ليس بالقَدْر الكبير، إذ كان يقتصر على بعض الألفاظ النادرة والمعاني الغريبة إلاّ أنّنا وقعنا في شعره على أمثلة كثيرة للغموض، لا مردّ لها إلاّ تحريف الرواة أو النسّاخ، ثمّ حاولنا أن ننقّر عن كلّ منها في موضعه من أبياته، فكانت المصادر تسعفنا حيناً بالرواية الصحيحة، أو تضنّ علينا أحياناً، فنضطرّ إلى التأويل والاجتهاد.

ومن أمثلة النوع الأوّل ما ورد في (المعاني الكبير)[3]، [4]:

وُضِعْنَ، وكُلُّهُنَّ عَلى غِرارٍ حِصان الجَيْبِ قَدْ وَسَقَتْ جَنينا

فالشطر الثاني غامض المعنى، لا يتلاءم ووصفَ بيضات، وُضعن على مثال واحد حتّى إنّ عبارة «حصان الجيب» لا تؤوّل على أيّ وجه من الوجوه، إن لم نقف على مصادر أخرى للبيت، ولو عدنا إلى أصل روايته في شتّى مصادره[5]، لرأينا أنّه يخلو من الغموض، وأنّ ثمّة تحريفاً، عدل بالعبارة من «هِجان اللون» إلى «حصان الجيب».

ومن أمثلة النوع الثاني ما جاء في (خزانة الأدب)[6] [7]:

قالُوا: عَيِينا، فابْذُري، وقَدْ زَعَموا أَنْ قَدْ مَضى مِنْهُمُ رَكْبٌ، فقَدْ نَصِبا

(1) التاج (جبر).
(2) الأضداد 395، وانظر: الأضداد للصغاني 226، وهو ذيل (ثلاثة كتب في الأضداد) للأصمعيّ والسجستانيّ وابن السِّكِّيت.
(3) المعاني الكبير 357.
(4) القصيدة 58/ 15.
(5) انظر: تخريج البيت (15) من القصيدة (58) في آخر شعر ابن أحمر.
(6) خزانة الأدب 3/ 38.
(7) القصيدة 8/ 9.

فقوله: «فابذري» ليس لمعناه مناسبة في هذه الرواية التي تفرّد بها البغداديّ، ثمّ نقلها عنه الدكتور حسين عطوان بما فيها من وهم[1]، ولم نقف على روايات أخرى للبيت في أيّ من المصادر، لنحرّر هذا التحريف الذي لا نرى له إلاّ وجهاً واحداً، هو «فما ندري»، ولعلّه الأقرب إلى الصواب.

وهنالك أمثلة أخرى، فيها شيء كثير من الغموض الناجم عن التصحيف والتلفيق وسوء الضبط، فكأنّ شعر ابن أحمر قد ابتُلي بهذا الفساد، ومن التصحيف ما ورد في (اللسان)[2]، [3]:

كَبانِيَةٍ أَوْتادُ أَطْنابِ بَيْتِها أَراكٌ إِذا صاقَتْ بِهِ المَرْدُ شَقَّحا

فقوله: «كبانية» و«صاقت» لا معنى له هنا، والصواب ما أنشد في المصادر الأخرى[4]: «كنانيّة» و«صافَتْ» بالفاء.

ومن التلفيق ما رواه صاحب (تهذيب اللغة) في موضعين منه[5] على هذا النحو:

مِنْ دونِهِمْ إِنْ جِئْتَهُمْ سَمَراً حَيٌّ حِلالٌ لَمْلَمٌ عَكْرُ

فالأزهريّ لفّق بيتاً غامضاً من صدر بيت وعجز آخر، فالشطر الأوّل صدر بيت، عجزه[6]:

. . . . . عَزْفُ القِيانِ ومَجْلِسٌ غَمْرُ

---

(1) انظر: شعر ابن أحمر (ط. عطوان) 44.
(2) اللسان (شقح).
(3) القصيدة 11/ 1.
(4) المحكم 2/ 391، والمخصّص 11/ 122، واللسان (مرد)، والتاج (شقح) و(مرد).
(5) تهذيب اللغة 12/ 419 و15/ 348، وانظر: اللسان (سمر) و(لمم).
(6) القصيدة 20/ 31.

والشطر الثاني عجز آخر، صدره[1]:

ولَقَدْ يَحُلُّ بِها، ويَسْكُنُها . . . . . .

ومن سوء الضبط ما جاء في (جمهرة أشعار العرب)[2] [3]:

كَأَنَّ وَقْعَتَهُ لَوْدانَ مَرْفِقُها وَقْعَ الصَّفا بأَديمٍ وَقْعَهُ تَئِرُ

فهو ضبط، لا يستقيم به معنى البيت، والصواب ما أُنشد في المصادر الأخرى[4]:

كَأَنَّ وَقْعَتَهُ لَوْدانَ مِرْفَقُها وَقْعُ الصَّفا بأَديمٍ وَقْعُهُ تِئَرُ

ويبدو أنّ ما في أمثال تلك العبارات من غموض أو لبس قد استوقف منذ القديم بعض الرواة، فكانوا يطلبون الرواية الأصيلة من مصادرها، أو يقلّبون وجوه العبارة، ثمّ يبيّنون وجه الصواب، وربّما كان ذلك مثار خلاف بينهم، فالعسكريّ مثلاً ينقل بسنده عن موسى بن سعيد بن سَلْم قوله: «كان ابن الأعرابيّ يُؤدّبنا، فدخل الأصمعيّ، ونحن نقرأ شعر ابن أحمر:

أَغَدْواً واعَدَ الحَيُّ الزِّيالا لِوَجْهٍ لا يُرِيدُ بِهِ بِدالا

إلى أن بلغنا إلى قوله:

أَرى ذا شَيْبَةٍ حَمَّالَ ثِقْلٍ وأَبْيَضَ مِثْلَ صَدْرِ السَّيْفِ نالا

فقال الأصمعيّ: بالا، فصاح ابن الأعرابيّ: نالا، نالا، بالنون من النوال، فقال:

بِهِمْ يَسْعى المُفاخِرُ حينَ يَسْعى إِذا ما عَدَّ بَأْساً أَوْ نَوالا

(1) القصيدة 20/ 11.

(2) جمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 303.

(3) القصيدة 18/ 22.

(4) انظر: تخريج البيت (22) من القصيدة (18) في آخر شعر ابن أحمر.

فأراد بالبأس الحال التي وصفَ الأبيضَ الفتيّ بها، وبالنوال وصف به ذا الشيبة أنّه حمّال ثقل، فقام الأعرابيّ على (نالا)، وانصرف الأصمعيّ، وجاء أبي فعرّفناه الخبر، فقال: القول ما قاله الأصمعيّ، وابن الأعرابيّ نهاية في علمه، فأمّا أن تكون النساء ولَدتْ مثل الأصمعيّ في حفظه أو ذهنه وروايته فلا، قال: فأمرَ للأصمعيّ بأربعمئة دينار، ولابن الأعرابيّ بمئتي دينار»[1].

ولم يكن الغموض في شعر ابن أحمر بسبب التصحيف والتحريف أو بسبب التلفيق والضبط فحسب، وإنّما كان من الطبيعيّ أن ينجم عن أبيات فرادى، لم نجد شيئاً من صلتها، وربّما تبادر الغموض إلى الأذهان، إذا نظرنا إلى قصيدة، ألّفنا ما تفرّق منها، فكانت أشتاتاً ملفّقةً، لا تخلو من فجوات لأبيات ضائعة، ومثل هذا الغموض كثير في نشرة الدكتور حسين عطوان، لأنّه لم يلتزم منهجاً واضحاً في جمع الشعر وتحقيقه إلاّ أنّ ذلك لا يتّخذ البتّة دليلاً على غموض في شعر ابن أحمر، ولكنّه يلفت إليه الباحث والقارئ معاً. فالغموض في كلّ ذلك لا يترتّب إذاً على فنّ ابن أحمر، وإنّما تقع تبعته على الرواة والنسّاخ الذين يفسدون الأشعار أحياناً بما يصحّفونه ويحرّفونه إلاّ أنّنا نقع في شعره على أمثلة يسيرة، تثير في أبياته شيئاً من الغموض الناجم عن أسلوب ابن أحمر نفسه، وذلك حين يلجأ إلى شيء من الحذف أو القلب أو الإيجاز أو التقديم أو التأخير وما أشبه ذلك من أفانين الصياغة الشعريّة، ومن الحذف ـ وهو «إسقاط الشيء لفظاً ومعنىً»[2] ـ قوله[3]:

من طالِبينَ لبُعْرانٍ لنا رفضتْ كيلا يحِسّون من بُعْرانِنا أَثَرا

(1) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف 1/ 189، وانظر: التنبيه على حدوث التصحيف (ط. آل ياسين) 140 و(ط. طلس) 84، والقصيدة 48/ 1، 25، 27.

(2) الكليّات 2/ 226.

(3) القصيدة 30/ 5.

ففي هذا البيت نلمس بعض الغموض، لأنّ ابن أحمر حذف الفاء من «كيف»، فقال: «كي»، ولكنّه ليس بالغموض المبهم، وأغلب الرأي أنّ هذا الحذف كان من قبيل الضرورة، إذ قال ابن يعيش في شرحه: «قالوا : (كي) هنا بمعنى (كيف) استفهام، وقال قوم: أراد (كيف)، وإنّما حذف الفاء تخفيفاً»[1]، ورأى ابن عصفور «أنّه من ضرورة الشعر، إذ لو كانت (كي) موضوعةً للاستفهام، لوردت في الكلام، ولدوّنت في كتب اللغة كسائر الكلمات»[2]، ووجده أبو سعيد السيرافيّ ممّا يشبه الترخيم، فقال : «ممّا يشبه الترخيم قول الشاعر: مِنْ طالِبِينَ... (البيت)، أراد : كيف لا يُحسّان، ولا يجوز أن يكون في معنى (كي)، لأنّ الراعيين لم يفعلا شيئاً كيلا يحسّا أثراً من البُعْران»[3].

ومن الصور الأخرى للحذف الذي يؤدّي إلى شيء من الغموض ما نراه من حذف المضاف في تراكيبه، ومثل ذلك ما رواه البكريّ[4]:

عِيطٌ عَطابيلُ، لُثْنَ الرَّيَّ، وابْتَذَلَتْ مَعاطِفاً سابِرِيَّاتٍ وكَتّانا

ثمّ قال: «قوله: لُثْنَ الرَّيَّ، يريد: ثياب الرَّيّ، فحذف المضاف»[5].

وأمّا القلب، و«هو أن يجري حكم أحد جزأي الكلام على الآخر»[6]، فمن أمثلته قوله[7]:

تَعاوَرْنَ الحَديثَ، وطَبَّقَتْهُ كما طَبَّقْتَ بالنَّعْلِ المِثالا

فقد قلب العبارة، وأراد: طبّقت النعل بالمثال.

---

(1) شرح المفصّل 4/ 110.
(2) ضرائر الشعر 141.
(3) ضرورة الشعر 114، وانظر: خزانة الأدب 3/ 195، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 4/ 148.
(4) القصيدة 57/ 4.
(5) التنبيه على أوهام القالي 102، وسمط اللآلئ 725.
(6) الكليّات 4/ 7.
(7) القصيدة 48/ 10.

ومنها أيضاً قوله[1]:

فاسْتَعْرِفا، ثُمَّ قولا في مَقامَكُما هَذا بَعيرٌ لَنا قَدْ قامَ، فانْعَقَرا

فقد قلب الكلام، إذ عطف «انْعَقَرَ» على «قامَ»، فأدّى هذا القلب إلى لَبْس بسيط، لا يتّضح إلاّ بعد رَيث، يجعلنا ندرك وجه الصواب في البيت، وهو أنّ البعير قد انعقر، فقام.

ومنها قوله[2]:

وجُرْدٍ طارَ باطِلُها نَسيلاً وأَحْدَثَ قَمْؤُها شَعَراً قِصارا

فقد قلب المعنى، إذ أسند «الباطل» إلى «النسيل»، وحكم عليه به، فأثار هذا القلب بعض غموض، لا يفهم إلاّ بعد إعادة الكلام إلى جادّته، وهو أنّ الشاعر قد أراد: طار نسيلها باطلاً.

وأمّا الإيجاز، و«هو والاختصار متّحدان»[3]، فلا شكّ في أنّه بلاغة حقّة إلاّ إذا كان مبالغاً فيه، فهو عندئذ يؤدّي إلى الغموض، ومن أمثلة ذلك في شعره قوله في سفينة[4]:

يُهِلُّ بالفَرْقَدِ رُكبانُها كما يُهِلّ الرّاكبُ المُعْتَمِرْ

فابن أحمر أوجز القول إيجازاً شديداً حتّى إنّ بعض العلماء اختلفوا في هذا البيت، فقال ابن منظور: «قول ابن أحمر: يُهِلُّ... (البيت) فيه قولان، قال الأصمعيّ: إذا انجلى لهم الصحاب عن الفرقد أهلّوا، أي: رفعوا أصواتهم بالتكبير، كما يهلّ الراكب الذي يريد عُمرة الحجّ، لأنّهم كانوا يعتدّون بالفرقد،

(1) القصيدة 30/ 3.
(2) القصيدة 32/ 2.
(3) الكليّات 1/ 375.
(4) القصيدة 35/ 23.

وقال غيره: يريد أنّهم في مفازة بعيدة من المياه، فإذا رأوا فرقداً، وهو ولد البقرة الوحشيّة، أهلّوا، أي: كبّروا، لأنّهم قد علموا أنّهم قد قربوا من الماء، ويقال للاعتمار: القصد»[1].

ولابـن أحمر بيت سائر، رأى فيه قدامة بن جعفر مثالاً جيّداُ على الإيجاز، فقال: «لعمري إنّ عمرو بن أحمر الباهليّ قد أوجز، وأبان عن شديد تشوّق وعظيم تحسّر بقوله:

مَـعـارِفُ تُـلْـوي بـالـفُـؤاد، وإِنْ تَـقُـلْ لَـهـا: بَـيِّـنـي لـي حـاجَـةً، لَـمْ تُـكَـلِّـمِ

فأمّا قوله: إِنَّها لَمْ تَكَلَّم، فهو تجاهل الهائم وتدلّه الواله، فإنّه قد يُحتاج إلى أن يكون في شعر الوامق التحيّر وآية التلدّد»[2].

ولا شكّ في أنّ طبيعة الحياة الجاهليّة وما فيها من سرعة وحركة وشدّة وتقلّب كانت تجعلهم لا يطيلون، فيقفون عند المعنى وقفةً وجيزةً، ثمّ يتركونه إلى غيره، ولا عجب أن تكثر في أشعارهم الحكم والأمثال، فهي توجز المعنى، وتوصل المراد.

وأمّا التقديم والتأخير، فمن أمثلته ما رواه الأزهريّ[3]:

مَـدَّتْ عَـلَـيْـهـا الـمُـلْـكَ أَطْـنـابَـهـا كَـأْسٌ رَنَـوْنـاةٌ وطِـرْفٌ طِـمِـرْ

ثمّ قال: «أراد: مدّت كأس رَنَوْناة عليها أطنابَ المُلْك، فذكر المُلْك، ثمّ ذكر أطنابه»[4]، وقد أدّى هذا التقديم والتأخير إلى خلاف، أوجزه ابن منظور،

(1) اللسان (عمر).
(2) نقد الشعر 124. والوامق: المحدب. والتلدّد: التحيّر، وانظر: القصيدة 49/ 5.
(3) القصيدة 35/ 9.
(4) تهذيب اللغة 15/ 226.

فقال: «أراد: مدّت كأس رَنَوْناة عليه أطنابَ المُلْك، فذكر المُلْك، ثمّ ذكر أطنابه.. وروى أبو العبّاس عن ابن الأعرابيّ أنّه سمعه روى بيت ابن أحمر: بَنَّتْ عليه المُلْكُ أطنابَها، أي: المُلْك هي الكأس، ورفع المُلْك بـ (بَنَّتْ)، ورواه ابن السِّكِّيت: (بَنَتْ) بتخفيف النون، و(المُلْكَ) مفعول له، وقال غيره: هو ظرف، وقيل: حال على تقديره مصدراً، مثل: أرسَلَها العِراكَ، وتقديره: بَنَتْ عليه كأس رنوناة أطنابَها مُلْكاً، أي: في حال كونه مَلِكاً، والهاء في (أطنابها) في هذه الوجوه كلّها عائدة على الكأس، وقال ابن دريد: (أطنابها) بدل من المُلْك، فتكون الهاء في (أطنابها) على هذا عائدة على الملك، وروى بعضهم: بَنَتْ عليه المُلْكُ، فرفع المُلْك، وأنّث فعله على معنى المملكة»[1].

وقد يتمثّل ابن أحمر بكثير من معارف عصره وبيئته، فيسعى وراء دلالاتها، ليوجز مقصده ومرماه، فهو يذكر «قَرْنَ أَعْفَر»، ويقول[2]:

أَلا قَـلَّ خَـيْـرُ الـدَّهْـرِ كَـيْـفَ تَـغَـيَّـرا فأَصْبَحَ يَرْمي النّاسَ عَنْ قَرْنِ أَعْفَرا

ويقول الأزهريّ في شرحه: «يقال: رماني عن قَرْن أَعْفَر، أي: رماني بداهية، ومنه قول ابن أحمر: وأَصْبَحَ يَرْمي النّاسَ عَنْ قَرْنِ أَعْفَرا، وذلك أنّهم كانوا يتّخذون القرون مكان الأسنّة، فصار مثلاً عندهم في الشدّة، تنزل بهم»[3].

ويذكر أيضاً «ليل ابن منذر»، ويقول[4]:

وبـاتَ بَـنـو أُمِّـي بـلَـيْـلِ ابْـنِ مُـنْـذِرٍ وأَبْـنـاء أَعْـمـامـي عُـذوبـاً صَـوادِيـا

(1) اللسان (رنا)، وانظر: تهذيب اللغة 15/ 226، وكنز الحفّاظ 219، والمقرّب 1/ 162، واللسان (ملك).

(2) القصيدة 28/ 1.

(3) تهذيب اللغة 2/ 354، ومثله في التاج (عفر)، وانظر: مطلع الفوائد 113.

(4) القصيدة 60/ 28.

ويقول ابن منظور في شرحه: «بات بليلة ابن المنذر، يعني النعمان، أي: بليلة شديدة»[1].

ويذكر «حَجّة أمّ شُعْل»، ويقول[2]:

ويَـزْعُـمُ أَنَّـهُ نـازٍ عَـلَـيْـنـا بـشِـرَّتِـهِ، فـتـارِكُـنـا تَـبَـارا
كـحَـجَّـةِ أُمِّ شُـعْـلٍ حـيـنَ حَـجَّـتْ بـكَـلْـبَـتِـهـا، فـلَـمْ تَـرْمِ الـجِـمـارا

ويقول ابن قتيبة في شرحه: «حلف أن ينالنا بشِرّته، فيهلكنا، كما حجّت أمّ شُعْل بكلبتها، وهي مُدِلّة بنفسها، تظنّ أنّها ترجع، فماتت، فلم تدرك الحجّ»[3]، ويقول ابن الأثير: «أمّ شُعْل: يُضرب بها المثل لمن يعزم على أمر، ولا يتمّ له، وأصله أنّ امرأةً خرجت حاجّةً، فحاضت، فرجعت، ولم تحجّ»[4].

ويذكر أيضاً «الجرادتين»[5]، و«عَرَق السِّقاء»[6]، و«ابن قُرّان»[7]، و«بنات أَعْنُق»[8]، و«ابن جَمير»[9]، و«أمّ فَرْد»[10]. وهذه المعارف كلّها تثير شيئاً من الإغراب اللغويّ، لا يدرك بسهولة ويسر، وربّما لا يؤوّل بوجه واحد، فالمعريّ يلقى ابن أحمر في رياض الجنّة، ويسأله عن قوله[11]:

(1) اللسان (نذر)، وانظر: الأيّام 35، والتاج (نذر).
(2) القصيدة 32/ 8 ـ 9.
(3) المعاني الكبير 846 و1134.
(4) المرصّع 211.
(5) انظر: القصيدة 20/ 19.
(6) انظر: القصيدة 6/ 1.
(7) انظر: القصيدة 8/ 6.
(8) انظر: القصيدة 58/ 23.
(9) انظر: القصيدة 23/ 1.
(10) انظر: القصيدة 36/ 2.
(11) القصيدة 20/ 15 ـ 16.

رُؤْدَ الشَّبابِ كَأَنَّني غُصُنٌ بِحَرام مَكَّةَ ناعِمٌ نَضْرُ
كَشَرابِ قَيْلٍ عَنْ مَطِيَّتِهِ ولِكُلِّ أَمْرٍ واقِعٍ قَدْرُ

ثمّ يقول: «فما أردت بقولك: كشَراب قَيْلٍ؟ الواحد من الأقيال أم (قَيْل بن عِتْر) من عاد؟ فيقول عمرو: إنّ الوجهين ليُتصوّران»[1].

ولعلّنا نضيف إلى تلك المعارف ما نجده من أسماء الدواهي[2]، ومنها: صَمِّي صَمَام[3]، وحَبَوْكرى، والأُرَبى[4]، وأمّ فأر[5]، وأمّ الُّلهَيْم[6]، والزَّوْبَر[7]. فكأنّ ابن أحمر كان يسعى من خلال ذلك كلّه إلى شيء من الإغراب اللغويّ الذي كان سمةً بارزةً من سمات فنّه. وليس في مثل هذه المعارف أو ذاك الإيجاز أو الحذف أو القلب أو التقديم أو التأخير من غموض فعليّ، لأنّ من السهولة أن يفهم المعنى المراد بُعيد قليل جهد، وهي لا تشكّل إلاّ أمثلةً معدودةً في شعر ابن أحمر، ولا تتجاوز الحدّ الأدنى من الغموض الذي لا يحتاج فهمه إلى كبير عناء، وأمّا عامّة شعره، فلا يخرج عن الوضوح، لأنّ الشاعر كان يستمدّ المعاني من حياته البسيطة، فيصوّر البيئة أصدق تصوير وأوضحه.

إنّ تلك البيئة التي دعته إلى الوضوح كانت تدعوه أيضاً إلى الصدق في

(1) رسالة الغفران 243.
(2) راجع: أسماء الدواهي في جمهرة الأمثال 1/ 47، والمخصّص 12/ 142 ـ 147 و13/ 180 ـ 192، ونظام الغريب 263، والمرصّع 361، وممّن ألّف فيها الأحول أبو العبّاس بن الحسن. انظر: فهرست ابن النديم 117.
(3) انظر: القصيدة 52/ 1.
(4) انظر: القصيدة 28/ 18.
(5) انظر: القصيدة 12/ 7.
(6) انظر: القصيدة 58/ 7.
(7) انظر: القصيدة 28/ 15.

تعابيره وإلى عدم المبالغة في معانيه، فيستجيب ابن أحمر لواقعه وطبعه من غير غلوّ ولا مبالغة، لأنّه يتحدّث عن أحوال رآها وتجارب مارسها وذكريات أحسّ بها، فإذا رماه مَخْشِيّ بسهم، أصاره أعور، صوّر سهده وأرقه وعاطفته تصويراً صادقاً، فلم يسرف في تعريضه بمخشيّ، ولم يبالغ في خياله وانفعاله، وإذا «خاصم في حَمَالة»[1]، اعترف بضعف حجّته، وأقرّ لخصمه بقوّة الرأي، فليس ثمّة أصدق تعبيراً من قوله[2]:

فجِئْتُ، وقَدْ قامَ الخُصومُ، كَأَنَّهُمْ قُرومٌ تَسامى بَيْنَهُنَّ الحَناجِرُ
فما زِلْتُ حَتّى أَدْحَضَ الخَصْمُ حُجَّتي وقَدْ مَسَّ ظَهْري مِنْ قَرى البابِ عاذِرُ

ولعلّ في أمثال هذه الوقائع من حياة ابن أحمر صدقاً واضحاً، يتجلّى أيضاً في شتّى أغراضه، ويتمثّل في تصوير بيئته بما تشتمل عليه من جوانب ومظاهر وما تتّصف به من حركات وألوان وأصوات، فالشاعر الجاهليّ ـ كما يقول الدكتور شوقي ضيف ـ «لم يكن يفرض إرادته الفنّيّة على الأحاسيس والأشياء، بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً، يُبقي فيه على صورها الحقيقيّة دون أن يُدخل عليها تعديلاً من شأنه أن يمسّ جواهرها. ومن أجل ذلك كان شعره وثيقةً دقيقةً لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها.. وعرف القدماء ذلك، فكلّما تحدّثوا عن عادات الجاهليّين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم»[3].

وليس في شعر ابن أحمر من المبالغة إلاّ القليل القليل، وكلّ ما وجدناه من آثار المبالغة لا يعدو أن يكون أمثلةً معدودةً، لا تبلغ حدّ الغلوّ، وربّما لا

(1) سمط اللآلئ 307. والحمالة: ما يتحمّله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة، وحملت به حمالة، أي: كَفَلْت.
(2) القصيدة 17/ 2 ـ 3.
(3) العصر الجاهليّ 219.

تبعد كثيراً عن حاجة أي شاعر إلى الدقّة والتأثير، ومن ذلك ما قاله في بَكْر صغير، أعطاه بعضهم في حَمَالة، فلم يرضه[1]:

فَصَدِّقْ ما أَقولُ بِحَبْحَبِيٍّ كفَرْخِ الصَّعْوِ في العامِ الجَديبِ

فابن أحمر يرى هذا البكر كالصَّعْو بل كفرخ الصَّعْو، وهو طائر أصغر من العصفور، لم يجد أكثر ضآلةً منه سوى فرخه، فشبّه الحَبْحَبيّ من الإبل به، وبالغ في وصفه، فجعله كالفرخ.

ومنه أيضاً ما رواه ابن قتيبة[2]:

تُمشِّي بأَكْنافِ البَلِيخِ نِساؤُنا أَرامِلَ يَسْتَطْعِمْنَ بالكَفِّ والفَمِ
نَقائِذَ بِرْسامٍ وحُمَّى وحَصْبَةٍ وجوعٍ وطاعونٍ ونَقْرٍ ومَغْرَمِ

ثمّ قال: «قالوا: هذا أكثر بيت آفاتٍ»[3]، وقال العسكريّ: «ما جمع أحد من أنواع المكروه في بيت كما جمع ابن أحمر»[4]، فكان هذا من نادر القول وأكثره مغالاةً.

وأمثال هذه المبالغات في شعر ابن أحمر لا تخرج عن واقع مألوف، ينقل عنه الصور نقلاً أميناً، ويستمدّ منه معانيه، فلا يغرق في المبالغة، ولا يعرف الغلوّ ولا المغالاة الّتي قد تعطف به عن حدود الاعتدال. ومن هنا كانت معانيه حسيّةً ماديّةً، انتزعت من البيئة التي تحيط به، ثمّ جعلت في إطار فنّيّ مناسب، فابن أحمر لا يبعد في خياله عن مظاهر بيئته، ولا يحاول أن يتغلغل بها في أعماق الشيء أو في خفايا النفس، وتتّضح هذه النزعة المادّيّة في تشبيهات،

(1) القصيدة 5/ 3.
(2) القصيدة 49/ 27 ـ 28.
(3) الشعر والشعراء 358.
(4) الصناعتين 418.

ينتزعها من عالمه الحسيّ، فممدوحه النعمان «كالكَوْكَبِ الأَزْهَرِ»[1] عطاءً، وامرأته «كبَيْضَةِ أُدْحِيٍّ بوَعْثِ خَميلَةٍ»[2] بياضاً، والخصوم «كَأَنَّهُمْ قُرومٌ تَسامى بَيْنَهُنَّ الحَناجِرُ»[3] رفعةً، والكلام «قُضُبٌ مِنَ الرَّيْحانِ»[4] نضارةً، وولد البقرة «كالدِّينارِ»[5] حسناً، والناقة «كفَرْخِ الصَّعْوِ»[6] ضآلةً، أو «كَأَنَّها قَطا الحَزْنِ»[7]، أو «كالثَّعْلَبِ الرَّائِحِ المَمْطورِ صِبْغَتُهُ»[8]، أو «كثَوْرِ العَدَابِ الفَرْدِ»[9] سرعةً، والفرس «كلَوْنِ الفَرْقَدِ»[10] بياضاً، أو كـ «قَبَسٍ تَقَطَّعَ دونَ كَفِّ المُـوْقِدِ»[11] نشاطاً.

وكلّها تشبيهات، انتزعها ابن أحمر من بيئته، وبناها بناءً حسّيّاً، فلم يخرج عن طريقة غيره من شعراء الجاهليّة، لأنّ هذه الحسّيّة في التشبيه كانت عامّةً في الشعر الجاهليّ، وقد «جعلتهم ـ كما يقول الدكتور شوقي ضيف ـ لا يتّسعون بمعانيهم، بل جعلتهم يدورون حول معانٍ، تكاد تكون واحدةً، وكأنّما اصطلحوا على معـانٍ بعينها، فالشعراء لا ينحـرفون عنها يمنةً ولا يسرةً، فما يقوله طَرَفة في الناقة يقوله غيره، وما يقوله امرؤ القيس في بكاء الديار يقوله جميع الشعراء، واقرأ حماسيّةً كمعلّقة عمرو بن كلثوم، فستجد الشعراء

(1) القصيدة 46/ 13.
(2) القصيدة 44/ 3.
(3) القصيدة 17/ 2.
(4) القصيدة 14/ 17.
(5) القصيدة 8/ 3.
(6) القصيدة 5/ 3.
(7) القصيدة 36/ 4.
(8) القصيدة 38/ 4.
(9) القصيدة 28/ 21.
(10) القصيدة 14/ 30.
(11) القصيدة 14/ 34.

الحماسيّين لا يكادون يأتون بمعنى جديد، وقل ذلك في غزلهم ومديحهم ورثائهم، فالشعراء يتداولون معاني واحدةً وتشبيهات وأخيلةً واحدةً، ومن ثَمّ تبدو في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد، وجنى عليهم ذلك ضيقاً واضحاً في معانيهم غير أنّه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها، وأن يجلوها ويكشفوها أتمّ كشف وجلاء.. واقرأ في (المفضّليّات) و(الأصمعيّات)، تجدْ دائماً المعاني نفسها، وتجدْ براعةً نادرةً في إعادتها وصوغها صوغاً جديداً، فكلّ شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيّته»[1].

ويبدو أنّ هذه الحسّيّة قد جعلت ابن أحمر لا يذهب بعيداً بمعانيه، وإنّما كان يدور حول كثير من المعاني المعروفة التي تداولها شعراء الجاهليّة والإسلام، وإذا شئنا أن نتتبّع ذلك، فسنحظى بقدر واسع من الأمثلة، نذكر منها هذا التشبيه الذي يجعل الرسوم كالكتب في قوله[2]:

ولِلشَّيْخِ تَبْكيهِ رُسومٌ، كَأَنَّما تَرَاوَحَها العَصْرَيْنِ أَرْواحُ مَنْدَدِ
تَماثيلُ قِرْطاسٍ عَلى هَبْهَبِيَّةٍ نَضا الكورُ عَنْ لَحْمٍ لَها مُتَخَدِّدِ

فابن أحمر «أراد بالتماثيل كتباً يكتبونها»[3]، ثمّ شبّه الرسوم بها، وكان هذا التشبيه شائعاً في أشعارهم، فسَلامة بن جَنْدَل ـ وهو شاعر جاهليّ قديم ـ جاء بمثله، فقال[4]:

لِمَنْ طَلَلٌ مِثْلُ الكِتابِ المُنَمَّقِ خَلا عَهْدُهُ بَيْنَ الصُّلَيْبِ فمُطْرِقِ[5]

(1) العصر الجاهليّ 221.
(2) القصيدة 12/ 1 ـ 2.
(3) تهذيب اللغة 5/ 380، واللسان (هبب).
(4) ديوان سلامة بن جندل 155، والأصمعيّات 132.
(5) المنمّق: الموشّى المحسّن. والصُّلَيْب ومُطْرِق: موضعان.

وأتى بمثله أيضاً شاعر جاهليّ آخر، هو معاوية بن مالك، فقال[1]:

فـإنَّ لَـهـا مَـنـازِلَ خـاوِيـاتٍ عَـلـى نَـمَـلـى وَقَـفْـتُ بـهـا الـرِّكـابـا
مِـنَ الأَجْـزاعِ أَسْـفَـلَ مِـنْ نُـمَـيْـلٍ كـمـا رَجَّـعْـتَ بـالـقَـلَـمِ الـكِـتـابـا
كِـتـابَ مُـحَـبِّـرٍ هـاجٍ بَـصـيـرٍ يُـنَـمِّـقُـهُ، وحـاذَرَ أَنْ يُـعـابـا

ومن تلك الأمثلة ما أنشده في وصف الخمرة، فقال[2]:

لَـهـا حَـبَـبٌ تَـرى الـرَّاووقَ فـيـهِ كـمـا أَدْمَـيْـتَ فـي الـقَـرْوِ الـغَـزالا

فابن أحمر «يصف حمرة الخمرة، كأنّها دم غزال»[3]، فلا يبعد عن تشبيههم المألوف لها بدم الغزال أو بدم الذبيح، فالحادرة الذبيانيّ، وهو شاعر جاهليّ، يقول[4]:

بَكَروا عَلَيَّ بسُحْرَةٍ، فصَبَحْتُهُمْ مِنْ عاتِقٍ كدَمِ الغَزالِ مُشَعْشَعِ[5]

ومتمّم بن نويرة، وهو شاعر مخضرم، يقول[6]:

جَفْنٌ مِنَ الغِرْبِيبِ خالِصُ لونِهِ كدَمِ الذَّبيحِ إذا يُشَنُّ مُشَعْشَعُ[7]

ومنها أيضاً ما قاله في الشيب[8]:

زَعَمَتْ غَنِيَّةُ أَنَّ أَكْثَرَ لِمَّتي شَيْبٌ، وهانَ بذاكَ ما لَمْ تَزْدَدِ

(1) الأصمعيّات 213، والمفضّليّات 357.
(2) القصيدة 48/ 14.
(3) اللسان، والتاج (قرو)، وانظر: كنز الحفّاظ 351.
(4) المفضّليّات 46.
(5) السحرة: السَّحَر، وهو الوقت قبل الفجر. صبحتهم: سقيتهم الصَّبُوح. والعاتق: الخمر العتيقة القديمة. والمشعشع: المرقّق الماء لا كثيراً ولا قليلاً.
(6) المفضّليّات 52.
(7) الجفن: الكَرْم. والغربيب: الأسود، أي: خمر من العنب الأسود. ويشنّ: يصبّ.
(8) القصيدة 14/ 2.

ومثل هذا كثير في الشعر الجاهليّ والإسلاميّ، ولعلّ من أوضحه ما قاله عمرو بن معدي كرب الزُّبيديّ[1]:

وقَـدْ عَـجِـبَـتْ أُمـامَـةُ أَنْ رَأَتْـنـي تَـفَـرَّعَ لِـمَّـتـي شَـيْـبٌ فَـظـيـعُ[2]

وهناك أمثلة أخرى، لا تتّفق في المعنى، وإنّما تكاد تتّفق في اللفظ، فلعلّ ذلك من توارد الخواطر، وليس من باب السرقة، ومن ذلك قوله[3]:

فـهَـزَّ رُدَيْـنِـيًّـاً، كـأَنَّ كُـعـوبَـهُ نَوَى القَسْبِ، نَقّى التَّمْرَ عِنْدَ العَواجِمِ

وهذا مثل بيت لحاتم الطائيّ أو لغيره[4]:

وأَسْـمَـرَ خَـطِـيًّـاً، كَـأَنَّ كُـعـوبَـهُ نَوى القَسْبِ، قَدْ أَرْمى ذِراعاً عَلى العَشْرِ[5]

ومنه أيضاً قوله[6]:

يُصَلِّي عَلى مَنْ ماتَ مِنَّا عَريفُنا ويَقْرَأُ حَتّى يَعْصِبَ الرِّيْقُ بالفَمِ

وهذا مثل بيت للنابغة الجَعْديّ، يقول[7]:

وحُـلِّـئْـتُ أَيَّـامَ الـحَـرورِ بـحِـمْـوَةٍ عَنِ الماءِ حَتّى يَعْصِبَ الرِّيْقُ بالفَمِ[8]

---

(1) ديوان الزُّبيديّ 142، والأصمعيّات 174.

(2) تفرّعه: علاه، أو صار في فروعه، وفرع كلّ شيء أعلاه. واللمّة: ما ألم بالمنكب من الشعر.

(3) القصيدة 50/ 5.

(4) اللسان، والتاج (قسب) للطائيّ، واللسان (ردي) لأوس.

(5) الأسمر الخطّيّ: الرمح. والكعوب: جمع كَعْب، وهو عقدة ما بين الأنبوبين من القَنا. والقَسْب: التمر اليابس صُلب النواة، يتفتّت في الفم.

(6) القصيدة 49/ 34.

(7) ديوان النابغة 147، وانظر: الأفعال 1/ 292.

(8) حلّئت عن الماء: منعت من وروده. والحرور: الريح الحارّة، وهي في الليل كالسَّموم في النهار. والحموة: ما حمي من الحرّ. وعصب الريق: جفّ، ويبس.

ومنه أيضاً قوله[1]:

إِذا شَـرِبَ الـمُـرِضَّـةَ قـالَ: أَوْكـي عَـلـى مـا فـي سِـقـائِـكِ قَـدْ رَويـنـا

وهذا مثل بيت لعمرو بن هُمَيل اللِّحْيانيّ، يقول[2]:

إِذا شَـرِبَ الـمُـرِضَّـةَ قـالَ: أَوْكـي عَـلـى مـا فـي سِـقـائِـكِ قَـدْ رَوِيـتُ

ولعلّ في كلّ ذلك دليلاً واضحاً على أنّ معاني ابن أحمر لا تختلف في إطارها الحسيّ عن معاني غيره من الشعراء الجاهليّين والإسلاميّين، لأنّ مصدرهم كان واحداً، «فالشاعر ـ كما يقول الدكتور شوقي ضيف ـ يستقي في أخيلته من العالم الحسّيّ المترامي حوله، وجعلهم تمسّكهم بهذه الحسّيّة إذا وصفوا شيئاً أدَقّوا النظر في أجزائه، وفصّلوا الحديث فيها تفصيلاً شديداً، وكأنّما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكلّ دقائقه، وكأنّ الشاعر نحّات لا يصنع قصيدةً، وإنّما يصنع تمثالاً، فهو يستوفي ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة»[3]. ولهذا نجد أنّ معانيه لا تخرج بشكل عام عن المألوف من المعاني والشائع من الصور، فالمرأة لديه كـ «المَهاةِ صَبيحَةَ القَطْرِ»[4]، تُصبي أخا الحِلْم بـ «جيدِ أَدْماءَ وعَيْني جُؤْذَرٍ»[5]، وأمّا كلامها، فـ «قُضُبٌ مِنَ الرَّيْحانِ، غَلَّسَها النَّدى»[6]، وأمّا حبّها، فقاتل[7]، يجعل ابن أحمر يلهث وراءه في أكثر أماكن الحجّ جمعاً وازدحاماً[8] حتّى إنّه استتر وراء تجارب الآخرين من الشعراء، فرأى

(1) القصيدة 58/ 28.
(2) اللسان (كنت)، والتاج (رضض)، وهو دون نسبة في تهذيب اللغة 9/ 439.
(3) العصر الجاهليّ 221.
(4) القصيدة 25/ 6.
(5) القصيدة 54/ 2.
(6) القصيدة 14/ 17.
(7) انظر: القصيدة 15/ 1.
(8) انظر: القصيدة 8/ 9 ـ 13.

في لهو امرئ القيس ومجونه رمزاً، لقي في نفسه استجابةً، فنوّه بعبثه، ولمح إلى مدلوله[1].

وفي المديح يجري ابن أحمر على سنّتهم في المعاني التقليديّة من عفّة وعدل وشجاعة وعقل[2] إلاّ أنّه يجعل هذه الفضائل في لبوس إسلاميّ، فإذا مدح النعمان بن بشير الأنصاريّ، ألصق به من السجايا ما يتّصل بحسبه ونسبه ودينه، ورأى فيه مثالاً عظيماً، يجمع تلك الفضائل[3]، وإن مدح يحيى بن الحكم بن أبي العاص، رآه «غِياثَ النّاسِ»[4] وملجأهم وإمامهم، ووجده[5]:

يَعْلو مَعَدّاً، ويُسْتَسْقى الغَمامُ بِهِ بَدْرٌ تَضاءَلُ فيهِ الشَّمْسُ والقَمَرُ

ولا يختلف الأمر في الفخر والهجاء عن المديح، فمعانيه في الفخر تأتي على عادتهم في الفخر القبليّ والذاتيّ، فهو يثني على عرانين باهلة وفوارسها بالإقدام والشجاعة، ويشمخ بحلم نادر ونفس أبيّة، ويعتزّ بكرمه وحذره، ويفخر بشدّة تبصّره ورباطة جأشه إلاّ أنّ كلّ هذا لا يخرج عن القيم الشائعة للفخر الإسلاميّ من نصرة الحقّ وشجاعة فائقة وسخاء فيّاض، ولا يتجاوزها إلى ما كان يفاخر به الشاعر الجاهليّ من موضوعات، يرى فيها ضرباً من الجود والكرم كشرب الخمر وحضور الميسر.

وأمّا معانيه في الهجاء، فلا تبلغ سوى حدّ التعريض والتهكّم، فلا اتّهام ظالم لديه، ولا قذف مقذع، ولا شتم فاحش.. إلاّ أن ابن أحمر كان يرى في السخرية صائبةً، يستعيض بها عن كلّ ذلك.

---

(1) انظر: القصيدة 35/ 8 ـ 13.
(2) انظر: العمدة 2/ 132.
(3) انظر: القصيدة 46/ 10 ـ 16.
(4) القصيدة 18/ 26.
(5) القصيدة 18/ 39.

وابن أحمر لم يقف عند هذه الأطر العامّة لمعاني أغراضه، وإنّما نجده يبدع في بعض معانيه، ويبرع في إعادة صياغة المألوف منها، فيخرج بشيء من الجدّة والطرافة بعد أن يعطيها شيئاً نادراً من بيئته أو شيئاً ذاتيّاً من شخصيّته، فالمعاني التي أتى بها لوصف فرس في قصيدة داليّة ليست إلاّ ألواناً مألوفةً في وصف الخيل، يستوفي بها الشاعر ما يرسمه بجميع أجزائه وتفاصيله، ولكنّ ابن أحمر يبعث في معانيه الحسّيّة كثيراً من الحركة، ويبثّ فيها قلبه، ويتدافع في مشيه، فيدخل بعضه في بعض[1]:

ولَقَدْ عَذَوْتُ وأَيَّ أَفْنُنِ دَهْرِهِ يَرْجو الفَتى في العَيْشِ ما لَمْ يَفْتَدِ
بمُقَلِّصٍ دَرْكِ الطَّريدَةِ مَتْنُهُ كصَفا الخَليقَةِ بالقَضاءِ المُلْبِدِ
يَخْدي بأَوْظِفَةٍ شَديدٍ أَسْرُها شُمِّ السَّنابِكِ، لا تَقي بالجَدْجَدِ
إِذْ صَبَّحَتْهُ طاوِياً ذا شِرَّةٍ وفُؤَادُهُ زَجِلٌ كعَزْفِ الهُدْهُدِ
ذي مَنْكِبٍ رَهِلٍ وقُصْرى جَأبَةٍ وصَليفِ أَرْعَنَ يافِعِ المُتَلَدَّدِ
لَحِقَتْ قُصَيْراهُ وسونِدَ صَدْرُهُ وإِذا تَدافعَ خِلْتَهُ لَمْ يُسْنَدِ

وهذه المعاني جعلت ناقداً بارزاً، هو قدامة بن جعفر، يلتفت إليها، فيراه «يذكر قلب الفرس عند الحركة السريعة: إِذْ صَبَّحَتْهُ... (البيت)، فتواتر نبض قلب الفرس إذا تحرّك قريب الشبه من تواتر عزف الهدهد»، ويجد ذلك «من أحسن التشبيه»[2].

ومن معاني ابن أحمر التي لا تخلو من جدّة وطرافة تلك المفارقة الفنّيّة التي بناها بين سُعاة جِشاع يظلمون قومه وبين ذئب لَحِم يمزّق ولد بقرة إِرْباً إِرْباً، أو تلك المفارقة الطريفة التي وضعها أمام زوجه غَنِيَّة صورتين متباينتين،

(1) القصيدة 14/ 19 ـ 24.
(2) نقد الشعر 112.

إحداهما لرجل مطيع مستكين لا يبالي بأحوالها، والأخرى لرجل أريحيّ مقدام، كأنّه الصقر، فخيّرها بينهما من بعد أن يهلك. وأمثال هذه المفارقات رأينا في دراستنا فنّ الوصف في شعره أنّها كانت من أبرز أساليب ابن أحمر في تحقيق ما يبتغيه لصوره ومعانيه من الوضوح والتأثير، وما يريده لفنّه من الجدّة والإبداع.

وربّما نجد أنّ بعض معانيه قد سارت على ألسنة غيره من الشعراء إعجاباً بدقّتها وطرافتها، ومن ذلك ما قاله في هجاء جَرِب، نسب إليه، فناله شرّه[1]:

وإِنْ قالَ غاوٍ مِنْ تَنوخَ قَصيدَةً بِها جَرَبٌ، عُدَّتْ عَلَيَّ بزَوْبَرا
ويَنْطِقُها غَيْري، وأَكْلَفُ حَمْلَها فهَذا قَضاءٌ حَقُّهُ أَنْ يُغَيَّرا

ويبدو أنّ هذا المعنى قد راق للفرزدق، فتنحّل البيتين معاً حتّى إنّه أمعن في الإغارة عليهما، فوقعا في ديوانه ضمن قصيدتين[2]. وقد نوّه الصَّغَانيّ والزَّبيديّ[3] بأنّ الفرزدق قد تنحّل بيت ابن أحمر: وإِنْ قالَ غاوٍ... (البيت)، فقال:

إِذا قالَ غاوٍ مِنْ مَعَدٍّ قَصيدَةً بِها جَرَبٌ كانَتْ عَلَيَّ بزَوْبَرا

وليس هذا بغريب على الفرزدق الّذي كان يغير على شعر غيره من الشعراء، ويسرق أفذاذ أبياتهم[4] حتّى إنّ الأصمعيّ قال: «تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة، وكان يكابر»[5].

وقد كان ابن أحمر يحرص على أن يجعل المعنى واضحاً، ليكون أقرب إلى الفهم، وأثبت في الذهن، وأدعى إلى الاقتناع به.. وكان هذا الحرص يجعله

(1) القصيدة 28 / 15 ـ 16.
(2) انظر: ديوان الفرزدق 206 و296.
(3) التكملة 3/ 3، والتاج (زبر).
(4) انظر: الموشّح 171، والممتع 234، والعمدة 2/ 285، وخزانة الأدب 1/ 78.
(5) مراتب النحويّين 49.

يبدع من المعاني ما يصبح أمثالاً سائرةً، أو يورد من الأمثال ما عرفته العرب، ومن الضرب الأوّل ما قاله فيما لا يطاق من الأمور[1]:

كَـلَّـفْـتَـنـي مُـخَّ الـبَـعـوضِ، فـقَـدْ أَقْـصَـرْتُ لا نُـجْـحٌ ولا عُـذْرُ

وقد ذهب هذا مثلاً، قال الثعالبيّ في شرحه: «من أمثال العرب: كلّفَتْني مخّ البعوضة، أي: كلّفتني ما لا أطيق، ولا يوجد، ولا يكون، ولم يذكر ذلك أحد من الشعراء إلاّ ابن أحمر»، وقال الزَّمَخْشَريّ أيضاً[2]: «كلّفْتَني مخّ البعوض، قال ابن أحمر: كَلَّفْتَني... (البيت)، تضرب ثلاثتها[3] في تكليف ما لا يطاق»[4]، وأورده الميدانيّ، فقال: «كلّفْتَني مخّ البعوض، يضرب لمن يُكلّفك الأمور الشاقّة»[5].

ومن الضرب الثاني ما كان يورده من أمثال العرب المعروفة لتوضيح المعنى وإثباته في الذهن، فإذا عرّض بقوم من بني سعد، أغاروا على رِكابه، فأخذوها، جعل يهدّدهم بداهية شديدة، ويقول[6]:

فـرُدُّوا مـا لَـدَيْـكُـمْ مِـنْ رِكـابـي ولَـمَّـا تَـأْتِـكُـمْ صَـمِّـي صَـمَـامِ

فجاء بهذا من قول العرب: «صَمِّي صَمَامِ»[7]، لأنّه يؤدّي ما أراده، فهو يضرب للرجل، يأتي الداهية.

---

(1) القصيدة 20/ 34.
(2) ثمار القلوب 505.
(3) ثلاثتها، يعني: مثلين آخرين، سبقا هذا المثل.
(4) المستقصى 2/ 223.
(5) مجمع الأمثال 2/ 147.
(6) القصيدة 52/ 1.
(7) الحيوان 4/ 234، وجمهرة الأمثال 1/ 578، والصحاح 1967، وكنز الحفّاظ 435، ومجمع الأمثال 1/ 396، والأساس (صمم)، والمستقصى 2/ 143، والحور العين 129، واللسان، والتاج (صمم).

وإذا وقع في حبالة الأمور، كان يسعى وراء أمثال العرب، فقال في قارعة من الأيّام[1]:

وقـــارِعَـــةٍ مِـــنَ الأَيَّـــامِ لَـــوْلا سَـبـيـلُـهُـمُ، لـزاحَـتْ عَـنْـكَ حِـيـنـا
دَبَـبْـتُ لَـهـا الـضَّـرَاءَ، وقُـلْـتُ أَبْـقـى إِذا عَـزَّ ابْـنُ عَـمِّـكَ أَنْ تَـهـونـا

فأتى بهذا أيضاً من قولهم: «إذا عزّ أخوك، فهُنْ»[2] الذي يضرب مثلاً لمتكبّر، ليس لك إلاّ أن تتواضع، أو تلين له.

وقال في دواهٍ، كاد شرّها يصيبه[3]:

فـلَـمَّـا غَـسـى لَـيْـلـي، وأَيْـقَـنْـتُ أَنَّـهـا هِـيَ الأُرَبـى جـاءَتْ بـأُمٍّ حَـبَـوْكَـرا

فاخذ هذا من قولهم: «جاء بالأُرَبى»[4]، و«جاء بأمّ حَبَوْكرى»[5]، أو من قولهم: «وقعوا في أمّ حَبَوْكَر»[6]، وكلّها تضرب لمن وقع في داهية، لا تطاق.

فابن أحمر كان حريصاً على أن يجعل معانيه تأخذ بوافر نصيب من الجودة، فرأينا أنّه أتى بمعانٍ نادرة، قلّ من يعرفها، وجاء بمفارقات، تفيض بالجودة والطرافة، وبعث في صوره الحركة والحيويّة. ويبدو أنّ ثقافته التي أوشكت أن تكون أعرابيةً كانت تسعفه بمعان وثيقة الصلة ببيئته، فلم يكن يتمثّل كلّ ما وجده من مظاهر الحضارة الجديدة في الحجاز أو في الجزيرة، إذ إنّه لم يرض بالحياة في جزيرة الشام، فعابها، وقفل عائداً إلى قومه في بادية نجد،

(1) القصيدة 58/ 38 ـ 39.
(2) أمثال العرب 137، والبيان والتبيين 1/ 162، والفاخر 64، وجمهرة الأمثال 1/ 65، وفصل المقال 235، ومجمع الأمثال 1/ 23، والمستقصى 1/ 125.
(3) القصيدة 28/ 18.
(4) جمهرة الأمثال 1/ 313.
(5) المستقصى 2/ 41.
(6) مجمع الأمثال 2/ 361.

وذلك حين استطاع أن يفرّ من سطوة يزيد ونقمته، ولهذا أخذ عليه غير واحد من العلماء قوله في وصف امرأة[1]:

لَمْ تَدْرِ ما نَسْجُ اليَرَنْدَجِ قَبْلَها ودِراسُ أَعْوَصَ دارِسٍ مُتَخَدِّدِ

فظنّ أنّ اليرندج ممّا ينسج، وإنّما هو جلود سود، تُعمل منها الخِفاف، وهذا الخطأ أخذه عليه عدد من النقّاد، أمثال: ابن السِّكِّيت وابن قتيبة وابن عبدربّه والجرجانيّ وأبي هلال العسكريّ والسيوطيّ وغيرهم[2]. وهذا ليس ببعيد عن شاعر أعرابيّ، نشأ في البادية، ثمّ انتقل زمناً إلى حاضرة من الحواضر، فإذا أراد شيئاً من مظاهرها أخطأ، وإذا كان العلماء لم يأخذوا عليه سوى ذلك القول في اليَرَنْدَج، فإنّ بعضهم قد برّأ شاعرنا منه، قال ابن دريد: «ظنّ أن اليَرَنْدَج ينسج، وإنّما هو جلد يصبغ، وقال بعض أهل العلم: إنّ هذه المرأة لغرّتها وقلّة تجاربها ظنّت أنّ اليَرَنْدَج منسوج، وإنّما هو جلد»[3].

وهؤلاء العلماء يجدون لابن أحمر معاني، لم تستقم له، وذلك بسبب اتّساعه في اللغة، وليس بسبب بيئيّ، ومن أمثلتها ما رواه التَّبْريزيّ[4]:

لَها حَبَبٌ تَرى الرّاووقَ فيهِ كما أَدمَيْتَ في القَرْوِ الغَزالا

ثمّ قال: «أراد أن يقول: كدم الغزال، يعني أنّ لون السلافة في حمرته يشبه دم الغزال، فلم يستقم له، فقال: كما أدميت الغزال»[5].

ومنها أيضاً ما أنشده ابن قتيبة[6]:

(1) القصيدة 14/ 18.
(2) الحروف 100، والشعر والشعراء 359، والعقد الفريد 5/ 360، وتهذيب اللغة 12/ 359، والوساطة 14، والصناعتين 79، والمزهر 2/ 502، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 3/ 134.
(3) جمهرة اللغة 3/ 504، وعنه في الصناعتين 79.
(4) القصيدة 47/ 14.
(5) كنز الحفّاظ 351.
(6) القصيدة 6/ 1.

لَـيْسَـتْ بـمَـشْـتَـمَـةٍ تُـعَـدُّ، وعَـفْـوُهـا عَـرَقَ الـسِّـقـاءِ عَـلـى الـقَـعـودِ الَّـلاغِـبِ

ثمّ قال: «قال الأصمعيّ: العرب تقول: لقيت من فلان عَرَق القِرْبَة، يعنون الشدة، وقال هذا: عَرَق السِّقاء، أراد: القِرْبَة، فلم يمكنه الشعر»[1].

ولعلّ في هذه المآخذ ضرورات، لا تجعل ما يريده الشاعر من المعاني مستقيماً، فالسبب يبقى لغويّاً لا بيئيّاً، لأنّ ابن أحمر كان يتمثّل مظاهر بيئته البدويّة التي ظلّ مخلصاً لها في جاهليّته وإسلامه أو في بداوته وحضارته، فقد رأينا في دراستنا (شخصيّته وثقافته) أنّه كان شديد الصلة بهذه البيئة عالماً بحياة الأعراب خبيراً بطبيعة الصحراء، يعرف طباع حيوانها وهبوب رياحها، فبرزت في أشعاره صور متنوّعة وألفاظ نادرة ومعان غريبة، لا يعرفها إلاّ من تبدّى، أو اختلف فترةً من الزمن إلى البادية، ثمّ وجدنا أنّ طبعه الأعرابيّ جلف وجاف، ما كان يثنيه عن التعريض بالخليفة يزيد، أو يجعله يتلاءم والحضارةَ الجديدة في الجزيرة.

إنّ ابن أحمر كان مخلصاً للبداوة في معانيه حتّى إنّ مظاهر الحياة الحضريّة لتخفى في أشعاره، فلا نكاد نلمح إلاّ آثاراً يسيرةً، عفتها طباع هذا الأعرابيّ، فكانت في بعض أبياته نثاراً، لا يجمع بينها مظهر واضح من مظاهر تلك الحياة الحضريّة التي لم ترض الشاعر، فعافها، وعابها، ثمّ قفل عائداً إلى باديته، فهو يذكر السابريّات، وهي من أرقّ الثياب وأجودها، ويقول[2]:

عِيْطٌ عَطابيلُ لُثْنَ الرَّيَّ، وابْتَذَلَتْ مَـعـاطِـفـاً سـابِـرِيّـاتٍ وكَـتّـانـا

ويصف مجلس غناء، فيذكر قياناً وأحجاراً كريمةً وعوداً وصَنْجاً، وهي من أبرز آثار الحضارة ووسائلها، ويقول[3]:

وجَـرادَتـانِ تُـغَـنِّـيـانِـهُـمُ وتَـلاَّلأَ الـمَـرْجـانُ والـشَّـذْرُ

(1) المعاني الكبير 821، وانظر: جمهرة اللغة 2/ 384، والمخصّص 12/ 150.
(2) القصيدة 57/ 4، وانظر: القصيدة 42/ 1.
(3) القصيدة 20/ 19 ـ 21.

ومُـجَـلْـجَـلٌ دانٍ زَبَـرْجَـدُهُ حَـدِبٌ كـمـا يَـتَـحَـدَّبُ الـدَّبْـرُ
وَنّـانِ حَـنّـانـانِ بَـيْـنَـهـمـا وَتَـرٌ أَجَـشُّ، غِـنـاؤُهُ زَمْـرُ

ويضيق ذرعاً بالحياة الجديدة في الجزيرة، فيقول[1]:

أَبَـعْـدَ حُـلـولٍ بـالـرِّكـاءِ وجـامِـلٍ غَـدا سـارِحـاً مِـنْ حَـوْلِـنـا، وتَـنَـشَّـرا
تَـبَـدَّلْـتَ إِصْـطَـبْـلاً وتَـلاًّ وجَـرَّةً وديـكـاً إِذا مـا آنَـسَ الـفَـجْـرَ فَـرْفَـرا
وبُـسْـتـانَ ذي ثَـوْرَيْـنِ، لا لـيـنَ بَـعْـدَهُ إِذا مـا طَـغـى نـاطـورُهُ، وتَـغَـشْـمَـرا

وأمثال هذه الآثار في معاني ابن أحمر معدودة، لا تؤكّد للباحث في شعره ارتباطاً معيّناً بينه وبين الحضارة الجديدة في الحجاز أو الجزيرة، لأنّ إقامته في تلك الحواضر لم تطل، فكان أثر البادية أكثر وضوحاً في شعره من أيّ أثر آخر. وهذه الصلة الوثيقة بالبادية كانت تحمل في أضعافها بعض مثل الجاهليّة ومعانيها، ونجد منها الخمرة[2] التي كانت من مشاربهم ومفاخرهم، ثمّ أبطلها الإسلام، وجعلها من عمل الشيطان، ومنها أيضاً عادة الثأر التي هدمها الإسلام، وجعل حقّها للدولة لا للأفراد، ومع ذلك لا ينسى ابن أحمر هذه العادة، وإنّما يذكّر بها نفسه، ويقول[3]:

بـانَ الشَّـبـابُ، وأَفْـنـى ضِـعْـفَـهُ الـعُـمُـرُ لِـلَّـهِ دَرُّكَ، أَيَّ الـعَـيْـشِ تَـنْـتَـظِـرُ
هَـلْ أَنْـتَ طـالِـبُ وِتْـرٍ لَـسْـتَ مُـدْرِكَـهُ أَمْ هَـلْ لـقَـلْـبِـكَ عَـنْ أُلاَّفِـهِ وَطَـرُ

وابن أحمر يستقي بعض معانيه من أمور جاهليّة أخرى، أبطلها الإسلام، فهو ما زال يذكر زجر الطير، ويقول[4]:

(1) القصيدة 28/ 12 ـ 14.
(2) انظر: القصيدة 48/ 11 ـ 15.
(3) القصيدة 18/ 1 ـ 2.
(4) القصيدة 14/ 15.

زَجَرْتُ لَها طَيْراً، فيَزْجُرُ صاحِبي وأَقولُ: هَذا رائِدٌ لَمْ يُحْمَدِ

وهذا الضرب من المعرفة الساذجة شاع عندهم، فكانوا يتيامنون بالطير، ويتفاءلون إن جرت يمنةً، ويتشاءمون إن جرت يسرةً. وابن أحمر لا يتناسى عادةً جاهليّةً أخرى، هي الميسر، وإنّما يقول:

غَطارِفُ لا يَصُدُّ الضَّيْفُ عَنْهُمْ إذا ما طَلَّقَ البَرَمُ العِيالا

وقال ابن الشجريّ في شرحه: «لا تتجاوزهم الضيوف في وقت تطليق البَرَم عياله، وذلك في زمان البرد والجدب، والبَرَم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر، ولا يتحمّل غُرْماً لإصلاح حال»[1].

إنّ أثر الجاهليّة لا يخفى في أشعار ابن أحمر ومعانيه، لأنّ مُثلها لم تبرح مخيّلته بعد، وشأنه في ذلك شأن أغلب الشعراء المخضرمين الذين لم يكن إسلامهم ليغيّر في سنوات قلائل ما بقي من الجاهليّة في نفوسهم وخيالهم، فظلّت أشعارهم مشوبةً بالمعاني الإسلاميّة والجاهليّة معاً، ولعلّ أبا زيد القرشيّ أوّل من تنبّه على ذلك، إذ رأى لدى بعض الشعراء المخضرمين شيئاً من معالم الإسلام وشيئاً آخر من آثار الجاهليّة في آن واحد معاً، فاختار في (جمهرته) من دواوينهم ما سمّاه بـ (المشوبات)، وجعل ابن أحمر من أصحابها، وقال: «أصحاب المشوبات، وهنّ سبع اللائي شابهنّ الإسلام والكفر، وهم النابغة نابغة بني جَعْدة، وكعب بن زهير، والقطّاميّ التغلبيّ، والحطيئة العبسيّ، والشمّاخ بن ضرار الغَطَفانيّ، وعمرو بن أحمر، وتميم بن مقبل»[2].

وإذا ما بحثنا عمّا شاب رائيّة ابن أحمر من معانٍ جاهليّة ومعان إسلاميّة

(1) الأمالي 1/ 142.

(2) جمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 106، وانظر: (ط. صادر) 81 منه.

برز لنا وجهه الأعرابيّ جلفاً جافياً، لا تبرح مخيّلته آثار الجاهليّة، فهو لا ينسى ـ كما رأينا ـ عادة الثأر، ولا يزال في ظلّ الإسلام يُرجّي «عيشةً أُنُفاً»[1]، وربّما أسرف في أوصافه، فرأى والي المدينة غياث الناس وإمامهم، وجعل الغمام يُستسقى به، ثمّ وجده «بَدْراً تَضاءَلُ فيهِ الشَّمْس والقَمَرُ»[2] إلاّ أنّ ابن أحمر يجهل عليه، فينذره ـ إن أقرّ على قومه ظلماً ـ بالشدائد من الأيّام، ويتوعّده برجال سخّروا أنفسهم للحقّ، وهنا تغلب العصبيّة القبليّة على نفسه، فلا يلتفت إلاّ إلى حقّ قبيلته في العيش الحرّ، فيأبى أن تكون في الخضوع مثل أقوام، عليهم «جِزْيَةٌ نُسُكٌ»[3]، أو أن تكون في الذلّ مثل «أَجْسادِ عادٍ»[4] الذين أهلكهم اللّه بريح عاتية، ولعلّ في كلّ هذه المعاني بقيّة من جاهليّة، كانت في نفس ابن أحمر وأشعاره.

وأمّا معانيه الإسلاميّة في تلك المشوبة، فقد برزت في أكثر أبياتها، فإن تعجّب من عمره المديد، قال:

بانَ الشَّبابُ، وأَفْنى ضِعْفَهُ العُمُرُ لِلّهِ دَرُّكَ، أَيَّ العَيْشِ تَنْتَظِرُ

وإن اشتدّ عليه الحال تعوّذ باللّه، وقال[5]:

إِنِّي أَعوذُ بما عاذَ النَّبِيُّ بِهِ وبالخَليفَةِ أَنْ لا تُقْبَلَ العُذَرُ

وربّما لمحنا في بعض أبياتها شيئاً من المعاني الدينيّة الخالصة، فلعلّه قد

(1) القصيدة 18/ 4.
(2) القصيدة 18/ 39.
(3) القصيدة 18/ 44.
(4) القصيدة 18/ 43.
(5) القصيدة 18/ 31.

تمثّل قوله تعالى: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1]، أو قولـه جلّ وعلا: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2]، إذ قال[3]:

مِـنْ أَهْـلِ بَـيْـتٍ، هُـمُ لـلّـهِ خـالِـصَـةٌ قَدْ صَعَّدوا بزِمامِ الأَمْرِ، وانْحَدَروا

أو لعلّه قد تمثّل قول النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم: «من سرّه أن يذهب كثير من وَحَر صدره، فليصمْ شهر الصبر وثلاثة أيّام من كلّ شهر»[4]، إذ قال[5]:

سائِلْهُمُ حَيْثُ يُبْدي اللّهُ عَوْرَتَهُمْ هَلْ في صُدورِهِمُ مِنْ ظُلْمِنا وَحَرُ

وهذه المعاني الإسلاميّة التي نلمحها في تلك الرائيّة شاعت أيضاً في قصائده الأخرى، فنحن نجد لديه عدداً من مُثُل الإسلام وقيمه، تبرز بوضوح في أكثر موضوعات شعره. وقد رأينا ذلك في حديثنا عن أغراضه الشعريّة أنّ ابن أحمر قد استمدّ معانيه من إسلامه وجاهليّته أو من بداوته وحضارته، وظلّ وثيق الصلة ببيئته، فلم يبعد كثيراً عن مظاهرها، وإنّما كان ينقل صور هذه البيئة ومشاهدها نقلاً أميناً، فلا يُبالغ في هذه المعاني، ولا يُسرف.

وإذا كان ابن أحمر قد أتى بشيء من غريب المعاني ونادره، فإنّ هذا لم يكن ليبلغ حدّ الغموض، لأنّه كان يستجيب لواقعه وطبعه من غير غلوّ ولا مبالغة. وهذا ما سيتّضح أيضاً في دراستنا خصائصه اللفظيّة.

---

(1) سورة الصافّات 37/ 40 و74 و128 و160 و169.

(2) سورة يونس 10/ 22، وسورة العنكبوت 29/ 65، وسورة لقمان 31/ 32، وانظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم 238.

(3) القصيدة 18/ 37.

(4) رواه أحمد بن حنبل في مسنده. انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبويّ 7 160 وما بعدها.

(5) القصيدة 18/ 52. وما أثبتّه هنا رواية ابن السِّكِّيت في شرحه ديوان النابغة الذبيانيّ 50، ورواية تهذيب اللغة 5/ 227، واللسان، والتاج (وحر).

2 ـ الخصائص اللفظيّة :

إنّ يد الدهر عدت على شعر ابن أحمر، فلم يبق منه سوى نُثار، حاولت أن أنظم عقده في قصائد، فألّفت ما تفرّق منه، وضممت ما تناثر في شتّى المصادر إلاّ أنّ ثمّة فجواتٍ، كانت تجعل بنية القصيدة أجزاءً متفرّقةً وأوصالاً مفكّكةً، فلا نكاد نعرف منهج شاعرنا في بناء قصيدته. ولعلّ خير مثال على فنّه مشوبته التي اختارها أبو زيد القرشيّ في (جمهرته)[1]، فحفظها من يد الحَدَثان، فهي تسير على نسق موروث، سنّه القدماء منذ عهد متقدّم في الجاهليّة، فسار على نهجهم ابن أحمر وسواه من الشعراء، وانصرفت عنايتهم إلى الاهتمام بمطالع قصائدهم، لأنّ «الشعر قُفْل، أوّله مفتاحه»[2]، فلا بدّ أن يكون له وقع حسن، يقرع السمع، ويستدلّ به على ما عندهم من أوّل وهلة. وقد وطّأ لقصيدته هذه بالحسرة على شبابه والشكوى من العيش، ولمح إلى وتر ليس يدركه وإلى حاجة ليس ينساها، فأحسن التمهيد، وأجاد اللمح، ثمّ أخذ يتحدّث عن «حُمُولِ الحَيِّ قَدْ بَكَروا»[3]، ورسم صورة بقرة وحشيّة، يتربّص بابنها ذئب لَحِم، ينقضّ عليه، فلا يدعه إلاّ أشلاء ممزّقةً، وكأنّه يرمز بأسلوب مؤثّر إلى قبيلته التي وقعت فريسة عمّال الدولة وسُعاتها، فيحرص على أن يوفّر لمقدّمة قصيدته أغراضها الموضوعيّة ومقوّماتها الفنّيّة، ويلخّص الموقف تلخيصاً دقيقاً ومؤثّراً، ثمّ يمضي في عرض موضوعه، فيجعل ناقته تخُبّ في طريق محفوفة بالمهالك والمخاطر، وتسعى إلى «يَحْيى غِياثِ النَّاسِ والعُصُرِ»[4]، ثمّ يخرج إلى موضوعه خروجاً بارعاً بنداء صراح واستغاثة صارخة، ويقول[5] :

(1) جمهرة أشعار العرب (ط. البجاويّ) 107 و(ط. صادر) 81.
(2) العمدة 1/ 218.
(3) القصيدة 18/ 6.
(4) القصيدة 18/ 26.
(5) القصيدة 18/ 27 ـ 30.

يا يَحْيَ، يا بْنَ إِمامِ النَّاسِ، أَهْلَكَنا ضَرْبُ الجُلودِ وعُسْرُ المالِ والحَسَرُ
إِنْ قُمْتَ ـ يا بْنَ أَبي العاصي ـ بحاجَتِنا فما لِحاجَتِنا وِرْدٌ ولا صَدَرُ
ما تَرْضَ نَرْضَ، وإِنْ كَلَّفْتَنا شَطَطاً وما كَرِهْتَ، فكُرْهٌ عِنْدَنا قَذَرُ
نَحْنُ الَّذينَ إِذا ما شِئْتَ أَسْمَعَنا داعٍ، فجِئْنا لِأَيِّ الأَمْرِ نَأْتَمِرُ

وبعد هذا المدح الوجيز يخلص إلى الشكوى من المظالم والاحتجاج على السُّعاة والوعيد بالثأر، وإذا فرغ من تصوير نقمته، راح يصوّر عشيرته، وقد أخذها هؤلاء السعاة بظلمهم شرّ مأخذ، لا يرعون لها حرمةً ولا دِيناً.

فالقصيدة هذه تساير المنهج القديم للشعر، فقد أجاد مبدأها ومخرجها ومنتهاها كما أحسن التعبير عن موضوعه من خلال التصوير الرمزيّ والمباشر، وربّما كانت هذه القصيدة خير مثال على فنّه، لأنّنا لا نقع له على قصيدة كاملة سواها، وإذا كان كثير ممّا جمعناه من شعره لا يكاد يظهر بنية القصيدة لديه، وجدنا أنّ من حقّ البحث علينا أن نتريّث في أحكامنا قليلاً، ونقف عند تلك القصيدة فحسب، فلا نتجاوزها إلى متفرّق من الأبيات، لا ندري إن كانت مقطّعات، أو كانت قصائد قصاراً أو طوالاً.

وإذا كنّا نرى أنّ بنية القصيدة لديه لم تكن واضحة المعالم، فإنّ ثمّة خصائص أخرى، ميّزت شعره، وكان من أبرزها ما ارتجله من ألفاظ، جاء بها غير تابع لأحد ولا متقيّل لأثر، وقد تنبّه ابن جنّيّ على هذه الظاهرة في شعره في باب، سمّاه: (باب ما يسمع من العربيّ الفصيح لا يسمع من غيره)، فقال فيه: «ذلك ما جاء به ابن أحمر في تلك الحروف المحفوظة عنه، قال أحمد بن يحيى: حدّثني بعض أصحابي عن الأصمعيّ أنّه ذكر حروفاً من الغريب، فقال: لا أعلم أحداً، أتى بها إلاّ ابن أحمر»[1]، ثمّ أورد ابن جنّي ما رواه الأصمعيّ من

(1) الخصائص 2/ 21.

هذه الألفاظ وما أنشده من أبياتها، ثمّ قال: «القول في هذه الكَلِم المقدَّم ذكرها وجوب قبولها، وذلك لما ثبتت به الشهادة من فصاحة ابن أحمر، فإمّا أن يكون شيئاً، أخذه عمّن ينطق بلغة قديمة، لم يُشارَك في سماع ذلك منه، على حدّ ما قلناه فيمن خالف الجماعة ـ وهو فصيح ـ كقوله[1] في الذُّرَحْرَح: الذُّرَّحْرَح ونحو ذلك، وإمّا أن يكون شيئاً، ارتجله ابن أحمر، فإنّ الأعرابيّ إذا قويت فصاحته، وسمت طبيعته، تصرّف، وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به، فقد حُكي عن رؤبة وأبيه أنّهما كانا يرتجلان ألفاظاً، لم يسمعاها، ولا سُبقا إليها، وعلى نحو ما قال أبو عثمان[2]: ما قيس على كلام العرب، فهو من كلام العرب»[3].

فابن جنّيّ لا يرى ضيراً في ارتجاله ما دام أهل اللغة قد شهدوا له بفصاحة الكلام وصحّته، ونوّه بهذا الآمديّ، فقال: «ابن أحمر: الشاعر الفصيح»[4]، ووجده ابن سلاّم[5] والمَرْزُبانيّ[6] «صحيح الكلام»، فاستشهدوا جميعاً على اللغة بشعره حتّى لا يكاد مصدر من مصادرها يخلو من شعر له.

وما ارتجله ابن أحمر من الألفاظ روى أغلبه أيضاً ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) وابن عبدربّه في (العقد الفريد) وحمزة الأصفهانيّ في (التنبيه على حدوث التصحيف)، وذكروا معاً أنّه «أتى في شعره بأربعة ألفـاظ، لا تُعرف في كلام العرب»[7] وهي (مامُوسة) و(بابُوس) و(بَنَّسَ) و(الأُرْنَة)، ثمّ أشارت

(1) لعلّ الضمير في عبارة ابن جنّي «كقوله» غير عائد على ابن أحمر، لأنّنا لم نقع على هذا الحرف فيما وصلنا من أشعاره.

(2) يريد: أبا عثمان بكر بن بكر بن عثمان المازنيّ (ت 249 هـ).

(3) الخصائص 2/ 24.

(4) المؤتلف والمختلف 44، وعنه في خزانة الأدب 3/ 38، وشرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 135، وانظر: من سمّي من الشعراء عمراً 56.

(5) طبقات فحول الشعراء 580، وعنه في شرح أبيات المغني للبغداديّ 2/ 134.

(6) معجم الشعراء 24، وعنه في الإصابة 3/ 112.

(7) الشعر والشعراء 357، والعقد الفريد 5/ 361، والتنبيه على حـدوث التصحيف (ط. طلس) 104 و(ط. آل ياسين) 167، وانظر: المعاني الكبير 658.

المعجمات إلى بعض ألفاظه، فوجدنا أنّ ابن أحمر قد جاء بغير تلك الأربعة ممّا لا يعرف في كلامهم.

وأمّا الألفاظ التي رواها ابن جنّيّ عن الأصمعيّ، فمنها (الجَبْر) في قوله[1]:

واسْلَمْ براووقٍ حُبِيْتَ بِهِ وانْعَمْ صَباحاً، أَيُّها الجَبْرُ

واختلف علماء اللغة في شرح هذه الكلمة من البيت، فقال الأصمعيّ: «الجَبْر، وهو المَلِك، وإنّما سمّي بذلك ـ أظنّ ـ لأنّه يجبُر بجوده، وهو قوله: واسْلَمْ... (البيت)»[2]، وقال الزَّبيديّ: «الجَبْر: المَلِك، قال: ولا أعرف ممّ اشتقّ إلاّ أنّ ابن جنّيّ قال: سُمّي بذلك، لأنّه يجبر بجوده، وليس بقويّ، قال ابن أحمر: واسْلَمْ... (البيت)، قال: ولم يُسمع بالجَبْر المَلِك إلاّ في شعر ابن أحمر، قال: حكى ذلك ابن جنّيّ، قال: وله في شعر ابن أحمر نظائر كلّها مذكور في مواضعه. وفي التهذيب: عن أبي عمرو: يُقال للمَلِك: جَبْر، والجَبْر: العبد»، و«قال أبو عمرو: الجَبْر: الرجل، وأنشد قول ابن أحمر: واسْلَمْ... (البيت)، أيّها الرجل، والجَبْر أيضاً: الشجاع، وإن لم يكن مَلِكاً»، و«الجَبْر: الغلام، وبه فسّر بعضٌ قول ابن أحمر»[3]، وقال الأنباريّ: «يقال: جَبْر للملك، وجَبْر للعبد»[4]، فغدت هذه الكلمة تطلق على الرفيع والوضيع وعلى الحرّ والعبد من الناس.

(1) القصيدة 20/ 25.

(2) الخصائص 2/ 21.

(3) التاج (جبر)، وبعض هذا الخلاف في اللسان (جبر)، وانظر: الاشتقاق 259 و439، وجمهرة اللغة 1/ 208، وتهذيب اللغة 11، والصاهل والشاحج 532، والتكملة 2/ 440، والتاج (جبريل).

(4) الأضداد 395، وانظر: الأضداد للصَّغَانيّ 226، وهو ذيل (ثلاثة كتب في الأضداد) للأصمعيّ والسِّجِسْتانيّ وابن السِّكِّيت.

ومنها أيضاً (رَنَوْنَاة) في قوله[1]:

بَـنَّـتْ عَـلَـيْـهِ الـمُـلْـكَ أَطْـنـابَـهـا كَـأْسٌ رَنَـوْنَـاةٌ وطِـرْفٌ طِـمِـرْ

وشرح الأصمعيّ هذا الحرف من غريب ابن أحمر، فقال: «قوله: كَأْسٌ رَنَوْناةٌ، أي: دائمة، وذلك قوله: بَنَّتْ... (البيت)»[2]، وقال ابن منظور: «أراد: مدّتْ كأسٌ رَنَوْناةٌ عليه أطناب المُلْك، فذكر المُلْك، ثمّ ذكر أطنابه، قال ابن سيده: ولم نسمع بالرَّنَوْناة إلاّ في شعر ابن أحمر»[3].

ومنها (الدَّيْدَبُون) في قوله[4]:

خَـلُّـوا طَـريـقَ الـدَّيْـدَبُـونِ، فـقَـدْ وَلّـى الـصِّـبـا، وتَـفـاوَتَ الـنَّـجْـرُ

وقال ابن منظور في شرحه: «الدَّيْدَبون: اللهو، ويقال: الدَّيْدَبون هنا: الباطل»[5]، وأمّا الأصمعيّ فلم يشرحه.

ومنها (مارِيَّة) و(بَنَّسَ) في قوله[6]:

مـارِيَّـةٌ لُـؤْلُـؤَانُ الَّـلـوْنِ أَوَّدَهـا طَـلٌّ، وبَـنَّـسَ عَـنْـهـا فَـرْقَـدٌ خَـصِـرُ

وقال الأصمعيّ في معنى اللفظة الأولى من غير أن ينشد البيت: «مارِيَّة، أي: لؤلؤيّة، لونها لون اللؤلؤ»[7]، وقال ابن قتيبة في معنى اللفظة الأخرى: «في بيت آخر يذكر فيه البقرة: مارِيَّةٌ... (البيت)، أي: تأخّر، ولا يُعرف

(1) القصيدة 35/ 9.
(2) الخصائص 2/ 22، وانظر: شرح ديوان العجّاج للأصمعيّ 1/ 282.
(3) اللسان (رنا).
(4) القصيدة 20/ 24.
(5) اللسان (دبن)، وانظر: (ددن) منه.
(6) القصيدة 18/ 8.
(7) الخصائص 2/ 22، وانظر: التاج (مري).

التَّبْنيس»[1]، وقال الأزهريّ: «قال شَمِر: لم أسمع بَنَّس إذا تأخّر إلاّ لابن أحمر»[2].

ومنها (البابوس) في قوله[3]:

حَنَّتْ قَلوصي إِلى بابوسِها جَزَعاً فما حَنينُكَ أَمْ ما أَنْتَ والذِّكَرُ

واختُلف في شرحه، فقال الأصمعيّ: «قوله: البابوس ـ وهو أعجميّ ـ يعني ولد ناقته، وذلك قوله: حَنَّتْ... (البيت)»[4]، وقال ابن قتيبة: «سمّى حُوار الناقة بابوساً، ولا يُعرف ذلك، فقال: حَنَّتْ... (البيت)[5]، وقال اليمان بن أبي اليمان: وهو الوطن، ويقال: الولد، قال ابن أحمر: حَنَّتْ... (البيت)[6]، وقال السيوطيّ: «البابوس: الصبيّ، ولم يذكره إلاّ ابن أحمر في شعره»[7]، وقال ابن منظور: «قال الأصمعيّ: لم نسمع به لغير الإنسان إلاّ في شعر ابن أحمر»، و«قيل: هو اسم الرضيع من أيّ نوع كان، واختُلف في عربيّته»[8].

ومنها (الرُّبّان) في قوله[9]:

وإِنَّما العَيْشُ بِرُبَّانِهِ وأَنْتَ مِنْ أَفْنانِهِ مُقْتَفِرْ

(1) الشعر والشعراء 358، ومثله في العقد الفريد 5/ 361، وانظر: المعاني الكبير 658، والتنبيه على حدوث التصحيف (ط. طلس) 104 و(ط. آل ياسين) 167.
(2) تهذيب اللغة 13/ 12، ومثله في اللسان، والتاج (بنس).
(3) القصيدة 18/ 23.
(4) الخصائص 2/ 22.
(5) الشعر والشعراء 357، ومثله في العقد الفريد 5/ 361، وانظر: المعاني الكبير 658، والتنبيه على حدوث التصحيف (ط. طلس) 104 و(ط. آل ياسين) 167.
(6) التقفية 467.
(7) المزهر 2/ 124.
(8) اللسان (ببس).
(9) القصيدة 35/ 2.

وقال الأصمعيّ في شرحه: «الرُّبّان، وهو العيش، وذلك في قوله: وإِنَّما... (البيت)»[1].

ومنها (المَأْنوسة) بالنون، أو (المَأْموسة) بالميم في قوله[2]:

تَطايَحَ الطَّلُّ مِنْ أَزْدافِها صُعُداً كما تَطايَحَ مِنْ ماموسَةَ الشَّرَرُ

واختُلف العلماء في روايته، فأورده ابن جنّيّ وابن منظور والزَّبيديّ: «مَأْنوسة» بالنون[3]، وأورده ابن قتيبة وحمزة الأصفهانيّ: «مَأْموسة» بالميم[4]، وأورده آخرون: «ماموسة» بتخفيف الهمز[5] إلاّ أنّهم اتّفقوا جميعاً على معنى هذا اللفظ، فقال الأصمعيّ: «المَأْنوسة، وهي النار، وذلك قوله: تَطايَحَ... (البيت)[6]، وقال ابن قتيبة: «سمّى النار ماموسة، ولا يُعرف ذلك، قال: تَطايَحَ... (البيت)»[7].

ومنها (الحَيْرَم) الذي رواه ابن جنّيّ عن الأصمعيّ من غير بيت لابن أحمر، فقال: «قال أبو العبّاس أحمد بن يحيى: أخبرنا أبو نصر عن الأصمعيّ، قال: من قول ابن أحمر: الحَيْرم ـ وهو البقر ـ ما جاء به غيره»[8]، وإذا ما سألنا

(1) الخصائص 2/ 23، وانظر: اللسان، والتاج (ربب).
(2) القصيدة 18/ 17.
(3) الخصائص 2/ 23، واللسان، والتاج (أنس)، والأزهريّ نوّه بهذه الرواية، فقال: «رواه بعضهم: عن مَأْنوسةَ الشَّرَرِ» تهذيب اللغة 12/ 325.
(4) المعاني الكبير 432، والتنبيه على حدوث التصحيف (ط. طلس) 104، والتاج (أمس).
(5) الشعر والشعراء 357، والمعاني الكبير 658، والنبات 163، وجمهرة أشعار العرب (ط. صادر) 302 و(ط. البجاويّ) 846، والعقد الفريد 5/ 361، والتنبيه على حدوث التصحيف (ط. آل ياسين) 167، وتهذيب اللغة 12/ 325، والمخصّص 11/ 38، واللسان (زبر) و(ممس)، والتاج (ممس)، والصَّغَانيّ نوّه بأنّ «الذي في شعره: عَنْ أَعْطافِها، وفي الماموسة» التاج (ممس).
(6) الخصائص 2/ 23.
(7) الشعر والشعراء 357، ومثله في العقد الفريد 5/ 361، وانظر: المعاني الكبير 658، والتنبيه على حدوث التصحيف (ط. طلس) 104 و(ط. آل ياسين) 167، والتاج (أمس) و(أنس).
(8) الخصائص 2/ 23.

شعره عن قوله في (الحَيْرم)، لم نقع فيما جمعناه من شتّى المصادر إلاّ على شطر، اضطربت نسبته بينه وبين عمرو بن مَعْدي كَرِب الزُّبيديّ، وهو[1]:

تَـبـدَّلَ أُدْمـاً مِـنْ ظِـبـاءٍ وحَـيْـرَمـا

وقد رأينا في توثيقنا شعر ابن أحمر أنّ كِفّة هذا الشطر قد مالت بنا إلى الزُّبيديّ، إذ جاء ابن مَعْدي كَرِب بهذا اللفظ تابعاً ابن أحمر فيه ومتقيّلاً أثره، فظلّ في ذمّة الدّهر قول شاعرنا في هذا الحرف من حروفه النادرة.

هذا ما أورده الأصمعيّ من ألفاظ ابن أحمر، وأمّا ما أورده ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) وحمزة الأصفهانيّ في (التنبيه على حدوث التصحيف) وابن عبدربّه في (العقد الفريد)، فقد كان أربعة ألفاظ، تفرّدوا برواية واحد منها، وهو (الأُرْنَة)[2] في قوله[3]:

وتَـقَـنَّـعَ الـحِـرْبـاءُ أُرْنَـتَـهُ مُـتَـشـاوِسـاً لـوَريـدِهِ نَـقْـرُ

واختلف في شرحه، فقال ابن قتيبة: «قال: وتَقَنَّعَ... (البيت)، قال: الأُرْنة: ما لُفّ على الرأس، ولا يُعرف ذلك في غير شعره»[4]، وقال ابن منظور: «قيل: يعني السراب والشمس، عن ابن الأعرابيّ، وقال ثعلب: يعني شعر رأسه»، وقال: «الجوهريّ: وأُرْنَة الحِرباء بالضمّ: موضعه من العُود، إذا انتصب عليه، وأنشد بيت ابن أحمر: وَتَقَنَّعَ... (البيت)، وكنّى بالأرنة عن السراب، لأنّه أبيض، ويروى: أُرْبَتَه بالباء، وأُرْبته: قِلادته، وأراد سَلْخه، لأنّ

(1) القطعة 27/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).

(2) قال ابن منظور: «في التهذيب: وتقنّع الحرباء أرتته بتاءين، قال: وهي الشعرات التي في رأسه.. ويروى: أربته بالباء» اللسان (أرن)، ورواه حمزة الأصفهانيّ: «أربته» بالباء. انظر: التنبيه على حدوث التصحيف (ط. طلس) 104 و(ط. آل ياسين) 168، وأمّا مصادر البيت الأخرى، فقد روته بالنون.

(3) القصيدة 20/ 3.

(4) الشعر والشعراء 358، وانظر: المعاني الكبير 658، والعقد الفريد 5/ 362.

الحرباء يُسْلَخ، كما يسلخ الحيّة، فإذا سُلِخ بقي في عنقه منه شيء، كأنّه قِلادة، وقيل: الأُرْنة: ما لفّ على الرأس»[1].

ويتفرّد ابن قتيبة في (المعاني الكبير) برواية لفظ آخر، يذكره من غير بيت لابن أحمر فيه، ويقول: «في شعر ابن أحمر ألفاظ، لم يُسمع بها إلاّ في شعره»، ويذكر منها: «تسميته السمّ الجَوْزَل»[2]، وإذا ما سألنا شعره عن قوله في (الجَوْزَل)، لم نقع عليه فيما جمعناه من شتّى المصادر، فربّما ظلّ قول ابن أحمر في ذمّة الدهر، ولابن مقبل بيت في الجوزل، يقول[3]:

إذا المُلْوِياتُ بالمُسوحِ لَقِينَها سَقَتْهُنَّ كَأْساً مِنْ ذُعافٍ وجَوْزَلا[4]

وقال الجوهريّ في شرحه: «الجَوْزَل: السمّ، قال أبو عبيدة: لم يُسمع ذلك إلاّ في قول ابن مقبل، يصف ناقةً: إذا المُلْوِياتُ... (البيت)»[5]، فلعلّ ابن مقبل قد تبع فيه ابن أحمر، أو لعلّ وهماً وقع في (المعاني الكبير) من ابن قتيبة أو من النسّاخ، لأنّ هذين الشاعرين مخضرمان، فلا ندري من تقيّل أثر الآخر في ذلك اللفظ.

وأمّا ما تفرّدت المعجمات بروايته من ألفاظ ابن أحمر، فمنه كلمة (زَوْبَر) في قوله[6]:

---

(1) اللسان (أرن)، وانظر: مجمل اللغة 93، ومقاييس اللغة 1/ 87، والصحاح 2070، والتكملة 6/ 185، والتاج (أرن).

(2) المعاني الكبير 658.

(3) ديوان ابن مقبل 210.

(4) الملويات بالمسوح: النوق التي تطير مسوحها من نشاطها، والمسوح: جمع مِسْح، وهو غطاء من الشعر، يلقى على ظهر الدابة، والملويات: من ألوى به، إذا ذهب به. والذعاف: السمّ القاتل.

(5) الصحاح 1655.

(6) القصيدة 28.

وإِنْ قالَ غاوٍ مِنْ تَنوخَ قَصيدَةً بِها جَرَبٌ، عُدَّتْ عَلَيَّ بزَوْبَرا

وقد اختُلف في شرحه، فقال ابن برّيّ: «اسم علم للكلبة مؤنّث، ولم يُسمع بزَوْبَر هذا الاسم إلاّ في شعره»[1]، وقال التَّبْريزيّ: «قوله: بزَوْبَرا، قال: يجوز فيه عندي أن يكون (زَوْبَرا) اسماً معرفةً مؤنّثاً، وجعله اسماً لأخذ جميع الشيء»، و«قد قيل فيه: إنّه يريد الداهية، ويكون تقدير الكلام: عدّت عليّ بداهية فعلتها وأمر قبيح، ويكون (زَوْبَرا) اسماً للداهية معرفةً»[2].

ومنه أيضاً كلمة (القَفُّور) في قوله[3]:

تَرْعى القَطاةُ الخِمْسَ قَفُّورَها ثُمَّ تَعُرُّ الماءَ فيمَنْ يَعُرّ

وقال ابن فارس في شرحه: «القَفّور في قول ابن أحمر نبت»[4]، وقال ابن سيده أيضاً: «القَفّور: ما يوجد في القَفْر، ولم يسمع القَفّور في كلام العرب إلاّ في شعر ابن أحمر»[5].

وأمثال هذه الألفاظ النادرة تُسمع من الأعرابيّ الفصيح، فتقبل منه، لأنّ «الأعرابيّ إذا قويت فصاحته، وسمت طبيعته، تصرّف، وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به»[6]، ولعلّ ابن أحمر كان قدوةً للعجّاج وابنه رؤبة في هذا الارتجال، وربّما كان قدوةً لابن مقبل، فقد ذكر الرواة لهؤلاء الشعراء حروفاً، لم تسمع إلاّ في أشعارهم.

إنّ هؤلاء الشعراء الأعراب جميعاً قد امتكلوا ناصية اللغة، فكانوا يولّدون

(1) التنبيه والإيضاح 2/ 127، وعنه في التاج (زبر).
(2) كنز الحفّاظ 504، وانظر: خزانة الأدب 1/ 71.
(3) القصيدة 35/ 27.
(4) مجمل اللغة 762.
(5) المحكم 1/ 42، ومثله في كنز الحفّاظ 564، واللسان، والتاج (عرر).
(6) الخصائص 2/ 25.

فيها ألفاظاً نادرةً، لا يدفعها كلام العرب، ولا يأباها القياس عليه، وذلك أنّها تجيء عن فصاحة، وتصدر عن طبع وأصالة، لا شكّ فيهما»، فـ «لو جاء شيء من ذلك عن ظنين أو متّهم أو من لم ترق به فصاحته، ولا سبقت إلى الأنفس ثقته كان مردوداً غير متقبّل»[1].

فابن أحمر ومن تقيّله من هؤلاء الشعراء رفدوا اللغة بألفاظ نادرة، لم تُسمع إلاّ في أشعارهم، ولم تُقبل إلاّ من أمثالهم، وذلك لما ثبتت به الشهادة من فصاحة كلامهم وصحّته. ولا شكّ في أنّ ثمّة ولوعاً بالغريب من الألفاظ، يستتر وراء ارتجالهم ألفاظاً، لا تعرف إلاّ في كلامهم، وهؤلاء الشعراء يجعلهم الرواة والعلماء من أصحاب الغريب، بل يصنّفونهم على درجات، وينقل أبو أحمد العسكريّ بسنده عن الأصمعيّ أنّه قال: «تقول الرواة والعلماء: من أراد الغريب، فعليه بشعر هُذَيل ورجز رؤبة والعجّاج، وهؤلاء يجتمع في شعرهم الغريب، ومن أراد الغريب في الشعر المحدث، ففي أشعار ذي الرمّة، ومن أراد الغريب الشديد الثقة، ففي شعر ابن مقبل وابن أحمر وحُميد بن ثور الهلاليّ والراعيّ ومزاحم العُقَيليّ»[2].

وأمّا ابن أحمر، فقد وجده ابن سلاّم في (طبقاته)[3] والمَرْزُبانيّ في (معجمه)[4] «كثير الغريب إلاّ أنّ هذه الكثرة في شعره ليست بقَدْر عظيم، يأخذ بوافر نصيب من الغموض، إذا ما قورن مثلاً بأرجاز العجّاج الذي «كان الإغراب من أبرز ما أراده لمدرسة الرجز من خصائص»[5]، فكأنّهم ما كانوا يألفون أن يغرب الشاعر في شيء من معانيه وألفاظه، فيأتي بالوحشيّ من الكلام.

(1) الخصائص 2/ 25.
(2) المصون 169.
(3) طبقات فحول الشعراء 580، وعنه في شرح أبيات المغني 2/ 134.
(4) معجم الشعراء 24، وعنه في الإصابة 3/ 112.
(5) العجّاج: حياته ورجزه 389.

وإذا ما بحثنا عن غريب ألفاظه في كلّ ما جمعناه من شعره، لم نجد ابن أحمر يغرب إلاّ في بعض أوصاف، لا تحتاج ألفاظها إلى كبير عناء من البحث والتنقيب، ومن أمثلة ذلك قوله في وصف الرياح[1]:

أَرَبَّتْ عَلَيْها كُلُّ هَوْجاءَ سَهْوةٍ زَفوفِ التَّوالي رَحْبَةِ المُتَنَسَّمِ
إبَارِيَّةٍ هَوْجاءَ مَوْعِدُها الضُّحى إذا أَزْزَمَتْ جاءَتْ بوِرْدٍ غَشَمْشَمِ
زَفوفٍ نِيافٍ هَيْرَعٍ عَجْرَفِيَّةٍ تَرى البيدَ مِنْ إعْصافِها الجَرْيَ تَرْتَمي
تَحِنُّ، ولَمْ تَرْأَمْ فَصيلاً، وإنْ تَجِدْ فَيافيَ غِيْطانٍ تَهَدَّجْ، وتَرْأَمِ
إذا عَصَّبَتْ رَسْماً، فلَيْسَ بدائِمٍ بِهِ وَتِدٌ إلاّ تَحِلَّةَ مُقْسِمِ

ومثل هذا أيضاً قوله في وصف الخيل[2]:

ولَقَدْ عَذَوْتُ، وأَيَّ أَفْنُنِ دَهْرِهِ يَرْجو الفَتى في العَيْشِ ما لَمْ يَفْتَدِ
بمُقَلِّصٍ دَرْكِ الطَّريدَةِ مَتْنُهُ كصَفا الخَليقَةِ بالفَضاءِ المُلْبِدِ
يَخْدي بأَوْظِفَةٍ شَديدٍ أَسْرُها شُمِّ السَّنابِكِ، لا تَقي بالجَدْجَدِ
إذْ صَبَّحَتْهُ طاوِياً ذا شِرَّةٍ وفُؤَادُهُ زَجِلٌ كعَزْفِ الهُدْهُدِ
ذي مَنْكِبٍ رَهِلٍ وقُصْرى جَأْبَةٍ وصَليفِ أَزْعَنَ يافِعِ المُتَلَدَّدِ
لَحِقَتْ قُصَيراهُ، وسونِدَ صَدْرُهُ وإذا تَدافَعَ خِلْتَهُ لَمْ يُسْنَدِ
حُدِيَتْ بحارِكِهِ قَطاةٌ فَعْمَةٌ في صَنْدَلٍ لَهِزٍ وهادٍ مُوفِدِ

ففي هذه الأمثلة من أوصافه تحتشد ألفاظ غريبة، لا تأخذ من الغرابة نصيباً وافراً، لأنّنا إذا ما بحثنا عن معانيها في كتب اللغة ومعجماتها، اتّضح لنا

(1) القصيدة 49/ 6 ـ 10.
(2) القصيدة 14/ 19 ـ 25.

أنّ ابن أحمر لا يبلغ شأواً بعيداً من الإغراب، وهذه الأمثلة محدودة في شعره، لا يزدحم فيها ذاك الحشد من الغريب الذي نلقاه في أرجاز العجّاج ورؤبة أو في أشعار ابن مقبل وحُميد والراعي ومُزاحم وغيرهم.

وإذا كان المعريّ يجعل ابن القارح يسأل ابن أحمر عن بعض ألفاظه، فإنّ في ذلك ضرباً آخر من الألفاظ، ليس بغريب، وإنّما هو ممّا احتمل عدّة وجوه من المعنى، فاحتاج إلى تدقيق نظر، وربّما أثار شيئاً من الخلاف في شرحه. إنّ ابن القارح يسأل ابن أحمر، فيقول: «أنشدني قولك:

بانَ الشَّبابُ، وأَخْلَفَ العَمْرُ وتَغَيَّرَ الإِخْوانُ والدَّهْرُ

وقد اختلف الناس في تفسير العَمْر، فقيل: إنّك أردت البقاء، وقيل: إنّك أردت الواحد من عُمُور الأسنان، وهو اللحم الذي بينها، فيقول عمرو متمثّلاً:

خُذا وَجْهَ هَرْشى أَوْ قَفاها، فإِنَّهُ كِلا جانِبَيْ هَرْشى لَهُنَّ طَريقُ»[1].

فلفظ «العَمْر» ليس غريباً ولا وحشيّاً، ولكنّ إدراك معناه يحتاج إلى دقّة نظر فيما أراده الشاعر من وجوه معانيه، ولذلك كان هذا اللفظ مثار خلاف أهل اللغة، ويشير ابن دريد إلى طرف من هذا الخلاف، فيقول: «العُمْر والعَمْر واحد، هكذا يقول الأصمعيّ، والعَمْر واحد العُمُور، وهو لحم اللثة المستطيل الذي بين كلّ سنّين، هكذا يقول الأصمعيّ، وكان ينشد لابن أحمر: بانَ الشَّبابُ... (البيت)، ويروى: وأخلف العُمْر، وقالوا: العُمُر أيضاً، وقال غير الأصمعيّ: أراد بقوله: وأخلف العَمْر: خلوف فيه من الكِبَر»[2].

(1) رسالة الغفران 240، وانظر: القصيدة 20/ 1، والقطعة 39/ 1 من (ما أنشد لابن أحمر وليس له).
(2) جمهرة اللغة 2/ 387، وانظر: الاشتقاق 13، وجمهرة اللغة 3/ 427، وتهذيب اللغة 2/ 382، واللسان، والتاج (عمر).

ومثل هذا الخلاف ما نراه في أسئلته الأخرى: «فما أردت بقولك: كشراب قَيْل[1]، الواحد من الأقيال أم قَيْل بن عِتْر من عاد؟ فيقول عمرو: إنّ الوجهين ليُتصوّران، فيقول الشيخ: ممّا يدلّ على أنّ المراد قَيْل بن عِتْر قولك: وجَرادَتانِ تُغَنِّيانِهُمُ[2]، لأنّ الجرادتين ـ فيما قيل ـ مغنّيتان، غنّتا لوفد عاد عند الجُرْهميّ بمكّة، فشُغلوا عن الطواف بالبيت وسؤال اللّه سبحانه وتعالى فيما قصدوا له، فهلكت عاد، وهم سامِدون»[3].

ثمّ يسأله أيضاً، فيقول: «وقولك: ومُسِفَّةٌ دَهْماءُ داجِنَةٌ[4]، ما أردت به؟ وقولك: ومُجَلْجَلٌ دانٍ زَبَرْجَدُهُ؟[5] فيقول ابن أحمر: أمّا الجرادتان، فلا يدلّ على أنّي خصصت قَيْل بن عِتْر، وإن كان في الوفد الذي غنّته الجرادتان، لأنّ العرب صارت تسمّي كلّ قينة جرادةً حملاً على أنّ قينةً في الدهر الأوّل كانت تدعى جرادة... وأمّا المُسِفّة الدَّهْماء، فإنّها القِدْر، وأمّا المُجَلْجَلُ الدَّاني زَبَرْجَدُهُ، فهو العود، وزبرجده ما حُسّن منه، أما تسمع القائل يُسمّي ما تلوّن من السحاب زبرجاً؟[6] ومن روى مُجلجِل بكسر الجيم أراد السحاب»[7]. فالمعريّ يقف على عدّة ألفاظ، يحتمل كلّ منها عدّة معان، ثمّ يشير إلى أنّ ابن القارح

---

(1) من قوله: القصيدة 20/ 16.

كَشَرابِ قَيْلٍ عَنْ مَطِيَّتِهِ ولِكُلِّ أَمْرٍ واقِعٍ قَدْرُ

(2) من قوله: القصيدة 20/ 19.

وجَرادَتانِ تُغَنِّيانِهُمُ وتَلاَّلأَ المَرْجانُ والشَّذْرُ

(3) رسالة الغفران 243. وسامدون: حائرون مبهوتون.

(4) من قوله: القصيدة 20/ 18.

ومُسِفَّةٍ دَهْماءُ داجِنَةٌ رَكَدَتْ وأُسْبِلَ دونَها السِّتْرُ

(5) من قوله: القصيدة 20/ 20.

ومُجَلْجَلٌ دانٍ زَبَرْجَدُهُ حَدِبٌ كما يَتَحَدَّبُ الدَّبْرُ

(6) الزبرج: السحاب الرقيق، فيه حمرة، والزينة من وَشْي وغيره.

(7) رسالة الغفران 244.

«يذكر له أشياء من شعره، فيجده عن الجواب مستعجماً، إن نطق نطق مُحْجِماً»[1].

وإذا ما بحثنا عن أشياء أخرى في شعره، لم نجد ذلك واسعاً في أبياته، ومن أمثلته ما قاله في وصف درّة[2]:

رَأَى مِنْ دونِها الغَوّاصِ هَوْلاً هَراكِلَةً وحيتاناً ونُونا

واختُلف في شرحه، فأجمله الزَّبيديّ، وقال: «الهَراكِلَة: ضخام السمك وبه فُسّر قول ابن أحمر، يصف درّةً: رَأَى مِنْ دونِها... (البيت)، أو كلاب الماء وبه فُسّر البيت أيضاً كما في التهذيب، أو جِماله وبه فُسّر البيت أيضاً كما في العُباب، ويقال: هَرَاكِلَة، أي: الضخام الأعجاز من دواب البحر كما في العُباب، وقيل: مجتمع أمواج البحر، ونصّ الصحاح: والهَراكِلَة من أمواج البحر حيث تكثر فيه الأمواج، ووهم الجوهريّ في تفسير بيت ابن أحمر السابق بهذا المعنى، ونقله الصَّغَانيّ أيضاً وكذا غيرهما من الأئمة. والبيت محتمل للمعاني كلّها، ومثل هذا لا يكون وهماً»[3]، وقال الصَّغَانيّ: «الصحيح أنّ الهَراكِلَة ضخام السمك، ويقال: كلاب الماء، ويقال: جِماله»[4]. وما هذا الاختلاف إلاّ لأنّ الكلمة تحتمل عدّة معانٍ، ولعلّ الصَّغَانيّ كان دقيق النظر حين وقع على الصحيح منها، ومثل هذه الأمثلة حاولنا أن نقف عليها في شرح أشعاره، فرأينا أنّه قد استعمل ألفاظاً غير واضحة الدلالة، فكانت مثار خلاف بين العلماء والشرّاح.

وربّما اتّجه ابن أحمر إلى ضرب ثالث من الإغراب، وهو استعمال بعض

(1) رسالة الغفران 246.

(2) القصيدة 58/ 21.

(3) التاج (ركل).

(4) التكملة 5/ 554، وانظر: تهذيب اللغة 6/ 507، والصحاح 1849.

الألفاظ الأعجميّة، ويبدو أنّ هذا الأسلوب غدا ظاهرةً عند الشعراء، وجد فيها ابن رشيق شيئاً من التطرّف، فقال: «للشعراء ألفاظ معروفة وأمثلة مألوفة، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها كما أنّ الكتّاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها، سمّوها الكتابيّة، لا يتجاوزونها إلى سواها إلاّ أن يريد شاعر أن يتظرّف باستعمال لفظ أعجميّ، فيستعمله في النُّدْرة وعلى سبيل الخَطْرَة كما فعل الأعشى قديماً وأبو نُواس حديثاً، فلا بأس بذلك»[1].

ومن أمثلة ذلك كلمة (اليَرَنْدَج) في قوله[2]:

لَمْ تَدْرِ ما نَسْجُ اليَرَنْدَجِ قَبْلَها ودِراسُ أَعْوَصَ دارِسٍ مُتَخَدِّدِ

وقال الخليل في شرحه: «الأَرَنْدَج: دخيل، وهو الأديم الأسود، قال العجّاج[3]:

كَأَنَّهُ مُسَرْوَلٌ أَرَنْدَجا

وقال بعضهم: اليَرَنْدَج، وهو كلّ ما مُلّس وصُقل ومُوّه كالثوب يُطرّى بعد خُلوقه، قال ابن أحمر: تَمْ تَدْرِ... (البيت)»[4]، وقال العسكريّ أيضاً: «ظنّ أنّ اليَرَنْدَج ممّا يُنسج، واليَرَنْدَج جلد أسود، تُعمل منه الخِفاف، فارسيّ معرّب، وأصله رَنْدَهْ»[5].

ومنها أيضاً كلمة (البابُوس) في قوله[6]:

حَنَّتْ قَلوصي إِلى بابوسِها جَزَعاً فما حَنينُكَ أَمْ ما أَنْتَ والذِّكَرُ

(1) العمدة 1/ 128.
(2) القصيدة 14/ 18.
(3) ديوان العجّاج 2 / 21. وقال الأصمعيّ في شرحه: «الأَرَنْدَج: جلود يعمل منها الخِفاف، يقال لها: «يَرَنْدَج، وهو أعجميّ، قد عرّب».
(4) العين 6/ 204.
(5) الصناعتين 79، وانظر: ديوان الشمّاخ 83، وجمهرة اللغة 3 / 54، والمعاني الكبير 2/ 736.
(6) القصيدة 18/ 23.

وقال الأصمعيّ في شرحه: «قوله: البابوس ـ وهو أعجميّ ـ يعني ولد ناقته، وذلك قوله: حَنَّتْ... (البيت)»[1]، وقال أبو المرشد المعرّيّ: «البابوس ليس من كلام العرب، وإنّما هو منقول من لسان الروم»[2]، وقال ابن منظور: «قال الأصمعيّ: لم نسمع به لغير الإنسان إلاّ في شعر ابن أحمر»، و«قيل: هو اسم الرضيع من أيّ نوع كان، واختُلف في عربيّته»[3].

ومنها كلمة (الماموسة) في قوله[4]:

تَطايَحَ الطَّلُّ عَنْ أَرْدافِها صُعُداً كما تَطايَحَ مِنْ مامُوسَةَ الشَّرَرُ

وقال ابن منظور في شرحه: «قيل: أراد بماموسة النارَ، وقيل: هي النار بالروميّة»[5].

ومنها كلمة (الناطور) في قوله[6]:

وبُسْتانِ ذي ثَوْرَيْنِ لا لينَ عِنْدَهُ إذا ما طَغى ناطورُهُ، وتَغَشْمَرا

وقال الزَّمَخْشَريّ في شرحه: «قال ابن دريد: هو بالظاء من النظر، ولكنّ النَّبَط يقلبون الظاء طاءً»[7]، وقال ابن منظور: «الناطور من كلام أهل السواد: حافظ الزرع والتمر والكروم، قال بعضهم: وليست بعربيّة محضة، وقال أبو حنيفة: هي عربيّة»[8].

---

(1) الخصائص 2/ 22.
(2) تفسير أبيات المعاني 184.
(3) اللسان (ببس).
(4) القصيدة 18/ 17.
(5) اللسان (ممس)، ومثله في التاج (ممس).
(6) القصيدة 28/ 14.
(7) أساس البلاغة (نظر).
(8) اللسان (نظر).

ومنها كلمة (الجُؤْذَر) في قوله[1]:

وجـيـدِ أَدْمـاءَ وعَـيْـنـي جُـؤْذَرٍ لَـبَّ بـأَرْضٍ، لَـمْ تَـوَطَّـأْهـا الـغَـنَـمْ

وقال ابن سيده في شرحه: «ابن دريد: الجُؤْذَر فارسيّ معرّب»[2].

ومنها كلمة (البِرْسام) في قوله[3]:

نَـقـائِـذَ بِـرْسـامٍ وحُـمَّـى وحَـصْـبَـةٍ وجـوعٍ وطـاعـونٍ ونَـقْـرٍ ومَـغْـرَمِ

وقال ابن منظور فيه: «البِرْسام: المُوم، ويقال لهذه العلّة البرسام، وكأنّه معرّب»[4].

إنّ هذه الألفاظ الأعجميّة في شعر ابن أحمر لم تأت لمجرّد الإغراب، وإنّما كانت تلبّي غايةً معنويّةً في فنّ الشاعر ونفسه، لأنّ استعمالها كان شائعاً بين العرب الذين أخذوا يعرّبون ما يعترضهم من ألفاظ الحياة الجديدة، ولعلّ شاعرنا في هذا كلّه كان قدوةً للعجّاج وابنه رؤبة وسواهما من شعراء الغريب، فرؤبة مثلاً جاء بكثير من الألفاظ الجديدة تابعاً والده العجّاج ومن سبقه من أمثال ابن أحمر وابن مقبل والراعي وحُميد ومُزاحم وغيرهم حتّى إنّ الدكتور شوقي ضيف قد سمّى أراجيزه «متوناً لغويّةً»، تمدّ الرواة «بكلّ لفظ غريب وكلّ أسلوب شاذّ»[5]، ولكنّ الدكتور ضيف يجعل ابن أحمر معاصراً لرؤبة، ثمّ يجد أنّ ما أتى به رؤبة، يفوق ما جاء به ابن أحمر، ويقول: «إذا كان الرواة يروون عن شاعر معاصر له أنّه أتى بأربعة ألفاظ جديدة لم تكن معروفة في العربيّة، وهو ابن أحمر، فإنّنا نؤمن بأنّ رؤبة أتى بمئات الألفاظ الجديدة في شعره وأراجيزه»[6]،

(1) القصيدة 54/ 2.
(2) المخصّص 8/ 34. والجؤذر: ولد البقرة الوحشيّة.
(3) القصيدة 49/ 28.
(4) اللسان (برسم). والموم: هو الجدريّ الكثير المتراكب، والموم أشدّه.
(5) التطوّر والتجديد 317.
(6) التطوّر والتجديد 320.

وما بين هذين الشاعرين سنون وأيّام، فابن أحمر شاعر مخضرم، لم يمتدّ به العمر إلاّ إلى السنوات الأولى من العصر الأمويّ، فقد انتهينا إلى أنّه مات ما بين (77 و82هـ/ 696 و701م)[1]، وأمّا رؤبة فقد ابتدأ من حيث انتهى شاعرنا الباهليّ، لأنّه كان «من مخضرمي الدولتين، مدح بني أميّة وبني العبّاس، ومات في أيّام المنصور»[2]، فالأحرى أن يكون ابن أحمر قدوةً له ولغيره من شعراء الغريب.

ولا شكّ في أنّ ما جاء به ابن أحمر من الغريب كان معدوداً محدوداً، لا يأخذ إلاّ ببعض ألفاظه وأوصافه، ويحظى بقسط وافر من الغربة، وهذا الغريب كان شديد الثقة لدى العلماء والرواة، لأنّهم كانوا يروون ابن أحمر فصيح الكلام صحيحه، وكانوا يقولون: «من أراد الغريب الشديد الثقة، ففي شعر ابن مقبل وابن أحمر وحُميد بن ثور الهلاليّ والراعي ومُزاحم العُقَيليّ»[3].

ولم تقف الخصائص اللفظيّة لشعر ابن أحمر عند ما أتى به من حروف الغريب، وإنّما تجاوز ذلك إلى خصائص أخرى، فنحن نرى أنّه حافظ على صور من لهجات العرب، وإذا ما بحثنا في أشعاره عن ذلك، وجدنا أنّه حافظ على شيء من لهجة تميم التي جاورت باهلة في نجد، ومن ذلك قوله[4]:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المُجْرِمِيْنَ أَصابَهُمْ صَواقِعُ، لا بَلْ هُنَّ فَوْقَ الصَّواقِعِ

فابن أحمر في هذا البيت أتى بـ «صَواقِع» على لغة بني تميم، وأمّا أهل الحجاز، فقد كانوا يقولون: «صَواعِق»، ويذكر المبرّد ذلك، فيقول: «تقول

(1) انظر: (عوره ووفاته) في الفصل الثاني.
(2) الأغاني 8047، ويذكر الدكتور شوقي ضيف أنّ رؤبة ولد «سنة 65 للهجرة» التطوّر والتجديد 312.
(3) المصون 169.
(4) القصيدة 40/ 1.

العرب: صاعقة وصواعق، وهو مذهب أهل الحجاز، وبه نزل القرآن[1]، وبنو تميم يقولون: صاقِعة وصواقع»[2].

ومنه أيضاً قوله[3]:

وعَبَّرْنَ عَنْ قَرْقِيسِياءَ لعَرْعَرٍ وفُرْضَةِ نُعْمٍ ساءَ ذاكَ مَعَبَّرا

وقوله[4]:

زَعَمَتْ غَنِيَّةُ أَنَّ أَكْثَرَ لِمَّتي شَيْبٌ، وهانَ بذاكَ ما لَمْ تَزْدَدِ

وقوله[5]:

فإِنَّ قَصْرَكُما مِنْ ذاكَ أَنْ تَرَيا وَجْهاً، يَكادُ سَناهُ يَلْمِسُ البَصَرا

فالشاعر في هذه الأبيات جاء أيضاً بلهجة تميميّة أخرى، فقال: «ذاك»، وهو عند الحجازيّين «ذلك»[6]، وابن أحمر يستعمل هذه اللغة أيضاً، فيقول[7]:

وكُنْتُ إِلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ أَصْوَرا

ولا شكّ في أنّ الرواة كانوا يحرّفون كثيراً من تلك اللهجات، فنجد أنّ ثمّة ألفاظاً كثيرةً في شعره قد رويت على وجهين، ومن ذلك قوله[8]:

وما بَيْضاتُ ذي لِبَدٍ هِجَفٍّ سُقِيْنَ بزَاجَلٍ حَتَّى رَوِيْنا

(1) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم 408.
(2) الكامل 3/ 357.
(3) القصيدة 28/ 3.
(4) القصيدة 14/ 2.
(5) القصيدة 30/ 2.
(6) دراسات في فقه اللغة 85.
(7) القصيدة 28/ 31.
(8) القصيدة 58/ 13.

فقد أنشده بعض الرواة «زاجَل»[1] بلا همز، ورواه بعضهم الآخر: «زأجَل»[2] بالهمز، وذكر الأزهريّ أنّه سمعهما معاً في بيت ابن أحمر «بفتح الجيم بغير همز، والهمز فيها لغة»[3]، وقال الزَّبيديّ: «رُوي بالوجهين»[4]، فإذا كان ابن أحمر قد همزه، فإنّه لم يكن يخرج عن لهجته النَّجْديّة، لأنّ تحقيق الهمز صفة، تميّز لهجة بني تميم، ولأنّ أهل الحجاز كانوا يسهّلون ذلك[5].

ومنه أيضاً قوله[6]:

تَعْدو بِنا شَطْرَ جَمْعٍ، وَهْيَ عاقِدَةٌ قَدْ كارَبَ العَقْدُ مِنْ إِيْفادِها الحَقَبا

وثمّة روايتان لهذا البيت، إحداهما تقول: «كارب»[7] بالكاف، وهي لهجة حجازيّة، والأخرى تقول: «قارب»[8] بالقاف، وهي لهجة تميميّة، فأهل الحجاز كانوا يفضّلون الكاف على القاف، بينما نجد أنّ بني تميم قد فضّلوا القاف على الكاف، قال أبو عليّ: «يُقال: كَشَطتُ عنه جلده، وقشطت، قال: وقريش تقول: كشطت، وقيس وتميم وأسد تقول: قشطت»[9]. فابن أحمر حفظ لنا شيئاً من سمات لهجة تميم إلاّ أنّه ظلّ يخلد إلى لغة أدبيّة، عرفها شعراء الجاهليّة والإسلام بكلّ ما نعرفه عن هذه اللغة من خصائص لغويّة، وتهيّأ لها

(1) شرح المفضّليّات 809، والبارع 638، والمحكم 4/ 123.
(2) الحيوان 4/ 328 و341، والمعاني الكبير 357، والتقفية 629، وجمهرة اللغة 2/ 91، وديوان الأدب 1/ 359، وتهذيب اللغة 10/ 616، ومجمل اللغة 449، ومقاييس اللغة 3/ 47، والصحاح 1715، والصاهل والشاحج 144، والفصول والغايات 472، والمخصّص 8/ 55، واللسان، والتّاج (زجل) و(هجف).
(3) تهذيب اللغة 10/ 616، وانظر: الصحاح 1715، واللسان، والتاج (زجل).
(4) التاج (زجل).
(5) دراسات في فقه اللغة 77.
(6) القصيدة 8/ 7.
(7) مجاز القرآن 1/ 60، والسيرة النبويّة 2/ 273.
(8) الروض الأنف 2/ 296، وخزانة الأدب 3/ 38.
(9) الأمالي 2/ 140.

عنده فصاحة أعرابيّة وأصالة لغويّة وطبع لا تكلّف فيه ولا تصنّع.

وهذه العناصر التي توفّرت لفنّه كانت تدفعه إلى التصرّف في اللغة، وهو تصرّف أعرابيّ صحيح الكلام فصيح اللغة، يحتجّ علماؤها بأشعاره كثيراً، فلا يفوتهم ما فيها من ظواهر لغويّة، لم تكن لتخرج عمّا يمكن أن نصادفه في أشعار غيره من الشعراء، فهو يستعمل حروفاً في غير معانيها المألوفة، ومن ذلك ما رواه البَطَلْيَوْسيّ[1]:

تَقولُ، وقَدْ عالَيْتُ بالكُورِ فَوْقَها أَيُسْقى، فلا يَرْوَى إِلَيَّ ابْنُ أَحْمَرا

ثمّ قال في شرحه: «وصف أنّه يُتعب ناقته بطول السفر حتّى إنّها لو كانت ممّن يتكلّم لقالت هذه المقالة، والتقدير: يسقى ابن أحمر، فلا يروى منّي، فقدّم، وأخّر، واستعمل (إلى) موضع (من)، وضرب التسقية والريّ مثلين لما يناله بها من المآرب، ويدرك بالسفر عليها من المطالب»[2]، ثمّ أجاز البَطَلْيَوسيّ «أن يكون أراد يُسقى ابن أحمر، فلا يُروى ظمؤه إليّ، فترك ذكر الظمأ لمّا كان المعنى هو ماء»[3]، فعدّى (يُروى) بـ (إلى) حملاً على ضدّها (الظمأ)، لأنّ العرب كثيراً ما تجري الشيء مجرى ضدّه. وإذا ما تتبّعنا ذلك في أشعاره، وجدنا أنّ أهل اللغة قد أشاروا إلى أنّه استخدم (ممّا) بمعنى (ربّما)[4]، و(عن) بمعنى (الباء)[5]، و(أو) بمعنى (واو) النسق[6]، و(لا) بمعنى (لم)[7]، و(الباء) بمعنى (عن)[8].

(1) القصيدة 28/ 22.
(2) الاقتضاب 440، وانظر: أدب الكاتب 402.
(3) الاقتضاب 247.
(4) القصيدة 8/ 11.
(5) القصيدة 28/ 1.
(6) القصيدة 60/ 18.
(7) القصيدة 48/ 29.
(8) القصيدة 30/ 17.

ومن تلك الظواهر أيضاً أنّ ابن أحمر قد يطلق الجمع، وهو يريد المثنّى، وذلك في قوله[1]:

إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَنِي والقَسْرا
مُجَشَّرِيْنَ قَدْ رَعَيْنا شَهْرا

وهذا ليس ببعيد عن استعمالهم المثنّى بدلاً من المفرد أو المفرد بدلاً من المثنّى، وجاوزوا ذلك، فاستعمل الجمع بدلاً من المفرد أو الجمع بدلاً من المثنّى، ولكلّ من هذه الأساليب نظائر في أشعار القدماء، حملت بعض العلماء على إفراد فصول خاصّة بها في بعض مصادرهم[2].

ولم يقف ابن أحمر عند هذه الظواهر، وإنّما اتّجه إلى تصرّفات أخرى، دفعته إليها فصاحته الأعرابيّة حيناً، وربّما اضطرّ إليها حيناً آخر، ومن ذلك ما نجده في أبنيته من ظاهرة الإبدال المعروفة في لغة العرب، فهو يبدّل مثلاً الهاء من الهمزة على لغة تميم[3] التي أخذ منها ـ كما رأينا ـ بأطراف، ويقول في (الهِبْرَقيّ)[4]:

فما أَلْواحُ دُرَّةِ هِبْرِقِيٍّ جَلا عَنْها مُخَتِّمُها الكُنونا

وشرحه ابن منظور، فقال: «الهِبْرِقيّ والهَبْرَقِيّ: الصائغ، ويقال للحدّاد، وقيل: هو كلّ من عالج صنعةً بالنار... وأصله أَبْرَقِيّ، فأبدلت الهاء من الهمزة»[5].

وربّما نجد في أشعاره أمثلةً أخرى على الإبدال، ولكنّ اضطراب روايتها

(1) القصيدة 32/ 1 ـ 2.
(2) انظر: المخصّص 13/ 223 وما بعدها.
(3) دراسات في فقه اللغة 84.
(4) القصيدة 58/ 19.
(5) اللسان (هبرق)، وانظر: التاج (هبرق).

يجعلنا نتريّث في القول، فنحن لا نستطيع أن نقطع بالرواية الأصيلة لمثل قوله[1]:

فـأَزْغَـلَـتْ فـي حَـلْـقِـهِ زُغْـلـةً لَـمْ تُـخْـطِـئِ الـجـيـدَ، ولَـمْ تَـشْـفَـتِـرْ

وذلك لأنّنا نقع على روايتين له، إحداهما «أزغلت «بالزاي، والأخرى «أرغلت «بالراء، ويشير إلى هذا أبو الطيّب اللغويّ، فيقول: «فأَرْغَلتْ في حَلْقِهِ رُغْلةً.. ويقال: أَرْغَلَتْ القَطاةُ فَرْخَها، وأَزْغَلَتْه»[2].

وابن أحمر قد يضطّر إلى تصرّف، يخرج به عن المألوف من الأبنية، فهو يجمع (غِطْريف) أو (غِطْراف) على (غَطارِف) في قوله[3]:

أَبْـلِـغْ سَـراةَ بَـنـي رِفـاعَـةَ أَلْـ ـصِـقْ بـالـغَـطـارِفِ مِـنْـهُـمُ الـزُّهْـرِ

وفي قوله[4]:

غَـطـارِفُ لا يَـصُـدُّ الـضَّـيْـفُ عَـنْـهُـمْ إِذا مـا طَـلَّـقَ الـبَـرَمُ الـعِـيـالا

وكان حقّه أن يجمع على (غَطاريف)، لأنّ كلّ رباعيّ قبل آخره حرف مدّ كعصفور وقِرْطاس وقِنْديل تجمعه على فَعاليل[5] إلاّ أنّ ابن أحمر اضطرّ، فحذف الياء.

وقد يرخّم الاسم في غير النداء، ويقول[6]:

يُـوَرِّقُـنـا أَبـو حَـنَـشٍ وطَـلْـقُ وعَـمَّـارٌ وأَحْـيـانـاً أُثـالا

(1) القصيدة 35/ 34.
(2) الإبدال 2/ 33.
(3) القصيدة 25/ 13.
(4) القصيدة 48/ 26.
(5) الأمالي لابن الشجريّ 1/ 142، وشرح الشافية 2.
(6) القصيدة 48/ 22.

فسيبويه[1] أنشده شاهداً على ترخيم الاسم في الشعر ضرورةً في غير النداء، فذكر أنّه أراد (أُثالة)، فحذف الهاء، وتركه على لفظه، وإن كان في المعنى مرفوعاً، وخالفه المبرّد، فقال: «لا يجوز الترخيم فيما ليس بمنادى، وهو (أُثال) بغير هاء، وهو منصوب، لأنّه عطف على النون والألف في (يُنَعِّمُنا)»[2]، ورأى أبو سعيد السيرافيّ غير ما رآه سيبويه والمبرّد، فقال: «الذي عندي في (أُثال) غير ما قال الفريقان، وهو أنّ (أُثال) لم يحذف منه هاء، لأنّه ليس في الأسماء (أُثالة)، وإنّما هو (أُثال)، ولم ينصبه للعطف على النون والياء في (يُؤَرِّقُني)، لأنّ ابن أحمر يبكي قوماً من عشيرته، ماتوا، أو قتلوا، فيهم أبو حَنَش وطَلْق وعَبَّاد وأُثال، فرفع الأسماء المرفوعة بـ (يُؤَرِّقُني)، فدلّ بـ (يُؤَرِّقُني) على أنّه يتذكّرهم، لأنّهم لا يؤرّقونه إلاّ وهو يذكرهم، فنصب (أُثالا) بـ (أذكر) الذي قد دلّ عليه (يُؤَرِّقُني)، وهذا قول أظنّ الأصمعيّ قاله في تفسير شعره»[3].

وهو يردّ حرف العلّة المحذوف بـ (لم)، فيقول[4]:

تُسائِلُ بابْنِ أَحْمَرَ مَنْ رَآهُ أَعارَتْ عَيْنُهُ، أَمْ لَمْ تَعارا

ويرى ابن عصفور أنّه «اضطرّ، فردّ حرف العلّة المحذوف... والراء من (تَعارا) إنّما حرّكت النون الخفيفة المبدل منها الألف، والأصل: لم تَعْرَنْ»[5].

وربّما اضطرّ ابن أحمر، فخفّف المتحرّك أو المضعّف، فإذا كان ما قبل

(1) الكتاب 2/ 270.
(2) الحور العين 49، و«يُنَعِّمُنا» رواية أخرى لقوله: «يُؤَرِّقُنا».
(3) ضرورة الشعر 86.
(4) القصيدة 32/ 17.
(5) ضرائر الشعر 47، وانظر: التنبيه والإيضاح 2 / 174.

الرويّ في قصيدة ساكناً، اضطرّ، فخفّف مثلاً (عُصُر)، وجعلها (عُصْر) في بيت، رواه ابن منظور[1]:

يَـدْعـونَ جـارَهُـمُ وذِمَّـتَـهُ عَـلَـهـاً، ومـا يَـدْعـونَ مِـنْ عُـصْـرِ

ثمّ قال: «أراد: من عُصُر، فخفّف، وهو الملجأ»[2].

وإذا كان ما قبل الرويّ في قصيدة أخرى متحرّكاً، اضطرّ ثانيةً، فخفّف مثلاً (الحُمَّر)، وجعلها (الحُمَر) في بيت رواه المعريّ[3]:

إنْ لا تُـدارِكْـهُـمُ تُـصْـبِـحْ دِيـارُهُـمُ قَـفْـراً تَـصيـحُ عَـلى أَرْجـائِـهـا الـحُـمَـرُ

ثمّ قال: «إنّه أراد: الحُمَّر المعروف من الطير، وقد روي بالتشديد»[4]، وقال الأزهريّ أيضاً: «خفّفها ضرورةً»[5]، وكان ابن جنّي يرى أنّ في مثل إسكان هذه الحركات أدلّ دليل على «استثقالهم بعضها واستخفافهم الآخر»[6].

ويبدو أنّ ابن أحمر قد توقّف عند مثل هذه التصرّفات التي لم تكن تخرج به عن المألوف في أشعار القدماء، وإذا ما بحثنا عن خصائص لفظيّة أخرى في أشعاره، فسنجد أنّه قد استعان بشيء من التصوير الفنّيّ وشيء آخر من المحسّنات اللفظيّة والمعنويّة، فشاع في أشعاره التشبيه والاستعارة كما رأينا في دراستنا فنّ الوصف في شعره، وعرض مثل غيره من شعراء الجاهليّة لـ «بعض المحسّنات الّتي شاعت في الشعر العبّاسيّ، وكثر استخدامها فيه حتّى اتّخذها بعض الشعراء مذهباً، يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها، ونقصد الطباق

(1) القصيدة 25/ 16.
(2) اللسان (عصر)، ومثله في التاج (عصر).
(3) القصيدة 18/ 47.
(4) عبث الوليد 441.
(5) تهذيب اللغة 5/ 54.
(6) الخصائص 1/ 75.

والجناس، فلهما أصول في الجاهليّة»[1]، ومن أمثلة ذلك قوله[2]:

كَمْ فيهمُ مِنْ هَجينٍ أُمُّهُ أَمَةٌ في عَيْنها قَدَعٌ في رِجْلِها فَدَعُ

فقد جانس ابن أحمر في الشطر الأوّل بين (أُمَّه) و(أَمَة)، ثمّ جانس في الثاني بين (قَدَع) بالقاف و(فَدَع) بالفاء.

وأهل البديع ينشدون له بيتاً سائراً، ينفي الشيء بإيجابه، ويقول[3]:

لا تُفْزِعُ الأَرْنَبَ أَهْوالُها ولا تَرى الضَّبَّ بِها يَنْجَحِرْ

ثمّ يذكرون أنّه أراد: «ما بها أرنب حتّى تفزع، ولا ضبّ حتّى ينجحر»[4].

ويروي له ابن الفضل قوله[5]:

تَغَمَّرْتُ مِنْها بَعْدَ ما نَفِدَ الصِّبا ولَمْ يَرْوَ مِنْ ذي حاجَةٍ مَنْ تَغَمَّرا

ثمّ يقول: «قال أناس: قول ابن أحمر من جيّد ما قيل في التصدير»[6]، ومثل هذه المحسّنات «كان الشاعر الجاهليّ يُعنى بها حتّى يؤثّر في نفوس سامعيه، ويخلب ألبابهم، وهي تصوّر مدى ما كان يودعه قصيدته من جهد فنّيّ، وخاصّةً من حيث التصوير ودقّته وبراعته، فقد كان ما يزال يجهد خياله حتّى يأتي فيه بالنادر الطريف»[7].

فابن أحمر ما كان ليخرج في خصائصه اللفظيّة عن غيره من شعراء

---

(1) العصر الجاهليّ 230.
(2) القصيدة 38/ 2.
(3) القصيدة 35/ 26.
(4) أساس البلاغة (رنب)، ومثله في مصادر البيت الأخرى.
(5) القصيدة 28/ 24.
(6) نضرة الإغريض 105.
(7) العصر الجاهليّ 231.

الجاهليّة، وإذا كان قد أتى بشيء من غريب الألفاظ ونادره، فإنّ أهل العلم قد قبلوا كلّ ما ارتجله، وذلك لما ثبتت به الشهادة من فصاحة كلامه وصحّته. ولا شكّ في أنّ ابن أحمر كان ممّن امتلك ناصية اللغة، فكان يولّد فيها ألفاظاً نادرةً، لا يدفعها كلام العرب، ولا يأباها القياس، وشأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء الأعراب الذين قويت فصاحتهم، وسمت طبيعتهم، فتصرّفوا، وارتجلوا، ولعلّ ابن أحمر كان قدوةً لأمثال هؤلاء الشعراء.

الخاتمـة

إنّ في دراسة شعر ابن أحمر وحياته إضافةً جديدةً إلى تراثنا العربيّ، تبرز شخصيّة شاعر فحل، غَفَل عنه مؤرّخو الأدب ودارسوه، فلم يحظ باهتمام علميّ، يليق بمكانته الرفيعة بين شعراء عصره. وقد حاولنا في هذا البحث أن نتعرّف صورة ابن أحمر، ونتبيّن ملامح فنّه، فبدأنا بدراسة قبيلة باهلة، لنقف على البيئة التي أثّرت في نمط حياته واتّجاه تفكيره، ونفهم كثيراً من جوانب شخصيّته، فتقصّينا نسبها ومنازلها وأيّامها، وألقينا نظرةً إلى شركها وإسلامها، ثمّ عنينا بمنزلتها بين قبائل العرب وبأعلامها في شتّى مجالات العلم والأدب والرئاسة والدين، فرأينا أنّ باهلة كانت ترتفع بنسبها إلى مُضَر بن نزار بن مَعَـدّ بن عدنان، ولكنّها كانت تهوي بحسبها إلى منزلة، حطّ الهجاء من شأنها، فشقيت بالشعر، ولقيت بلاءً ظالماً من الشعراء. وهذه الدراسة وضعت بين أيدينا جملة عوامل، تركت أثرها في نفس ابن أحمر وفنّه، فأصبح في وسعنا أن نتفهّم كثيراً من جوانب هذه الشخصيّة، وكان من اليسير أن ننتقل إلى الفصل الثاني للحديث عن حياته.

افتتحنا هذا الفصل بنسب ابن أحمر وأسرته، فوجدنا أنّه عاش في بيت متواضع، لا يمتاز بشيء من صيت ولا شهرة، ورأينا أنّه نشأ في أحضان بادية

نجد، فتهيّأت له سبل الفصاحة حتّى غدا صحيح الكلام كثير الغريب، ثمّ عرضنا لصلته برجال عصره وأحداثه في الجاهليّة والإسلام، وحدّدنا العهد الذي أدركه، فكان ولاية عبدالملك بن مروان (73 ـ 86هـ)، وقدّرنا سنة وفاته، فكانت بين (77 و82هـ/ 696 و701م)، ثمّ حاولنا أن نتبيّن جوانب شخصيّته وملامح ثقافته، فكان رجلاً أعرابيّاً، جُبل على الحقّ والأنفة والخير، وبرزت بداوته من خلال معان غامضة وألفاظ غريبة أو من خلال مُثُل جاهليّة وخصال أعرابيّة، ثمّ وجدناه يستمدّ مظاهر ثقافته من الصحراء والبادية، وأشرنا إلى أنّ هذه الثقافة لا تكاد تخلو من مؤثّرات البيئة الحضريّة، وذكرنا أنّ القراءة كانت مصدراً مهمّاً من مصادرها، لأنّ ثمّة إشارات، كانت تجعلنا نعتقد أنّ ابن أحمر كان يعرف الكتابة قراءةً وخطّاً، ثمّ خلصنا إلى منزلته بين شعراء عصره، فوجدنا النقّاد يجعلونه دون الفحول وفوق طبقته.

وبعد أن تعرّفنا صورة ابن أحمر كان لابدّ أن نتبيّن ملامح فنّه، فوقفنا في الفصل الثالث على مصادر شعره، وأخذنا بالحديث عن ديوانه الذي لم نقع له على أثر غير إشارات، وردت في عدّة مصادر، ثمّ انتقلنا إلى رواية أوائل العلماء شعرَه، واستعرضنا مصادره، فانتهينا إلى أنّها اقتصرت على المعجمات والأصول التي صنّفت في ظواهر اللغة ومشكلاتها وعلومها، وكانت تزخر بشعره أكثر ممّا روته مصادر الأدب والنقد والمعاني وسواها، ثمّ أشرنا إلى ضياع شعره الذي لم يبق منه غير (530) بيتاً وأربعة أشطار، هي مجموع ما اطمأنّ البحث إلى روايته لابن أحمر.

ثمّ انتقلنا إلى الفصل الرابع، لنوثّق شعر ابن أحمر، وبدأناه بالحديث عن الانتحال في شعره، فلم نجد غير موضع واحد، أثار ابن جنّي شيئاً من الشكّ حوله، ولم نر سبباً لإثارة أدنى شكّ حول أيّ موضع آخر منه، لأنّنا لا نرى فيه شيئاً من آثار الانتحال، ما دمنا لا نملك البيّنة والدليل، وما دامت يد الزمان

تضنّ بديوانه وبكثير من أخباره، فنظلّ مطمئنّين إلى صحّته حتّى يظهر لنا من وجوه النقد ما يضعّف من ثقتنا واطمئناننا، ويميّز الموضوع من الصحيح، ثمّ بحثنا ظاهرة الاضطراب في أشعار، يتنازعها الرواة بين ابن أحمر وسواه من الشعراء، فرأينا صوراً شتّى من هذا الاضطراب، تقع بينه وبين من سمّي باسمه، أو بينه وبين أفراد أسرته ممّن عرف بقول الشعر، أو بينه وبين شعراء توشك أسماؤهم أن تشابه اسمه في الرسم، ورأينا صوراً أخرى من هذا الاضطراب بينه وبين شعراء آخرين، لم نجد ما يجمع بينهم سوى وهم الرواة، فتنوّعت صور الاضطراب في شعره، واختلفت أشكاله، ولعلّ مناقشة كلّ ذلك قد جعلتنا على بيّنة ممّا لابن أحمر وما ليس له، فأصبح من اليسير أن نتّجه من خلال شعره الموثّق إلى دراسة موضوعات شعره وخصائصه الفنّيّة.

ثمّ نظرنا في الفصل الخامس إلى موضوعات شعره، فألفيناه يذهب في الشعر كلّ مذهب، ويضفي على فنّه شيئاً من ذاته، ويمضي يصدر عن خُلُق كريم في أشعاره حتّى إذا ما هجا لم يقذع، وإذا ما تغزّل لم يسفّ، وإذا ما مدح لم يتكسّب.

ففي غزله لم يخرج ابن أحمر عن نهج الشعراء القدماء في قصيدة الغزل، فكان يقف بالديار، ويتذكّر امرأةً، يرسمها بخياله لا بقلبه، أو يصف ذكريات شباب، يظلّ حسرةً لا تبرح، وربّما عرض غزله في أثناء أشعاره، فكان يتلوّن بتجارب شخصيّة، ويفيض بعواطف جيّاشة، وإذا كان قد أشار إلى شيء من اللهو، فإنّ ذلك ما كان ليبلغ حدّ صراحة سافرة، لأنّه لم يكن أسير طبع، يعطف به إلى اللذات، فكأنّه قد طُبع بالمدرسة النَّجْديّة أجمل طبع وأرقّه.

وفي مديحه كان شاعراً أنوفاً، لا يريق ماء وجهه لممدوح، فلم يكن يمدح الرجل إلاّ بما فيه من الفضائل غير آمل بكسب ولا طامع بعطاء، وكان قد جرى على سنّتهم في قصيدة المدح منذ عصر ما قبل الإسلام.

وفي فخره كان يذهب إلى فخر قبليّ وآخر فرديّ، وهو فيهما لا يبلغ عنفوان الكِبْر، فكأنّ علاقته غير الودّيّة بقومه وأصله الباهليّ غير الرفيع جعلاه يحسّ إحساساً عميقاً أنّه دون هذا الغرض حسباً ونسباً، فلم تضطرب في نفسه مشاعر الزهوّ والخيلاء، ولكنّه ظلّ وفيّاً لما جُبل عليه من خير وسماحة وفضل.

وفي هجائه لا يبلغ شأواً بعيداً، وإنّما يقف عند التهكّم والسخرية، فلا يتجاوز ذلك إلى اتّهام ظالم أو شتم مقذع أو قذف مفحش.

وفي حكمته يزجي أبياتها في أضعاف أغراضه المختلفة تعقيباً على تجربة أو تأمّلاً في حدث أو تلخيصاً لرأي، فهي لا تنمّ عن فكر مستقرّ، ولا تصدر عن تأمّل عميق، بل هي وليدة ما تأصّل في نفسه من ثقافة وما مرّ به من تجارب في آن معاً.

وفي وصفه كان يصوّر ما تقع عليه عينه من جوانب الطبيعة وأنواع الحيوان، وقد وجدنا أنّ قدرة شاعرنا على هذا الفنّ كانت تبرز في وصفه الريح والخيل كما رأينا أنّه كان يوفّر لوصفه كلّ وسائل الجمال وأسباب الجودة وأدوات التصوير من ألوان وأصوات وحركات وخطوط، ويحيط بأركان الصورة وأبعادها في دقّة وحذق ومهارة.

وحينما انتقلنا في الفصل السادس إلى دراسة خصائصه الفنّيّة في شعره بدأنا بالخصائص المعنويّة، فرأينا أنّ معانيه اضطربت بين الغموض والوضوح، وربّما رجّح الوضوح كِفّة معانيه حتّى مالت إلى السهولة في أغلب الأحيان، فإنّ لمحنا شيئاً من الغموض، فقد يكون ناجماً عن أسلوب ابن أحمر نفسه، وذلك حين يلجأ إلى شيء من الحذف أو القلب أو الإيجاز أو التقديم والتأخير أو ما أشبه ذلك، أو حين يتمثّل بكثير من معارف عصره وبيئته، ثمّ وجدناه يستمدّ معانيه من إسلامه وجاهليّته أو من بداوته وحضارته، فكانت لا تختلف في

إطارها الحسّيّ عن معاني غيره من الشّعراء الجاهليّين والمخضرمين، لأنّ مصدرهم كان واحداً، وهو البيئة الحسّيّة التي تحيط بهم.

ثمّ تناولت الدراسة الخصائص اللفظيّة، فلفت أنظارنا الإغراب في ألفاظه، لأنّه جاء بحروف، لا يُعلم أحد أتى بها من قبل، ثمّ وقفنا على ما لمحناه في شعره من ظواهر لغويّة، لا تخرج عمّا يمكن أن نصادفه عند غيره من الشعراء، وإذا كان ابن أحمر قد تصرّف في اللغة، وأتى بشيء من غريب الألفاظ ونادره، فإنّ أهل العلم قد قبلوا كلّ ما ارتجله وما تصرّف به، وذلك لما ثبتت به الشهادة من فصاحة كلامه وصحّته.

إنّ هذه الدراسة قد جعلتنا نتعرّف صورة ابن أحمر، ونتبيّن ملامح فنّه، وما نأمله أن تلفت أنظار مؤرّخي الأدب ودارسيه، فلعلّ غَبَرَة الدهر تنفض عن وجه أدبيّ فذّ، كانت له مكانة سامية بين شعراء طبقته من الشعراء المخضرمين.

فهرس المحتويات

المقدّمة 11

الفصل الأوّل: قبيلة باهلة 13

1 ـ نسبها 14

2 ـ منازلها وأيّامها 16

3 ـ شِرْكها وإسلامها 24

4 ـ منزلتها وأعلامها 28

الفصل الثاني: حياة ابن أحمر 49

1 ـ نسبه وأسرته 49

2 ـ نشأته وصلاته 57

3 ـ عوره ووفاته 68

4 ـ شخصيّته وثقافته 74

5 ـ منزلته الأدبيّة 85

الفصل الثالث: ديوان ابن أحمر ومصادر شعره 87

1 ـ الديوان 87

2 ـ رواية شعره 96

3 ـ مصادر شعره 99
4 ـ ضياع شعره 102

الفصل الرابع: توثيق شعره 105
1 ـ الانتحال وشعره 105
2 ـ الاضطراب وشعره 108

الفصل الخامس: موضوعات شعره 131
1 ـ الغزل 131
2 ـ المديح 138
3 ـ الفخر 145
4 ـ الهجاء 150
5 ـ الحكمة 157
6 ـ الوصف 160

الفصل السادس: الخصائص الفنّيّة 179
1 ـ الخصائص المعنويّة 179
2 ـ الخصائص اللفظيّة 212

الخاتمة 241